د. محمد محمود المنداوي

الشيعة وظلم السلاطين

(من فتنة السقيفة إلى هدم القبتين)

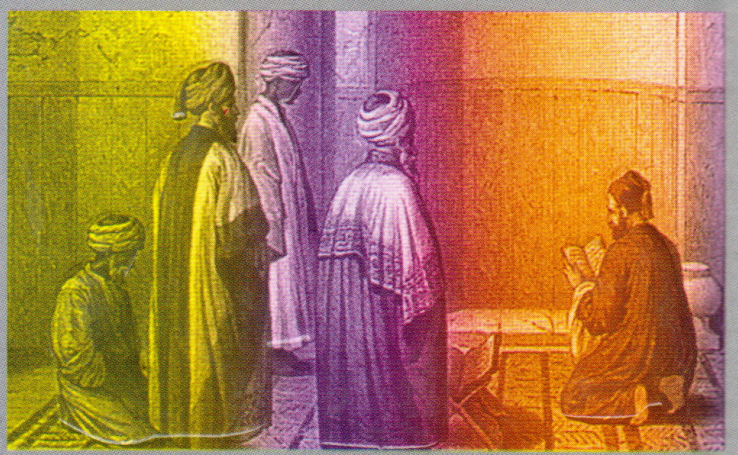

دار المحجة البيضاء

الشيعة
وظالم السلاطين

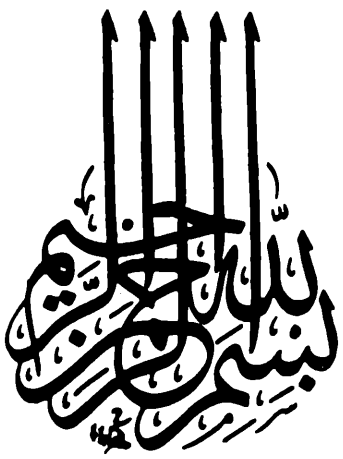
بسم الله الرحمن الرحيم

الشيعة
وظلم السلاطين

(من فتنة السقيفة إلى هدم القبتين)

د. محمد محمود المنداوي

دار المحجة البيضاء

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

دار المحجة البيضاء
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

الرويس - خلف محفوظ ستورز - بناية رمال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١ - تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧

E-mail:almahajja@terra.net.lb
www.daralmahaja.com
info@daralmahaja.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣).

شبكة الفكر
alfeker.net

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد رسول الهدى وسيد المرسلين وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين الأخيار. .

وبعد. . .

مشكلة الخلافة التي هرع إليها المسلمون وانشغلوا بها يوم تركوا الرسول ﷺ جثة هامدة دون أن يأبهوا لتجهيزه وغسله وتكفينه، إنما كان تهافتهم من أجل الوصول إلى الخلافة وكرسي السلطة، ترك أثراً كبيراً في تأجيج الفتنة ودوراً مهماً في ظهور الشيعة على المسرح السياسي، فقد كان مؤتمر سقيفة بني ساعدة الدافع في إظهار الموروث العربي في حب التسلط والرياسة والزعامة والرفض الشديد لكل الدعوات التي أطلقها النبي محمد ﷺ في استخلاف الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام فقد قابلت هذه الدعوة معارضة شديدة لتصبح فيما بعد منطلقاً للفتنة التي لا زلنا نعاني من آثارها ونتائجها حتى يومنا هذا. . . ولتكون باحة السقيفة المكان الذي خرجت منه نار الفتنة، تستعر نيرانها كلما أرادت الأمة الإسلامية أن تجد لها سبيلاً إلى السلام والاستقرار.

فموضوع الخلافة هي أولى المشاكل التي انفجرت حولها الخلافات

والصراعات بين المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ لينقسم حولها المسلمون إلى فريقين:

فريق يقول بالنص والتعيين الإلٰهي،

وفريق يقول بالشورى وبأن الرسول ﷺ لم يعين أحداً لخلافته وإنما نرك لأمته حرية الاختيار فيمن تراه مناسباً للخلافة.

وبعد مقتل الخليفة عثمان وظهور الأمويين على الساحة السياسية وتوغلهم فيها وتخطيطهم لاستلام الزعامة الإسلامية بدأ الخلاف والتفاقم والتوسّع والبعد بشكل نهائي. وظهرت سياسة تجريم المعارضة واستخدام القمع والشدّة بحقها بالاستناد إلى حجة مخالفتها للإسلام كما هو الحال في ما تقدم بالسياسة الأموية والعباسية ثم العثمانية. بينما لم يسجل التاريخ أي مظهر استبدادي في سياسة رسول الله أو في زمن خلافة الإمام علي عليه السلام. بينما نلاحظ أن الدولة الإسلامية إبان الحكم الأموي عاشت حكماً وراثياً لا يراعي شرط الكفاءة والخبرة في ارتقاء منصب خلافة المسلمين، وقد بلغ الاستبداد زمنهم مبلغاً عظيماً فتحوّلت الدولة التي كانت في زمن الرسول ﷺ دولة ولائية إلى دولة تمليكية مغتصبة لرقاب المسلمين تعمل بهم السيف وتبيح المحرمات، ومنذ ذلك الحين صار الاستبداد ظاهرة مألوفة في بلاد المسلمين وممارسة يومية للحاكمين حتى ألفَها الناس إلاّ الأحرار من أصحاب النفوس الأبية الذين ثاروا ورفضوا الاستبداد والخضوع والاستعباد. وخير مثال لذلك موقف الإمام الحسين عليه السلام واستشهاده في كربلاء دفاعاً عن مبادىء وقيم الإسلام السامية.

ومورس بحق الشيعة الموالين لآل بيت محمد ﷺ أشد الاستغلال والمذلّة والضعف وأبشع أنواع الظلم والطغيان واستبعادهم عن الجهاز

الحكومي والتصدّي لنشاطاتهم الفكرية والدينية بالقوة، فاعتبرت مظلوميتهم الأكثر عمقاً في العالم فما تعرّض له الشيعة من مضايقات وحرب وقتل وتشريد وسبي ما لم يشهد له مثيلاً في التاريخ. فقد اكتسب التشيّع لعلي عليه السلام صفة الدفاع عن المضطهدين والمستضعفين وحدث بسبب ذلك مجازر وحشية بحقهم. إن الحقيقة المؤكدة تؤكد بأن الشيعة الإمامية قد مروا بسنوات قاسية حيث عاشوا أشد سنوات الشقاء في بلادهم تمثّلت بحقب المحن والمصائب والحروب والفتن وتشير المصادر التاريخية المليئة بالوقائع المؤلمة التي مرّت على العراق باعتباره موطن خلافة الإمام علي عليه السلام ودولته وفيها شيعته ومواليه الذين تم إطلاق تسمية الروافض عليهم على اعتبار أنهم رفضوا كل الحكومات التي اغتصبت الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أهل بيته. إن المؤلم حقاً أن نجد الأمة الإسلامية تعيش زمناً طويلاً تعاني ويلات الصراعات ما بين المذاهب المتعددة امتزجت بحركات المعارضة التي راح فيها شباب وشباب في الحروب والانتفاضات والجوع والحصار والهجرة، ولأجل أن نقرأ دروساً هامة في التاريخ علينا أن نعرف بأن بغداد لم تقلع عن الفتنة يوماً فرغم أنها كثيرة العمران ما لم تنته إليه مدينة أخرى في العالم منذ بدء الخليقة فيما علمناه إلا أنها أصيبت في زمن العباسيين بالفتن، وكثر فيها المفسدون والدعار والعيارون واجتاحت الفتن أهل السنة والشيعة كما اجتاحتها من قبل أيام الأمويين.

وتكرر ذلك ولم يكن بمقدور بنو بويه ولا السلجوقيون على حسم ذلك، ولم تقلع بغداد عن الفتنة وتلاشى عمرانها وبقي طراز الفتنة في ردائها لم تتخلص منه حتى في زمن الاجتياح المغولي والسيطرة الصفوية والعثمانية والمماليك ومن ثم الإنكليز، فقد عاش العراق، وعلى وجه الخصوص عاصمتها العتيقة بغداد مسرحاً للنشاطات الإجرامية من فتن وحروب

ومشاكل عنيفة هزّت البلاد وأقلقت الناس وملأت جسد الأمة بالجراح، وكان الكيان الحكومي السلطوي مشاركاً في الكثير من الصور الرمزية للظلم والطغيان والاستهانة بدماء الأبرياء.

إن التكليف الإسلامي هو الذي أعطى وصبغ الشيعة بالحزن وأثّر كثيراً على سلوكهم النفسي والاجتماعي وهم يعانون منذ أكثر من ألف وخمسمائة سنة ولا زالوا من غياب الحق وانقطاعهم عن القيادة المعصومة، لذا فالشيعة يعيشون في حزن عميق بتعبير سلمي إلى أن يظهر إمامهم الغائب لأنهم مؤمنون بأن الأرض سيورثها الله لعباده الصالحين وستكون العاقبة للمتّقين، لذا نرى صبرهم وتجلّدهم وتحمّلهم للمشاق والعقبات والارتفاع عن مستوى الألم والظلم التي تنجم من فعل الظالمين منذ زمن طويل دون أن يكون لذلك الانتظار وهناً لقوة إرادتهم وحبهم لآل محمد ﷺ.

ولو رجعنا إلى ما عاناه الإمامان العسكريان في عصرهما من تضييق وظلم من متطرفي بني العباس ومواليهم وما فعلوه بحقهم من أعمال منكرة لما استغربنا من قبح ما يقوم به متطرفو هذا العصر من الإرهابيين التكفيريين الذين ساروا في نفس الاتجاه الخاطىء الذي سار عليه من قبل متطرفو عصر الإمامين العسكريين في سامراء ومن خلال النظر إلى زمننا هذا نرى الكثيرين يعلنون عن آرائهم وتصرفاتهم المشينة التي تعطي مبررات لأعمال غير منطقية لتكون عوناً لهم في معركتهم السياسية للوثوب على السلطة أثمرت عن تفجير مرقد الإمامين العسكريين في سامراء. إن فكرة الحقد والبغض والقتل قد انحدرت من الأزمان القديمة كما أسلفنا، وهي تسير على نفس النحو في نفوس متطرفي عصرنا الراهن، وقد أردنا من خلال استشهادنا بالتاريخ جانب المارقين المبغضين للحق وجانب الخط المؤمن الرسالي الذي جاء به النبي ﷺ. وإن الذين فجروا مرقدي الإمامين العسكريين في سامراء أرادوا

من خلال عملهم المشين هذا إشعال نار الفتنة الطائفية بين أبناء الشعب العراقي، والتي كانت قد خمدت منذ زمن. وعلى الفكر القومي العربي أن يعيد النظر في ثقافته وتاريخه المليء بالمفاهيم الملفّقة والأحداث المزوّرة والابتعاد عن الأفكار المحشوة بالفتن والأحقاد والمؤامرات.

فمن السذاجة الاعتقاد بأن تلك الاضطرابات مجرد اقتتال طائش لأنها تجارب واقعية مريرة وانتهاكات وحشية بحق الإنسانية، وعلينا أن نستفيد من عِبَر التاريخ ومآثر الأيام وما تركته من آثار محزنة على الكثير من شعوب العالم التي عاشت ويلات الحرب الأهلية وما صبّت عليها من مآسٍ ومصائب ومحن وخراب. كان من أهم مسبباتها ركون تلك الشعوب إلى الفتن الطائفية.

وليعلم الجميع أن رصاص البندقية وزرع العبوات الناسفة وتفجير السيارات المفخخة والأحزمة الناسفة وإثارة الفتن والفوضى والدمار لا يمكنها أن تُسهم في حل مشاكلنا الداخلية العالقة بل تزيدها تعقيداً وفوضى في وقت نحن بأمسّ الحاجة إلى تفعيل التعايش السلمي حتى لا نعطي الفرصة المناسبة للفئات الضالة من ذوي النفوس الضعيفة لتصطاد في الماء العكر. ورغم حجم الأزمة وعمق المؤامرة التي سعى إليها أعداء الإسلام بتفجير مرقدي الإمامين العسكريين في سامراء إلا أن العراقيين بوعيهم الوطني أفشلوا مخططات الإرهابيين التكفيريين وأبعدوا شبح الاصطدامات الطائفية التي كان من الممكن جداً أن تندلع على نحو واسع وخطير.

ورغم أن كل الدلائل والإشارات التي كانت تبدي بالفعل أن الفتنة خطيرة جداً بعدما صاحبتها أعمال عنف وظاهرة القتل على الهوية والتهجير القسري الطائفي والاغتيالات العشوائية والتجاوزات اللاواعية على بيوت العبادة وتوتر الشارع العراقي على نحو لم تشهده البلاد من قبل، كادت

تتفجر حرباً طاحنة بين أبناء الشعب الواحد. كان من أهم أسبابها تأجيجها من قبل أطراف خارجية قدّمت لها التسهيلات والدعم وهيأت لتفجيرها إعلاماً مضللاً خبيثاً تؤكد على مشاركة فعلية لأجهزة مخابرات دولية وإقليمية في الشأن الداخلي العراقي همها دفع البلاد إلى هاوية الحرب الأهلية.

إلا أن الوحدة العراقية كانت أقوى من كل دسائس الأعداء وعملائهم. ليبقى باب الأمل مفتوحاً على مصراعيه بالتفاؤل لإيجاد مخرج واسع للأزمة التي نعيشها اليوم، ليس لأنها سهلة بل لأن رغبة الجميع بلا استثناء هي إيجاد الآلية المشتركة التي نرتقي من خلالها بأمننا وسلامة وطننا.

إن الشعب العراقي شعب كبير بأهله وتاريخه وحضارته، بماضيه وحاضره، بهمة الخيرين الذين أدركوا جيداً مقدار ما وصل إليه الانحطاط الفكري والعقائدي للذين يسعون إلى تدمير حياة الأبرياء من خلال تفجير حزام ناسف بين المصلّين في حسينية للشيعة أو جامع يصلي فيه السُّنة. أو من يقوم بتفجير سيارة في أحد شوارع بغداد المكتظة بالناس من كافة الطوائف والقوميات والمذاهب...

إن القضية واسعة وكبيرة لأنها تتضمن مشروع تآمر دولي إقليمي على العراق أرضاً وشعباً، كما أنها قضية إنسانية بحتة من الدرجة الأولى تستهدف الإنسان بعيداً عن أثنيته وطائفته ومذهبه. أجل إن العراقيين اليوم قد أدركوا أن ما نشهده اليوم من فظاعة الانتهاكات لحرمة الإنسان العراقي أصبح عبئاً ومسؤولية في ذات الوقت برقاب الشرفاء في هذا الوطن للإسراع لكسر طوق التعصب والتطرّف لدحر الطائفية المقيتة كي نبني وطناً يسوده الأمن والسلام الدائم.

وأن نؤمن بأن دم الإنسان العراقي مقدّس لا يمكن الاستهتار به،

والعنف والاقتتال لا يمكن أن نحقق من خلاله إلاّ مزيداً من الدمار والخراب والمصائب والمزيد من الأيتام والجياع والقتلى والمهجرين، الطائفية لا يمكن أن تحقق لنا وطناً آمناً مستقراً، ولا توفر لأطفالنا لقمة الخبز، وعلينا أن ندرك أن تلك الحرب الأهلية اللعينة إذا لم نسارع إلى منعها بكل الوسائل والطرق ستجعل الجميع على بعد خطوات قريبة جداً من الجحيم الحقيقي تهلك وتحرق وتدمر أرضنا وزرعنا ونسلنا وتهدد مستقبل أجيالنا بالدمار النهائي. علينا أن ننبذ العنف لنتمكن من دحر الإرهاب لننجح في بناء وطن جديد خالٍ من التطرف والتعصب والعنصرية.

لنعيش أحراراً بلا وصاية من دول الجوار أو قرارات الاحتلال وإلا سوف نخسر العراق إلى الأبد، أرضاً وشعباً وحضارة وتاريخاً ومجداً، وستحرق الفتنة مزارع الخير وأمل الأجيال في بلاد الرافدين.

المؤلف

بيروت في ٧/ ١٢/ ٢٠٠٧

الفصل الأول

الفتنة

تعريفها:

★ أولاً: الفتنة في اللغة:

قال ابن الأعرابي[1]: الفتنة الاختبار، والفتنة المحنة، والفتنة المال، والفتنة الأولاد، والفتنة الكفر، والفتنة اختلاف الناس بالآراء، والفتنة الإحراق بالنار[2] والفتنة العذاب والتشويش والهرج، فالغنىٰ فتنة والجمال والشباب فتنة والجور فتنة والخروج على السلطان فتنة[3].

★ ثانياً: الفتنة كما وردت في القرآن:

وردت الفتنة في القرآن على وجوه كثيرة منها:

* الكفر: لقوله تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾[4].

---

(١) هو محمد بن زياد الكوفي أبو عبد الله المعروف بابن الأعرابي، من علماء اللغة والنسب، كان يروي أشعار القبائل، أخذ العلم عن الكسائي وابن السكيت وثعلب وغيرهم، وتلقّىٰ عنه الأصمعي، من مصنفاته: النوادر ـ تاريخ القبائل ـ معاني الشعر. توفي عام ٢٣١ هـ/٨٤٦ م.

(٢) لسان العرب والقاموس المحيط ـ مادة فتن.

(٣) ابن منظور: جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي الأنصاري (ت ٧١١ هـ) لسان العرب ـ إعداد وتصنيف يوسف الخياط ـ بيروت ـ دار لسان العرب.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[1].

الامتحان والابتلاء: لقوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾[2].

يعني وهم لا يمتحنون، وقوله: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾[3].

* الإحراق بالنار: لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾[4]. وقوله: ﴿عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾[5] يعني يحرقون بالنار.

كما ورد أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ﴾[6].

وقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾[7].

وقوله: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ﴾[8].

وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾[9].

★ ثالثاً: الفتنة كما وردت في الحديث الشريف

قال رسول الله ﷺ: «من الدين الفرار من الفتن»[10].

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٤.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٢.
(٣) سورة طه، الآية: ٤٠.
(٤) سورة البروج، الآية: ١٠.
(٥) سورة الذاريات، الآية: ١٣.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٩١.
(٧) سورة البقرة، الآية: ١٩٣.
(٨) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.
(٩) سورة التغابن، الآية: ١٥.
(١٠) هو الحصن، انظر: ابن منظور: لسان العرب.

وقوله ﷺ: «فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر»[1].

وروى البخاري من طريق أسامة بن زيد (رض) قال: أشرف النبي ﷺ على أطم[2] من آطام المدينة فقال:

«وهل ترون ما أرىٰ؟» قالوا: لا، قال: «فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر»[3].

قال الحافظ ابن حجر: وإنما اختصّت المدينة بذلك لأن قتل عثمان (رض) كان بها، ثم انتشرت الفتن في البلاد بعد ذلك، فالقتال بالجمل وبصفين كان بسبب قتل عثمان، والقتال بالنهروان كان بسبب التحكيم بصفين وكل قتال وقع في ذلك العصر إنما تولّد عن شيء من ذلك أو عن شيء تولّد عنه[4]

★ رابعاً الفتنة كمصطلح:

منذ بدأت الخلافات تطلّ برأسها بين المسلمين الأوائل، ظهر مصطلح جديد أخذ تدريجياً يحتلّ موقع الصدارة في العصر الأموي، ثم بات المصطلح الأكثر استعمالاً في العصر العباسي، إنه مصطلح الفتنة.

وقد استغلّ هذا المصطلح أوسع استغلال فسلطة الخلافة تتهم كل حركة معارضة لها بأنها فتنة، وبذلك تحاول أن تكسب إلى جانبها عامة المسلمين مثل خروج يزيد بن المهلب بن أبي صفرة والي خراسان بالثورة على الأمويين سنة ٨٣ هـ بعد وفاة أبيه.

---

(١) صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٨، ج ١، ص ١١.

(٢) الجامع الصحيح ـ كتاب الفتن، باب قول النبي ﷺ: «ويل للعرب من شر قد اقترب» ٨٨/٨، ٨٩.

(٣) ابن حجر: الفتح ١٣/١٣.

(٤) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٦/ ٣٧ ـ ٥٣.

وكذلك تسمية حرب الأخوين: فتنة المخلوع والمأمون[1] وحركة الذبح وحركة الزط وحركة القرامطة كتبت تحت عنوان الفتنة في كتب التاريخ.

ورأى الناس في حملهم على القول بخلق القرآن[2] ـ أواخر أيام المأمون ـ فتنة.

وأطلق مصطلح الفتنة على التناحر القبلي أيضاً، فما جرى بين القيسية والنزارية بخراسان سنة ١٢٦ هـ فتنة. وما جرى في الشام سنة ١٧٦ هـ بين النزارية واليمانية عصبية وفتنة[3].

★ خامساً: بين الفتنة والنكبة:

يطلق مصطلح النكبة ـ كما يسمح ذلك معناه اللغوي ـ على المآسي الفردية والجماعية وعلى الفجائع التي تصيب مظاهر الحضارة والعمران. فالنكبة، لغة المصيبة من مصائب الدهر وإحدى نكباته، والنكب كالنكبة وجمعه نكوب. ونكبه الدهر ينكبه نَكْباً ونَكَباً: بلغ منه وأصابه بنكبة، يقال: نكبته حوادث الدهر، وأصابته نكبة ونكبات وتكون كثيرة[4].

---

(١) المخلوع هو محمد الأمين (١٩٣ ـ ١٩٨ هـ) الذي انتصر عليه أخوه المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨ هـ) الذي كان من أعظم الخلفاء العباسيين.
انظر: تاريخ الطبري والكامل لابن الأثير، حوادث سنة ١٩٧ هـ.

(٢) يرى المأمون رأي المعتزلة الذين اعتقدوا أن القرآن مخلوق وأنه لا يشارك الله تعالى صفة القدم، مخالفين بذلك رأي الجمهور.
انظر حوادث سنة ٢١٨ هـ في كتاب التواريخ الجامعة.

(٣) إشارة إلى ما كان من عصبية بين عرب الشمال العدنانيين وعرب الجنوب القحطانيين، تاريخ الطبري، حوادث سنة ١٢٦ هـ، وحوادث سنة ١٧٦ هـ ومثلهما ما جرى في الشام سنة ١٨٠ هـ. المصدر نفسه حوادث سنة ١٨٠ هـ.

(٤) لسان العرب ـ مادة نَكبَ.

وتعبير النكبة للدلالة على المصيبة التي تحل بالفرد وأسرته أو بالجماعة والأقوام والممالك، أو يأتي بالتعبير عن المآسي العامة كالحرب وغيرها. وإذا أردنا أن نقف عند كلمة (النكبة) فإنها قد أصبحت وصفاً لما حلّ بالبرامكة[1] على يد الخليفة العباسي هارون الرشيد سنة ١٨٧ هـ. ومن المعلوم أن حركة الرشيد الإصلاحية التي اصطلح على تسميتها بـ (نكبة البرامكة)[2] أصابت بعضهم وبعض أتباعهم في بغداد وغيرها.

إن مصطلح الفتنة يتضمن حكماً قيمة فيه إدانة مسبقة كما تجلّى ذلك في تراثنا القديم. ثم إن الفتنة ليست بالضرورة ذات مظهر تدميري على عكس النكبة، فقد تتفشىٰ الفتنة ولا دماء بينما تعمّ النكبة والدماء ترافقها، والنكبات بدايتها فتن وليس العكس صحيحاً.

إن المراد بالفتنة في كتابنا هذا ما وقع بين المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ باجتماع كبار الصحابة في سقيفة بني ساعدة كل يريدها لنفسه إلى الحد الذي وصلت فيه الخلافات والصراع على الخلافة وقتذاك إلى حد خطير هددت كيان الدولة الإسلامية بالانهيار. ويمكن القول على أنها كانت الفتنة الأولى ومن ثم لحقتها تباعاً فتن كثيرة وصولاً إلى يومنا هذا حينما حاول الإرهابيون التكفيريون من إيقاظها من جديد بعدما كانت في سبات من خلال قيامهم بتفجير مرقدي الإمامين العسكريين في سامراء ولا زالت الأمة الإسلامية تعيش ويلات الفتن القديمة.

---

(١) البرامكة ـ أسرة فارسية مشهورة عمل عميدها يحيى بن خالد بن برمك مؤدباً للرشيد ثم ولي الوزارة له، وولى الوزارة ابنه الفضل ثم ابنه جعفر. قتل جعفر سنة ١٨٧ هـ ومات يحيى في سجن الرشيد بالرقة سنة ١٩٠ هـ.
انظر: كتب التواريخ الجامعة: حوادث سنة ١٨٧ هـ.

(٢) استعمل المصطلح في تاريخ الأمم والملوك للطبري وفي الكامل في التاريخ لابن الأثير كما استعمل المصطلح في الفهرست لابن النديم ص ٩٧ وفي نساء الخلفاء لابن الساعي ص ٨٢ وغيرها.

الفصل الثاني
محنة الخلافة

★ اجتماع السقيفة والبيعة:

واجه المسلمون بعد وفاة النبي ﷺ مشكلة الخلافة التي هرعوا إليها وانشغلوا بها وتركوا الرسول ﷺ جثة هامدة دون أن يأبهوا لتجهيزه وغسله وتكفينه، كل ذلك من أجل الوصول للخلافة.

فظهر على سطح الحياة السياسية ثلاثة تيارات كانت وراء الصراع أو التنافس على السلطة بعد وفاة الرسول ﷺ إلا أن الكثير من المصادر الإسلامية أشارت إلى وجود تيارين فقط وحصروها في قريش تحديداً.

وفي الحقيقة قد ظهرت ثلاثة تيارات عزمت على تولّي السلطة بعد رحيل النبي ﷺ مباشرةً.

التيار الأول:

شيعة بني أُمية، وهم من قريش والموالين لهم من العرب، وسوف نرى لاحقاً اتساع الموالين لهم ليشمل أهل الشام وغيرها من سائر الأمصار الإسلامية وخاصة مصر فيما بعد، وكان هذا التيار بقيادة أبي سفيان بن حرب الذي قضىٰ شبابه في تعبئة الجيوش لمحاربة رسول الله ﷺ والقضاء

على دعوته بكل جهوده حتى إذا ما فشلت جميع محاولاته وتغلب رسول الله ﷺ، استسلم للأمر الواقع في غير قناعة، ولكن رسول الله ﷺ لكرمه ولعظمة خلقه عفا عنه وسمّاه الطليق[1].

وبعد موت الرسول ﷺ عاد إلى خلقه لإشعال الفتنة وأراد أن تكون الخلافة في قريش بأن يكون البيت الأموي أحق بها، ولكن عمر بن الخطاب فاجأهم عندما عارض النصوص الصريحة وعارض أن يكتب لهم رسول الله ﷺ ذلك الكتاب[2]. لأنه عرف فحواه حتى اتهمه بالهجر وخوّف الناس حتى لا يعرفوا بموته[3] وذلك لئلا يتسابق الناس ببيعة علي وشهد بيعة أبي بكر وحمل الناس عليها بالقهر وهدد كل من تخلّف بالقتل[4].

التيار الثاني:

شيعة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وكان جلّهم قريشيين من بني عبد المطلب والكثير من الصحابة الموالين لآل بيت رسول الله ﷺ وكانوا يرون أن تكون الخلافة في قريش وأن علياً من بعد النبي ﷺ أحقّ المسلمين بها إلا أن أخلاق علي أبت أن يترك رسول الله ﷺ مسجّىٰ ويتسابق إلى السقيفة مثلما أسرع إليها الذين فسخوا عقدهم مع رسول الله ﷺ لأسباب كثيرة سنشرحها بالتفصيل في جانب آخر من الكتاب.

التيار الثالث:

الأنصار من الآوس والخزرج الذين كانوا يجدون أنفسهم أحقّ بها من الفريقين الآخرين.

---

(١) فاسألوا أهل الذكر، ص ٤٢.
(٢) صحيح البخاري، ج ٤ ص ١٩٥.
(٣) صحيح البخاري، ج ٨ ص ٢٨ وتاريخ الخلفاء ج ١ ص ١٩.
(٤) صحيح البخاري، ج ٨ ص ٢٥.

وبمرور الزمن تحوّل هذا التيار إلى فرقة تسمىٰ بالخوارج يتّخذون موقفاً عدائياً من الإمام علي عليه السلام حيث بنت هذه الفرقة كيانها السياسي على أثر نجاحهم في فرض نظريتهم السياسية التي نادوا بها إثر التحكيم بين الإمام علي عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان فيما يتعلق بأحقّية الخلافة.

ورغم أن الخوارج كانوا يرون أن الخلافة حق لكل مسلم ما دام كفأً، لا فرق في ذلك بين قرشي وغير قرشي وقد توافقوا وتهادنوا مع الأمويين أيام معاوية بغضاً في علي عليه السلام.

وما اقترفوه بحق المسلمين من تكفير وقتل لم يختلفوا كثيراً في آرائهم ضمن هذا الموضوع بالاتفاق مع آراء البلاط الأموي في إقصاء وذبح شيعة علي عليه السلام.

وقد كان للصراع على السلطة في بداية نشوء الدولة الإسلامية أثراً كبيراً في تأجيج الفتنة بين المسلمين وكان لهذا الصراع دوراً في ظهور الشيعة على المسرح السياسي بعد أن أدّت الأسباب السياسية ومشكلة الخلافة إلى تأزيم الصراع وتغيير سُنّة النبي صلى الله عليه وآله وأهم النتائج التي ترتبت على هذا الصراع تعريض الدولة الإسلامية بأكملها إلى الانهيار «وإلى قتل عترة رسول الله صلى الله عليه وآله وسبهم ولعنهم وحمل الناس على ذلك وإلى قتل وتشريد من يحب أهل البيت ويتشيع لهم إلى أن أصبح دين الله لعباً وهزواً والقرآن يمزق ويعبث به»[1].

فقد كشفت عورات وأسقطت أقنعة الذين تظاهروا بالتقوى فظهروا على حقيقتهم التي حاولوا ما استطاعوا إخفاءها على الناس فكان لمؤتمر سقيفة بني ساعدة الأثر الكبير في إظهار المقاومين تحت تسمية الشيعة الذين كان همهم إخماد الفتنة.

---

(١) فاسألوا أهل الذكر، ص ٦٥.

ويبدو أن رسول الله ﷺ لم يتمكن من تطهير كل النفوس وإصلاح أخلاقها لما ثارت وأبدت في محاولتها تحطيم الأسس والمبادىء التي سعىٰ إلى تحقيقها بين العرب فقد تغلّب الموروث العربي في حب التسلّط والرياسة والنفوذ إلى مناهضتها لزعيم بني هاشم وشيخها الإمام علي عليه السلام الذي نصّ على خلافته الرسول ﷺ مراراً وتكراراً، إلا أن الزعامة التي أراد أن يتفيأ بظلالها كبار صحابة رسول الله ﷺ هذه الزعامة التي ترتبط بها الكثير من الامتيازات أدّت في النهاية إلى انقلاب على المفاهيم الإسلامية، لذلك سعىٰ زعماء قريش التقليديون إلى التزاحم لإشغال أماكنهم ومقاعد الزعامة إلى أشخاص آخرين تتبع زعامتهم وتواليهم بالشكل الذي يحافظون على نفوذهم في احتلال مركز الصدارة والزعامة في المجتمع الإسلامي الجديد بعد وفاة النبي ﷺ. تلك الزعامة على المجتمع الجديد جاءت تحت تسمية الدعوة إلى إسلام شامل ليست بالضرورة أن تكون مشابهة لزعامة محمد ﷺ وبذلك فإن الزعماء الجدد قد فرضوا سلطتهم على الواقع الاجتماعي والسياسي بعد رفضهم الشديد لكل الدعوات التي كان يطلقها النبي ﷺ في استخلاف علي بن أبي طالب عليه السلام، فقد كانت تلك الدعوة تقابلها معارضة من الحزب الرافض لهذا الاختيار. لهذا كان الأحرى بأن يسمونهم بالروافض وليس الشيعة فقد كان لهم السبق في رفض خلافة الإمام علي عليه السلام إلا أننا نجد أهل السُّنة اليوم يطلقون تسمية الروافض على الشيعة على أنهم رفضوا خلافة أبي بكر في السقيفة.

إن «المؤامرة» ما زالت حتى اليوم وآثارها ومفعولها يسري في الأمة الإسلامية. وما دام هناك في المسلمين من يترضىٰ عن معاوية ويزيد ويبرر أفعالهم بأنها اجتهاد ولهم بها أجر عند الله وما دام هناك من يكتب الكتب والمقالات ضد شيعة أهل البيت ويرميهم بكل شتيمة وشنيعة وما دام هناك

من يستبيح قتل شيعة أهل البيت عليهم السلام[1] في كل زمان ومكان فالمؤامرة ما زالت متواصلة وستبقىٰ إلى أن يشاء الله ويظهر مهدي الزمان فيملأ الأرض عدلاً مثلما ملئت ظلماً وجوراً.

إن رفض زعامة علي بن أبي طالب في سقيفة بني ساعدة كانت من منطلق خشية أن تفقدها تلك الزعامة الشرعية مكانتها لدى القبائل العربية والأعراب في الجزيرة وخارجها كما أنها تلحق الأذى بنفوذهم وأموالهم وممتلكاتهم إلى جانب بقاء عصبية الدم التي ظلّت غارسة في تفكير الأعراب.

إن التفرق عن أهل البيت عليهم السلام استهانة لقريش بالرسول صلى الله عليه وآله ودعوته وإنما أرادت قريش بإزاحة الإمام علي عليه السلام عن الحكم أن توضح شكوتها القديمة في زعامة محمد صلى الله عليه وآله وعندما وجد زعماء قريش ممن كان لهم نفوذاً كبيراً يمكنهم من التعبير الصريح عن رفضهم لاستخلاف علي عليه السلام سارعت إلى عزله ورأت في استخدام أسلوب الإرهاب والدعاية والتهويش أثراً في صرف الناس عن مستحقها الرئيسي، هذا فضلاً عن اللجوء إلى استخدام أسلوب الضغط والتهديد من ذوي النفوذ والثروة لذا كان من بين أهم الاحتمالات الوارد حصولها في تلك المرحلة هو نشوب الفتنة والارتداد عن الدين نتيجة لتهافت صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله لإشغال كرسي السلطة.

وباتت فرضية الفتنة أمراً مسلماً به في هذه الفترة من تاريخ الأمة الإسلامية بين الأنصار وهم من الآوس والخزرج وبين المهاجرين وهم المسلمون المكّيون.

أما غير المسلمين من الجماعة اليهودية والجماعة المشركة من الآوس

---

(١) فاسألوا أهل الذكر، ص ٦٦.

والخزرج التي بقيت على شركها والجماعة المنافقة من الأعراب الذين كان إسلامهم ظاهرياً قد شكّلوا حزباً محرّضاً على الفتنة وإشعال نارها بعد أن وجدوا سلمية المؤيدين للإمام علي عليه السلام فضلاً عن كون الإمام نفسه منشغلاً بدفن الرسول صلى الله عليه وآله والحزن عليه ووحشة الفراق جعله لازماً لمنزله وهذا الاتجاه فتح المجال أمام اليهود وغيرهم ممّن كانوا حانقين على الإسلام بالإضافة إلى تسارع أصحاب الأمس لأخذ مقاليد الزعامة قد أوضحت بما لا يقبل الشك أنهم قد نفضوا أيديهم من وعودهم ومواثيقهم للنبي صلى الله عليه وآله.

ونزل القرشيون وحلفاؤهم بقوة إلى الساحة السياسية وحاول أبو سفيان شيخ بني أُمية الوثوب على كرسي الحكم وإزاحة كبار صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله ومنهم أبو بكر وعمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وسعد بن عبادة شيخ الأنصار.

وحاول الأمويون استمالة الإمام علي عليه السلام لإثارة الفتنة والقضاء على الإسلام، فجاء أبو سفيان ليلاً يحرض علي عليه السلام على الثورة ضد أبي بكر وعمر ويمنّيه بالمال والرجال ولكن الإمام عرف قصده فطرده[1] لأن الإمام يعرف جيداً نوايا أبي سفيان ومخططه.

ولما علم أبو بكر وعمر بذلك ذهبا إلى أبي سفيان واستمالاه ووعداه بإعطائه كل ما جمعه من الصدقات وإشراكه في الأمر بتعيين ابنه والياً على الشام فرضي أبو سفيان بذلك وسكت عنهم. فعيّنوا يزيد بن أبي سفيان والياً على الشام ولما مات عيّنوا أخاه معاوية مكانه ومكّنوه من الوصول إلى الخلافة[2].

---

(١) فاسألوا أهل الذكر، ص ٤٢.
(٢) فاسألوا أهل الذكر، ص ٢٥٠.

ولم يكتفِ بنو قريظة والقينقاع بالمراقبة فقط وإنما أرادوا زيادة الفتنة بين المسلمين وأسعدهم تلك التحزبات المتصارعة وزرعوا الشكوك وكان لهم دوراً فعّالاً في تفريق الناس عن آل محمد ﷺ. وموقفهم من الدعوة الإسلامية معروف ولا يحتاج إلى شرح كثير فهؤلاء القوم معروفون باعتدادهم بأنفسهم ودينهم ولهم كراهية كبيرة للعرب ورغبتهم في إخراجهم من بلاد الحجاز. لذا فقد اجتمعت جميع مصالحهم في إثارة البغضاء والأحقاد بين المهاجرين والأنصار وتحضيرهم على إبعاد آل محمد ﷺ.

إن اجتماع الصحابة في سقيفة بني ساعدة سراً دون إشراك الإمام علي عليه السلام أعطىٰ انطباعاً منذ البدء في أنهم يسعون إلى حصر موضوع الخلافة بينهم مع بثّ الدعاية بالقول إن رسول الله ﷺ لم يعهد بالخلافة لأحد بعده وإنما ترك المسألة شورى بينهم ليختاروا من نظم الحكم ما يلائمهم ويتمشى مع تطور حياتهم، إنما صرفوا الحق عن صاحبه وباغتوا الناس بمن فيهم علياً والذين كانوا معه منشغلين بتجهيز الرسول ﷺ ليرموا البيعة جاهزة إلى أبي بكر فأسرعوا إلى السقيفة ليفسدوا على الأنصار تخطيطهم وما أبرموه.

فلما وصل إلى الأنصار خبر نعي النبي ﷺ سارعوا إلى التفكير فيمن سيخلفه في تدبير أمورهم، فاجتمعوا في السقيفة ورشّحوا للخلافة رجلاً منهم وهو سعد بن عبادة سيد الخزرج وما لبثوا أن دعوه ليتحدث باسمهم فألقىٰ عليهم خطبته قال فيها: يا معشر الأنصار لكم سابقة في الدين وفضيلة في الإسلام ليست لقبيلة من العرب، إن محمداً عليه السلام لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم إلى عبادة الرحمن وخلع الأنداد والأوثان فما آمن به من قومه إلاّ رجال قليل وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ولا أن يعزوا دينه ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً فلما أراد لكم ربكم الفضيلة ساق إليكم الكرامة وخصّكم بالنعمة، فرزقكم الله الإيمان به وبرسوله والمنع

له ولأصحابه والإعزاز له ولدينه. . ودانت بأسيافكم له العرب وتوفّاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير العين فاستبدوا بهذا الأمر دون الناس[1].

لم يكن لهذه الخطبة التي ألقاها سعد بن عبادة أثر في إقبال قومه على بيعته، فقد قال أحدهم: فإن أبت مهاجرة قريش. وقالوا: نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون ونحن عشيرته وأولياؤه فعلام تنازعوننا الأمر بعده، فردّ عليه بعض الآوس: فإنّا نقول إذن منا أمير ومنكم أمير ولن نرضىٰ بدون هذا الأمر أبداً.

ويبدو أن أخذ الخزرج لزمام المبادرة ومحاولة تنصيب خليفة فور وفاة الرسول، كان ينبع من خوفهم ألاّ يكون لهم في هذه الفترة الجديدة ما كان لهم من مكانة زمن الرسول ﷺ، وكان كل ما يخشونه أن يحرموا من الدور الهام الذي كانوا يلعبونه في الحياة العامة للدولة في ظل الرسول ﷺ.

وفي الحقيقة إن سعد بن عبادة كان يريدها لعلي بن أبي طالب عليه السلام وكان من أشد الداعين له لأنه كان يرىٰ علياً أحق بها من غيره مثلما سيأتي الدور لابنه قيس بن سعد في زمن الإمام الحسن وإصراره على قيادة الجيش لمحاربة معاوية رغم المعارضة الشديدة التي تعرّض لها من قبل الذين فضلوا النكوص عن الجهاد.

«ومهما يكن من أمر، فعندما وصل نبأ اجتماع الأنصار في سقيفة بني ساعدة إلى كبار الصحابة من المهاجرين الذين كان بعضهم إذ ذاك بالمسجد يتحدثون عن وفاة رسول الله ﷺ»[2].

هذا رأي وهناك رأي آخر يبينه المحققون إشارة إلى أن أول من اجتمع

---

(١) تاريخ العرب والإسلام حتى نهاية العصر الأموي، ص ٥١.
(٢) المصدر السابق، ص ٥٣.

في سقيفة بني ساعدة هم كبار الصحابة من المهاجرين وكان على رأسهم عمر وأبو بكر وغيرهم.

وكان الكثيرون من شيعة علي بن أبي طالب عليه السلام جالسين في المسجد يملؤهم الحزن على وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله وكان فيهم عمار بن ياسر وأبا ذر الغفاري والمقداد وسلمان وغيرهم، أما من كان الأولى بها فقد كان مشغولاً بتجهيز رسول الله صلى الله عليه وآله.

وسارع كل من عمر وأبي بكر وأبي عبيدة وكانوا مجتمعين في السقيفة لإبعاد الأمر عن صاحبها وإقصاء الأنصار منها أيضاً، ولما سمع الأنصار باجتماع المهاجرين في السقيفة سارعوا إليهم ودار حوار عنيف بين الفريقين بغياب سفير الحق علي بن أبي طالب عليه السلام «فقد كانت مصيبة وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله من أوجع الفجائع على قلب علي عليه السلام ولولا إيمان علي وصبره على المصيبة لمات حزناً في تلك المأساة، إذ ما فارق الحزن قلب علي عليه السلام حتى فارق الحياة، فسرعان ما ابيضّت لحيته الكريمة فقيل له:

لو غيرت شيبك يا أمير المؤمنين.

فقال عليه السلام: الخضاب زينة ونحن قوم في مصيبة، يريد بها وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله. ولم يختضب الإمام طيلة أيام حياته لهذا السبب ولأن رسول الله صلى الله عليه وآله أخبره بخضاب خاص، فقد روى ابن نباتة قال: قلت لأمير المؤمنين عليه السلام ما منعك من الخضاب وقد اختضب رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: أنتظر أشقاها أن يخضب لحيتي من دم رأسي، بعهد معهود أخبرني به حبيبي رسول الله.

ولما فارق النبي الحياة وهو بعد لم يدفن اجتمع الناس في موضع يقال له السقيفة»[1].

---

(١) من المهد إلى اللحد، ص ٢٢٨.

فنهض أبو بكر وألقى أول خطبة له في الأنصار قائلاً:

«إنكم تحدثون عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشدّ اختلافاً، فلا تحدثوا عن رسول الله ﷺ شيئاً فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلّوا حلاله وحرّموا حرامه»[1].

ويبدو أنه متفق تماماً لما قاله صاحبه عمر بن الخطاب عندما قال: إن رسول الله ﷺ يهجر وحسبنا كتاب الله يكفينا.

وهذا اعتراف صريح بأنهم نبذوا سنة نبيهم وراء ظهورهم وكانت عندهم نسياً منسياً[2].

نعم لكل ذلك ما كان أبو بكر ليرتاح إذا ما بقيت أحاديث النبي ﷺ متداولة بين الناس يكتبونها ويحفظونها ويتناقلونها من بلد لآخر ومن قرية لأخرى وفيها من نصوص صريحة تتعارض والسياسة التي قامت عليها دولته فلم يكن أمامه حلاً غير طمس الأحاديث وسترها بل ومحوها وحرقها[3]. منها عائشة تشهد عليه. قالت جمع أبي الحديث عن رسول الله فكانت خمسمائة حديث، فبات يتقلّب فقلت يتقلّب لشكوى أو لشيء بلغه، فلما أصبح قال: أي بنية هلمي الأحاديث التي عندك فجئته بها، فأحرقها. الحديث[4].

كما ذكر في خطبته فضل المهاجرين لسبقهم في الإسلام وما تحملوه

---

(١) تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٣ للذهبي.
(٢) فاسألوا أهل الذكر، ص ٢٠١.
(٣) كنز العمال، ص ٢٣٧ وابن كثير في مسند الصديق، والذهبي في تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٥.
(٤) كنز العمال ج ٥ ص ٢٣٧ وابن كثير في مسند الصديق والذهبي في تذكرة الحفاظ، ج ١ ص ٥.

من المشاق بسبب الهجرة، ثم ذكر فضل الأنصار وأثنى عليهم وبيّن فضلهم في نصرة الرسول ﷺ وإيواء إخوانهم من المهاجرين ثم روى لهم الحديث النبوي «الأئمة من قريش».

«وقال: إن هذا الأمر إن تولته الآوس ثارت أحقاد الخزرج وإن تولّته الخزرج غضبت الآوس ولا يدين العرب إلا لهذا الحي من قريش.

ثم قال أبو بكر للأنصار: نحن الأمراء وأنتم الوزراء. ولا شك أن أبا بكر أثبت بقوله هذا حسن سياسته وبعد نظره»[1].

ولكن أين كان بعد النظر هذا وقد شهد أبو بكر حجة الوداع وقد اجتمع معه أكثر من مائة ألف لما أوصى رسول الله ﷺ بخلافة الإمام علي عليه السلام.

عندما جمع المسلمين وخطبهم خطبة بليغة طويلة وأشهدهم على أنفسهم فشهدوا بأنه ﷺ أولى بهم من أنفسهم وعند ذلك رفع يد علي بن أبي طالب عليه السلام وقال: «مَن كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللّهم والِ من والاه وعادِ من عاداه، وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيث دار»[2].

«ثم ألبسه عمامته وعقد له موكباً وأمر أصحابه بتهنئته بإمرة المؤمنين ففعلوا وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر يقولان بخ بخ لك يابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولى كل مؤمن ومؤمنة»[3].

والكثير من علماء السنة يذكرون ذلك كما يذكرها علماء الشيعة وإن

---

(١) تاريخ العرب والإسلام، ص ٥٢.

(٢) ينابيع المودّة للقندوزي الحنفي، ص ١٢٠.

(٣) أحمد بن حنبل في مسنده ج ٤ ص ٢٨١ والطبري في تفسيره الكبير ج ٣ ص ٦٣٦ وابن حجر في صواعقه والدارقطني والبيهقي والخطيب البغدادي وغيرهم.

أردت المزيد مما تمّ إخراجه في هذا الموضوع راجع كتاب «لأكون مع الصادقين» لمحمد التيجاني فقد وفىٰ وكفى إلا أننا نشير في هذا إلى ما أخرجه الطبراني أيضاً في المعجم الكبير بسند صحيح عن زيد بن أرقم وعن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: خطب رسول الله ﷺ بغدير خم تحت شجرات فقال: «أيها الناس يوشك أن أدعى فأجيب وإني مسؤول وإنكم مسؤولون فماذا أنتم قائلون؟ قالوا نشهد أنك بلّغت وجاهدت ونصحت، فجزاه الله خيراً. فقال: أليس تشهدون أن لا إلٰه إلاّ الله وأن محمداً عبده ورسوله وأن جنته حق وأن ناره حق، وأن الموت حق وأن البعث حق بعد الموت، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث مَنْ في القبور؟ قالوا: بلى نشهد بذلك. فقال: اللّهم اشهد، ثم قال: يا أيها الناس إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولىٰ بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فهذا مولاه ـ يعني علياً ـ اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه، ثم قال:

يا أيها الناس إني فرطكم، وإنكم واردون عليَّ الحوض، حوض أعرض ما بين بصري إلى صنعاء، فيه عدد النجوم قد حان من فضة، وإني سائلكم حين تردّون عليَّ عن الثقلين، كيف تخلفوني فيهما الثقل الأكبر كتاب الله عزّ وجلّ سبب طرفه بيد الله تعالى وطرفه بأيديكم، فاستمسكوا به لا تضلوا ولا تبدلوا، وعترتي أهل بيتي فإنه نبّأني اللطيف الخبير أنهما لن ينقضيا حتى يردّا عليَّ الحوض»[1].

ورغم ليونة أبي بكر مع الأنصار في محاولة اجتذابهم إلى مقاسمة السلطة إلا أن الأنصار ظلّوا متمسكين برأيهم وحرصوا أن تكون الخلافة لهم دون المهاجرين وازدادت بوادر الخلاف بين الفريقين دون الوصول إلى اتفاق

---

(١) ابن حجر في صواعقه، ص ٢٥ نقلاً عن الطبراني والحكيم والترمذي.

يرضي سائر المسلمين ودارت بينهم مناقشات طويلة، والسقيفة آلت إلى السقوط رغم أن رائحة الفتنة قد فاحت منها ولكن المجتمعين فيها ما لبثوا أن فوجئوا بتأييد بشر بن سعد وهو أحد زعماء الخزرج للمهاجرين بقوله:

«يا معشر الأنصار إنا والله كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين ما أردنا به إلاّ رضا ربنا وطاعة نبينا والكدح لأنفسنا فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك إلا أن محمداً عليه السلام من قريش وقومه أحقّ به ـ فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم»[1].

إن ما قاله بشر بن سعد كلمة حق أراد بها الباطل، فإن كانت مثلما قال فلمَ لم يبايع هو وقومه الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وهو الأجدر بها وفق كل المقاييس فضلاً عن كونه شيخ بني هاشم ومن سادة قريش. لقد كان لقول ابن سعد أثر بالغ في نفوس المهاجرين والأنصار وقد أعطى الفرصة السانحة ليعلن عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح مبايعتهما لأبي بكر، وتقدّم بشر بن سعد مسرعاً إلى تأييد المبايعة.

ولما رأت الآوس ذلك بايعت أبا بكر وسميت البيعة ببيعة السقيفة بغياب الإمام علي عليه السلام وشيعته بالإضافة إلى أعداد ليست بالقليلة من المسلمين لم يحضروا الاجتماع قد يكون السبب لعدم رضاهم من ما جرت إليه الأمور أو لعدم ميلهم في خروج الأمر من بين يدي الأمويين.

---

(١) تاريخ العرب والإسلام، ص ٥٣.

الفصل الثالث

دولة الخلفاء الراشدين

★ خلافة أبي بكر (١١ ــ ١٣ هـ/٦٣٢ ــ ٦٣٤م)

وفي اليوم التالي على البيعة الخاصة جلس أبو بكر على المنبر في المسجد وبايعه الناس البيعة الكبرى، تلك البيعة كانت المنطلق الحقيقي للفتنة الكبرى التي لا زلنا نعيش آثارها ونتائجها حتى يومنا هذا، حيث جعلت من الشيعة مظلومين على مرّ التاريخ لأنهم لم يتبعوا ولم يعترفوا بإمامة الذين انتزعوها غفلة، حتى اتهموا بأنهم خارجين عن الإسلام، والعياذ بالله لتصبح باحة السقيفة التي أوت بضع عشرات من المسلمين المكان الذي خرجت منه الفتنة كنار عدن وتحزب الشيطان منذ ذلك اليوم في إثارة الفتنة الكبرى بين عموم المسلمين بمختلف مذاهبهم.

لا شك أن أبا بكر رجل من أخيار الصحابة وكان أسبق الرجال إسلاماً وأعظمهم إخلاصاً في صحبة النبي ﷺ إلا أنه فارق وصية رسول الله ﷺ وما أوجب عليه من موالاة الإمام علي عليه السلام فقد «سارع إلى السقيفة وشارك في إبعاد علي بن أبي طالب عن الخلافة وترك رسول الله ﷺ مُسجّىٰ بأبي هو وأمي ولم يهتم بتغسيله وتكفينه وتجهيزه ودفنه متشاغلاً عن ذلك بمنصب الخلافة والزعامة التي اشرأبت لها عنقه»[1].

---

(١) فاسألوا أهل الذكر، ص ١٨١.

ومهما يكن من أمر فقد فُتحت أبواب الفتنة ولم يستطع العرب من وأدها فأفنت من رجالهم الكثيرين على مدى التاريخ وكانت البداية حروب الردّة وامتناع آخرين عن الزكاة وتشكيك آخرين بدعوة الرسول ﷺ.

ويشير المؤرخون إلى أن الإسلام لم يبق له أثراً إلاّ عند قريش في مكة وثقيف في الطائف وأهل المدينة. فقد هيّأت مسألة الخلاف بين المسلمين حول تولي الخلافة مشاكل كثيرة لعبت دوراً كبيراً في ارتداد الكثير من القبائل عن الإسلام وشاع بين الناس أن مَنْ يخلف الرسول ﷺ سوف يحكم على هواه ومن أجل مصلحة قبيلته.

كما ارتفع شأن العصبية القبلية من جديد فجعلت بني حنيفة مثلاً ينضمون لمسيلمة الكذاب الذي ادّعى النبوّة في اليمامة مع اعتقادهم بكذبه، «فقد طالب مسيلمة أن يكون نصف الأرض لقريش ولبني حنيفة نصفها الآخر، والتفّ حوله أربعين ألفاً تدفعهم العصبية القبلية فكان بعضهم يقول: أشهد أن مسيلمة كذاب وأن محمداً صادق. ولكن كذاب ربيعة أحبّ إلينا من صادق مضر. ولهذا فزعماء القبائل الذين ادعوا النبوّة كانوا يعبّرون عن نزعات قبلية»[1].

ولقد كان لهذا الارتداد[2]، أسباب مهمة منها أن افتتان المسلمين بشخصية الرسول ﷺ ثم مفاجأتهم بموته أثّر عليهم كثيراً خصوصاً وأن أبا بكر لم يكن صاحبها.

---

(١) تاريخ العرب والإسلام، ص ٥٥.

(٢) كان أشهر زعماء الارتداد والفتنة، مسيلمة الكذاب الذي ادّعى النبوّة في اليمامة، الأسود العنسي واسمه الأصلي عبهلة بن كعب ولقّب بالأسود لسواد لونه ادّعى النبوّة في اليمن، طليحة بن خويلد ظهر في طي وغطفان، مسيلمة بن حبيب الحنفي ادعى أنه شريك النبي في النبوة ظهر في اليمامة وكان هناك عدد آخر من زعماء المرتدين ظهروا في البحرين وعمان واليمن ونجد واليمامة.

بالإضافة إلى اعتقادهم الراسخ أن هناك من هو الأرجح لها حيث كانت أحاديث الرسول ﷺ تدلّ عليه بكل وضوح إلا أن انقلاب الناس عليه جعل آخرين يفكرون بعدم أهلية حكومة أبي بكر ونزاهتها خصوصاً وأن رسول الله ﷺ كان يرفض إيثار العشيرة والقبيلة. ولما مرض أبو بكر وشعر بدنو الأجل صار كلما دخل عليه صحابي يسأله عن عمر بن الخطاب فكتب في استخلافه كتاباً جاء فيه:

هذا ما عهد به أبو بكر.. إني أستخلف عليكم بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا، وإني لم آل الله ورسوله ودينه نفسي وإياكم خيراً فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه وإن بدّل فلكل امرىء ما اكتسب والخير أردت ولا أعلم الغيب[1].

فدخل بعض الصحابة على أبي بكر مستنكرين عليه أن يولّي عليهم فظاً غليظاً[2].

ولما خرج عمر ليقرأ على الناس كتاب أبي بكر سأله رجل: ما في الكتاب يا أبا حفص؟ قال: لا أدري، ولكني أول من سمع وأطاع.

قال الرجل: لكني والله أدري ما فيه: أمرتهُ عام أول وأمرّك العام[3].

وهذا نظير قول الإمام علي لعمر عندما رآه يحمل الناس قهراً لبيعة أبي بكر[4] «احلب حلباً لك شطره، واشدد له اليوم أمره يردده عليك غداً... الحديث»[5].

---

(١) تاريخ العرب والإسلام، ص ٦٠.
(٢) تاريخ الطبري (باب استخلاف عمر بن الخطاب)، شرح النهج لابن أبي الحديد، ج ١ ص ٥٥.
(٣) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ٢٥ (باب مرض أبي بكر واستخلافه عمر (رض).
(٤) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ١٨.
(٥) صحيح مسلم ج ٥ ص ٧٥، كتاب (الوصية)، صحيح البخاري ج ٧ ص ٩.

المتتبع للتاريخ يعرف أن عمر بن الخطاب كان هو الحاكم الفعلي حتى في خلافة أبي بكر ولذلك نرى أبا بكر يستأذن من أسامة بن زيد أن يترك له عمر بن الخطاب ليستعين به على أمر الخلافة[1].

وإذا أردنا أن نغض الطرف عن خلافة أبي بكر وغفلتها وفلتتها ونأتي إلى استخلاف أبي بكرٍ لعمر خليفته وفرضه على المسلمين بدون أن يترك الأمر شورىٰ بينهم وإنما استخلف عمر بدون استشارة الصحابة بل ورغم أنوفهم هذا يبيّن بوضوح أنه ديدن الشورى ومبدؤه الذي يطبل له أهل السُّنة لا أساس له عند أبي بكر وعمر.

إن الإمام علي سلام الله عليه احتجّ عليهم بكل شيء ولكن بدون جدوى، وهل يستجدي الإمام علي بيعة الناس الذين صرفوا وجوههم عنه ومالت قلوبهم لغيره إما حسداً على ما أتاه الله من فضله، وإما حقداً عليه لأنه قتل صناديدهم وهشم رؤوس أبطالهم وأرغم أنوفهم وأخضعهم وحطم كبرياءهم بسيفه وشجاعته حتى أسلموا واستسلموا وهو مع ذلك شامخ يذود عن ابن عمه لا تأخذه في الله لومة لائم ولا يثني عزمه من حطام الدنيا شيء ـ وكان رسول الله ﷺ يعلم ذلك علم اليقين وكان في كل مناسبة يشيد بفضائل أخيه وابن عمه لكي يحببه إليهم»[2].

فيقول: «حب علي إيمان وبغضه نفاق»[3].

ويقول: «علي مني وأنا من علي»[4].

و: «علي ولي كل مؤمن بعدي»[5].

---

(١) طبقات ابن سعد (ذكر سرية أسامة بن زيد).
(٢) لأكون مع الصادقين، ص ٩٤.
(٣) صحيح مسلم ج ١ ص ٦١.
(٤) صحيح البخاري، ج ٣ ص ١٦٨.
(٥) مسند أحمد ج ٥ ص ٢٥، ومستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٢٤.

و: «علي باب مدينة علمي وأبو ولدي»[1].

و: «علي سيد المسلمين وإمام المتّقين وقائد الغرّ المحجلين»[2].

ولكن مع الأسف ما زادهم ذلك إلاّ حسداً وحقداً، ولذلك استدعاه رسول الله ﷺ قبل موته فعانقه وبكىٰ، وقال له: يا علي، إني أعلم أن لك ضغائن في صدور قوم سوف يظهرونها لك بعدي. فإن بايعوك فاقبل وإلاّ فاصبر حتى تلقاني مظلوماً[3].

فإذا كان أبو الحسن سلام الله عليه لزم الصبر بعد بيعة أبي بكر فذلك بوصية الرسول ﷺ له وفي ذلك من الحكمة ما لا يخفىٰ[4].

وقد سجل لنا التاريخ حقائق مذهلة ومواقف شنيعة وقبيحة لهؤلاء القوم الذين تركوا بجاهليتهم التمسك بموالاة علي عليه السلام وسرعان ما نفروا إلى حربه ومعاداته وكان منهم الناكثين والقاسطين والمارقين الذين أهملوا وبدلوا ما أوصاهم به رسول الله ﷺ وكان أمر الله لا يطاع عندهم وشهد التاريخ العجيب والغريب من أفعالهم عند ذاك لا نندهش لمَّا قابلوا علياً بالتمرّد والعصيان من هؤلاء الذين أطلق عليهم تسمية الصحابة.

وهناك رأي يقول في أن أبا بكر قد استخلف بعده عمر وفقاً لمبدأ الشورىٰ وإن تكن شورىٰ ناقصة ـ غير أن الذي دفعه إلى ما أقدم عليه خشيته على المسلمين من الفتنة.

والحقيقة إن الفتنة كانت قد وجدت لها سبيلاً منذ البداية، أي في

---

(١) المستدرك للحاكم ج ٣ ص ١٢٦.
(٢) منتخب كنز العمال ج ٥ ص ٣٤.
(٣) الرياض النضرة في مناقب العشرة للطبري (باب فضائل علي بن أبي طالب).
(٤) لأكون مع الصادقين، ص ٩٥.

اللحظة التي تسارع فيها أصحاب رسول الله ﷺ إلى السقيفة لاختيار الخليفة وكل منهم كان يريدها لنفسه والغريب أن تكون مقاليد الأمر بيد أحد كبار الصحابة الذي ولى دبره وهرب يوم أُحد كما ولّى دبره وفرَّ هارباً يوم خيبر عندما أرسله رسول الله ﷺ إلى مدينة خيبر ليفتحها وأرسل معه جيشاً فانهزم هو وأصحابه ورجعوا يجبنونه ويجبنهم[1].

كما ولّى دبره وهرب يوم حُنين مع الهاربين أو لعله كان أول الهاربين وتبعه الناس إذ كان هو أشجعهم ولذلك نرى أبا قتادة يلتفت من بين ألوف المنهزمين إلى عمر بن الخطاب ويسأله كالمستغرب!! ما شأن الناس؟

ولم يكتف عمر بن الخطاب بهروبه من الجهاد وترك رسول الله ﷺ وسط الأعداء من المشركين حتى يموه على أبي قتادة بأنه أمر الله. فهل أمر الله عمر بن الخطاب بالفرار من الزحف[2]؟ أم أنه أمره بالثبات والصبر في الحروب وعدم الفرار. ألم يقل الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾[3].

فكيف إذن تكون له أفضلية الخلافة بعد رسول الله ﷺ وكان له ما كان مع رسول الله ﷺ.

وهنا نحن لسنا بصدد البحث عن شجاعته وإنما ما يهمنا هو دوره في قضية الخلافة، وإلاّ ما الذي يدفع بعمر لما احتضر النبي ﷺ وقال هلم أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده، فقال عمر: إن النبي ﷺ غلبه الوجع وإنه يهذي ـ والعياذ بالله، وعندكم القرآن فحسبنا كتاب الله حتى كثر الاختلاف

---

(١) مستدرك الحاكم ج ٣ ص ٣٧ كما أخرجه الذهبي في تلخيصه.
(٢) فاسألوا أهل الذكر، ص ١٤٠.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ١٥.

واللغط بين المسلمين وهذا موجود في صحيح البخاري والترمذي وغيرها من مصادر أهل السُّنة.

فإذا كان أبو بكر نفسه وهو الذي استخلفه المسلمون بالشورى يحطم هذا المبدأ ويسارع إلى استخلاف عمر بعده ليقطع بذلك دابر الخلاف والفرقة والفتنة وهو الأمر الذي تنبأ به علي عليه السلام حينما شدد عليه عمر لمبايعة أبي بكر فقال له: «أحلب حلباً لك شطره واشدد له اليوم يردده عليك غداً»[1].

وإن كانت أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر تبعث إلى عمر بن الخطاب حين طُعن فتقول له: «أستخلف على أمة محمد ولا تدعهم بعدك هملاً فإني أخشىٰ عليهم الفتنة»[2]. وإذا كان عبد الله بن عمر يدخل على أبيه حين طُعن فيقول له: «إن الناس زعموا أنك غير مُستخلفٍ وأنه لو كان لك راعي إبل أو راعي غنم ثم جاءك وتركها رأيت أن قد ضيع فرعاية الناس أشد»[3].

فالأمر إذن لا يليق برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يترك أمته بدون راعٍ، وبالخصوص إذا عرفنا أنه كان يخشى على أمته الفرقة»[4]. والانقلاب على الأعقاب[5] والتنافس على الدنيا[6] حتى يضرب بعضهم رقاب بعض[7] ويتبعوا سنن اليهود والنصارى[8].

---

(١) الإمامة والسياسة لابن قتيبة ج ١ ص ١٨.
(٢) نفس المصدر السابق، ص ٢٨.
(٣) صحيح مسلم ج ٦ ص ٥ (باب الاستخلاف وتركه).
(٤) الترمذي وأبو داود وابن ماجه ومسند أحمد بن حنبل ج ٢ ص ٣٣٢.
(٥) صحيح البخاري ج ٧ ص ٢٠٩ باب الحوض... وج ٥ ص ١٩٢.
(٦) صحيح البخاري ج ٤ ص ٦٣.
(٧) نفس المصدر السابق، ص ١١٢.
(٨) نفس المصدر السابق ج ٤ ص ١٤٤ وج ٨ ص ١٥١.

فكيف نصدق إذن أن رسول الله ﷺ ترك الأمر بدون استخلاف وقال لصحابته اذهبوا واختاروا بينكم مَنْ ترونه صالحاً. وهل إن رسول الله ﷺ لا يعلم بهوى الصحابة واختلاف الآراء وتشتت الأهواء وبقاء العصبية وحب الرياسة في قلوب العرب؟

أم أن عائشة وعبد الله بن عمر قد أدركوا أمر الأمة أفضل مما يدركه رسول الله ﷺ فيما يتعلق الأمر بالخلافة. وإذا كان الملحدون في عصرنا يؤمنون بهذه القاعدة ويسرعون إلى تعيين خلف للرئيس حتى قبل موته ليسوس أمور الناس ولا يتركونهم يوماً واحداً بدون رئيس!!

فلا يمكن أن يكون الدين الإسلامي وهو أكمل الأديان وأتمّها والذي ختم الله به كل الشرائع أن يهمل أمراً مهماً كهذا، وقد عرفنا في ما تقدم بأن عائشة وابن عمر وقبلهما أبو بكر وعمر أدركوا كلهم بأنه لا بد من تعيين الخليفة وإلاّ لكانت فتنة، كما أدرك ذلك من جاء بعدهم من الخلفاء فكلهم عيّنوا من بعدهم فكيف تغيب هذه الحكمة على الله وعلى رسوله؟؟؟[1].

وما القول في تشديد الله سبحانه وتعالى على رسوله «آية البلاغ» في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾. أي: يا محمد إن لم تبلغ ما أمرتك به بأن علياً هو ولي المؤمنين من بعدك فكأنك لم تكمل مهمتك التي بعثت بها.

إذ إن إكمال الدين بالإمامة أمر ضروري ويبدو أن النبي ﷺ كان يخشى معارضتهم له أو تكذيبهم.. إذاً فالله عزّ وجلّ أراد أن يطمئن الرسول ﷺ فأنزل عليه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ فأسرع في نفس الوقت

---

(١) لأكون مع الصادقين، ص ٧٤.

وبدون تأخير بامتثال أمر ربه فنصّب علياً خليفة من بعده وأمر أصحابه بتهنئته بإمارة المؤمنين ففعلوا وبعدها أنزل الله عليهم[1]: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

★ خلافة عمر بن الخطاب (١٣ ــ ٢٣هـ/٦٣٤ ــ ٦٤٣م)

كان عمر شديداً في خلافته وله قول في ذلك:

«اللهم إني شديد فليّني» وقد كانت تلك الشدة من عمر لمعرفته بالعرب معرفة تامة بأن اللين لا يصلحهم ولا يصلح أمورهم.

لقد حمل عمر نفسه من المسؤولية ما جعله يهتم بكل صغيرة وكبيرة من أمور المسلمين ولم تطل حياته فقد هاجمه أبو لؤلؤة الفيروزي وهو غلام مجوسي بخنجر مسموم وهو خارج لصلاة الفجر توفي على أثرها أواخر ذي الحجة من عام ٢٣ هـ.

أثار مقتل عمر في الناس رأيين، الأول أن مقتله كان بمؤامرة دبرها أبو لؤلؤة مع أحد سادة الفرس ويدعى الهرمزان انتقاماً من عمر الذي فتح بلاد فارس وأدخلها في الإسلام بعدما كانت تعيش في ظلام المجوسية، وشاركهما في هذه المؤامرة غلام آخر هو نصراني من أهل الحيرة ويسمى «جفينة».

أما الرأي الثاني فقد كانت تذهب إلى أنها مؤامرة مدبرة من المغيرة بن شعبة لحقده وتذمره من عمر الذي كان شديداً في حكمه فدفع للغلام الفارسي أبي لؤلؤة وكان يعمل لديه للقيام بمهمة قتل عمر، وكلا الرأيين قد رجح أمر التخلص من عمر كان بمؤامرة مدبرة بدافع الحقد والانتقام. وقد

---

(١) لأكون مع الصادقين، ص ٧٥.

تمكّن الناس من التجمع لاعتقال الغلام المجوسي لقتله ولكنهم تفاجؤوا بإقدامه على الانتحار بطعنة من خنجره.

أما المغيرة بن شعبة لم يستطع أحد الوصول إليه أو اتهامه بمقتل عمر كونه صاحب نفوذ ومال وعشيرة فضلاً عن انتسابه للبيت السياسي الأموي.

لقد شكّل مقتل عمر بهذه الطريقة إلى زيادة الفتنة بين العرب إلا أنهم تمكّنوا في النهاية من إبعادها لبعض الوقت بإلقاء تبعتها على الفرس.

وفي خضم فتنة الخلافة لما أشرف عمر على الموت طب القوم منه أن يستخلف فأجابهم قائلاً: بأنه لا يحتمل وزر الخلافة في حياته وبعد موته، غير أنه سمّى ستة من كبار الصحابة[1]. لينتخبوا من بينهم واحداً على الرغم من أنه كان على هوى عثمان بن عفان مسبقاً ولكنه لم يكن يريد الإشارة إليه لفطنته وذكائه اللذين عرف بهما بأن الاختيار سوف يجري لصالح عثمان لأسباب كثيرة سنوجزها فيما بعد إلا أن المهم في الأمر أن الخمسة الذين اختارهم من الصحابة لن يرضوا بخلافة علي بن أبي طالب عليه السلام.

فضلاً عن أن علياً لم يكن يريدها بعد تفشّي الفتنة واختلاف العرب.

ولقد أوجب عمر في الذين وضع الأمر بينهم على أن يتفقوا على اختيار واحد منهم في خلال مهلة أقصاها ثلاثة أيام ووضع لذلك ترتيباً معيّناً: يحضر ابنه عبد الله معهم مشيراً وليس له من الأمر شيء ويجمع أبو طلحة الأنصاري خمسين رجلاً من الأنصار فيستحثّ رجال الشورى حتى يختاروا رجلاً منهم ويقوم صهيب على رأسهم فإن اتّفق خمسة على رجل منهم

---

(١) هم: علي بن أبي طالب عليه السلام زعيم بني هاشم ـ عثمان بن عفان زعيم بني أُمية ـ عبد الرحمن بن عوف زعيم بني زهرة ـ سعد بن أبي وقاص من بني زهرة وأخواله بني أُمية ـ طلحة بن عبيد الله سيد بني تيم ـ الزبير بن العوام ابن صفية عمة الرسول وهو زوج أسماء بنت أبي بكر.

وخالف واحد أو اتّفق أربعة على رجل منهم وخالف اثنان فليضرب رؤوس المخالفين بالسيف وإذا انقسموا قسمين ثلاثة ثلاثة واتّفق كل قسم على رجل منهم فيكون الحكم بينهما عبد الله بن عمر فإن لم يرضوا بحكمه تكون الأرجحية لمن فيهم عبد الرحمن بن عوف وتضرب أعناق المخالفين لإجماع الناس»[1].

ويبدو من خلال الوصية التي أوصاها عمر في اختيار الخليفة من بعده أمراً لا تنبعث منه رائحة الشورى وإنما رائحة الدماء والفتنة وإلاّ كيف نفسّر وصيته بضرب أعناق الذين يكون لهم رأياً مخالفاً.

إن إقصاء الإمام علي عليه السلام المعروف بشجاعته بين العرب وكبار القادة من شيعته المشهور عنهم بالفدائية والشجاعة ترسّخت أيضاً في سياسة الخلفاء الذين تولّوا زمام الأمور فلم نجد لهم أية قيادة عسكرية تذكر في عهد عمر وحتى بعد تولّي عثمان الخلافة لأسباب عديدة أهمها دينية نمت في عدم رغبة قريش وزعمائها إعطاء أي دور قيادي لآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأنصارهم تتناسب مع طبيعة مكانتهم الدينية، كما كان للأسباب الاقتصادية أثراً آخر في إبعاد آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم في محاولة عدم حصولهم على الغنائم والأموال التي تعطي لأصحابها نفوذاً ورياسة بين العرب فضلاً عن الأسباب السياسية التي من الممكن أن تفتح لهم أبواب الطريق نحو السلطة.

وبالتالي لم يحصل الإمام علي عليه السلام طوال خلافة أبي بكر وعمر وعثمان لأية قيادة لجيوش المسلمين في الجبهة الفارسية والبيزنطية والعرب كلها تشهد لعلي شجاعته الفريدة وحسن تنظيمه العسكري فضلاً عن براعة استراتيجيته الحربية وإنما أعطيت قيادة الفتوحات لخالد بن الوليد ولخالد بن سعيد بن العاص وشرحبيل بن حسنة وأبو عبيدة بن الجراح وعمرو بن

---

(١) تاريخ العرب والإسلام، ص ٨٧.

العاص وسعد بن أبي وقاص والوليد بن عقبة وعبد الله بن أبي سرح ويزيد بن أبي سفيان ولم يكن بينهم أي نظير لعلي بن أبي طالب عليه السلام في الشجاعة والبسالة والحماسة والفروسية والحكمة والخبرة في قيادة المعارك، كما لم يولّ علياً منصباً إدارياً ولا ولاية مصر من الأمصار أو ائتمنوه على خزينة ومهما يكن من أمر فإن إقصاء علي عليه السلام كان مقصوداً ومدبراً ولم يكن يجمع أمر هؤلاء القادة الذين مرّ ذكرهم سوى التخندق مع السلطة الحاكمة.

ولم يقتصر أمر الإقصاء لآل محمد صلى الله عليه وآله فقط بل شملت المقاتلين العرب الذين عرفوا بشدة البأس ممن اختبرتهم ساحات المعارك بقوة الإيمان والتضامن مع الحق وشدّة الحماسة في مواجهة الأعداء لا سيما نذكر منهم المقداد بن الأسود الكندي وسلمان المحمدي وعمار بن ياسر وأبا ذر الغفاري وغيرهم ممن اشتهروا بشجاعتهم واندفاعهم في الدفاع عن الإسلام ولكنهم هم أيضاً قد أقصوا بحذقٍ وذكاء، وقد تمكّن الخليفة عمر من السيطرة التامة على طلائع الجيوش الإسلامية بمن فيهم القادة الذين كانوا موالين جداً لخلافته حتى أنهم كانوا يتسارعون في مواجهة الأعداء في ساحات المعارك والمثابرة فيها لكسب رضى عمر لأنهم كانوا جميعاً يقاتلون في سبيل عمر لا الجهاد في سبيل الله.

★ خلافة عثمان بن عفان (٢٣ ــ ٣٥ هـ/٦٤٣ ــ ٦٥٥ م)

إن محنة الخلافة لم تنتهِ وازدادت بوادر الفتنة في عهد عثمان بعد أن أخذ بيده عبد الرحمن بن عوف ليكون الخليفة الثالث ـ فصعد عثمان على المنبر وأعلن صراحة بقوله: «لا يحل لأحدٍ أن يروي حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله لم أسمع به في عهد أبي بكر وعمر»[1].

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج ١ ص ٣٦٣.

ورغم أن عثمان قد أعطى ميثاقاً لعبد الرحمن بن عوف بأن يعمل بكتاب الله وسُنّة الشيخين وبالشرط الذي اشترطه عمر عليه بأن لا يجعل أحداً من قرابته على رقاب الناس فأجاب نعم إلا أنه خالف ذلك الميثاق ومن ثم الميثاق الذي أخذه على نفسه بأن لا يجعل أحداً من قرابته على رقاب الناس بينما نجده لحظة ارتقائه كرسي الخلافة بادر إلى تقريب أقربائه الأمويين في أمور الدولة وسيطروا على مقدراتها وأصبحوا رجالها وسادتها فقد حقق لهم عثمان الحلم الذي كان يراودهم في التسلّط على رقاب الناس.

بينما الإمام علي عليه السلام رفض أن يحكم بسُنّة الخليفتين أبي بكر وعمر وقال: «احكم بكتاب الله وسُنّة رسوله».

وعلى هذا تركوه واختاروا عثمان الذي قبل شرط الحكم، وعبد الرحمن يعرف كغيره من الصحابة أن علياً لم يكن يوافق على اجتهادات أبي بكر وعمر وما غيّراه من أحكام الكتاب والسُّنة وكان يحاول جهده معارضتهما والاستنكار عليهما...

وهو يعلم مسبقاً أكثر من غيره بأن علياً لا يداهن ولا يكذب ولا يقبل بذلك الشرط أبداً، كما كان يعلم بأن صهره عثمان هو الذي ترتاح إليه قريش وكل أعضاء المخطط[1].

على أن عبد الرحمن بن عوف ندم فيما بعد على اختياره وغضب على عثمان واتهمه بخيانة العهد لما حدث في عهده ما حدث وجاءه كبار الصحابة يقولون له: يا عبد الرحمن هذا عمل يديك، فقال لهم: ما كنت أظن هذا به ولكن لله عليَّ أن لا أكلمه أبداً. ثم مات عبد الرحمن بن عوف

---

(١) فاسألوا أهل الذكر، ص ٢٥٦.

وهو مهاجر لعثمان حتى رووا أن عثمان دخل عليه في مرضه يعوده فتحوّل بوجهه إلى الحائط ولم يكلمه[1].

و«يروى أن أبا سفيان دخل على عثمان بعد أن آلت إليه الخلافة فقال له: قد صارت إليك بعد تيم وعدي (يقصد أبا بكر وعمر) فأدرها كالكرة واْجعل أوتادها بني أُمية، فجعل مروان بن الحكم مستشاره وكان والده الحكم طريد رسول الله ﷺ الذي نفاه وطرده من المدينة كما أقرّ عثمان ولاية معاوية على الشام والأردن وكانت تلك الولاية هي التي دمّرت كيان الإسلام المحمدي ولا زالت الأمة الإسلامية تعاني ويلات تلك الولاية اللاشرعية لخلافة لا شرعية فرضت على الناس فرضاً، ثم جعل عثمان عمال أغنىٰ الأمصار (مصر، البصرة، الكوفة) من قرابته ففتح أمامهم أبواب الثروة والاستغلال وسرقة أموال المسلمين والأهم من ذلك أن مَنْ اختارهم لحكم الأمصار لم يكونوا ممن أحرزوا رضى الله ورسوله وكانوا أشد الناس حقداً وضغينة وكرهاً للإسلام وللنبي وآل بيته« عليهم السلام» بينما تجد علياً عليه السلام لم يهادن أو يخضع أو يتذلل في الموافقة على أخذ الميثاق على نفسه بالعمل وفقاً للشروط التي اشترطها عمر على من يأخذ الخلافة بعده.

ورد علي عليه السلام على عبد الرحمن بن عوف بقوله: «ما لك ولهذا إذا جعلتها في عنقي، فإن عليَّ الاجتهاد لأمة محمد، حيث علمت القوة والأمانة استعنت بها، كان في بني هاشم أو غيرهم»، لهذا تركه عبد الرحمن وجمع الناس ثم أخذ بيد عثمان فبايعه وبايعه الناس.

ورغم ذلك لم يتردد الإمام في مبايعة عثمان ليس لأنه ارتضىٰ أن تكون الخلافة لعثمان وإنما كي لا تتفرق الأمة وتتقاتل فيما بينها بعد أن أخذت

---

(١) تاريخ الطبري وابن الأثير في حوادث سنة ٣٦ للهجرة، محمد عبده في شرح النهج ج ١ ص ٨٨.

الفتنة في الناس مأخذاً كبيراً ويبدو أن اختيار عثمان قد تمّ نتيجة لإحراز التأييد من قبل أكثرية الذين اتصل بهم عبد الرحمن بن عوف والفضل الأعظم لذلك التأييد كان لعدّة أسباب:

الأول: غفلة شيعة علي عليه السلام عن عمق التدبير الأموي وعدم إدراك مخططاتهم الرامية للوصول إلى سدّة الحكم من خلال عثمان.

الثاني: نشاط الأمويين واندفاعهم القوي في تأييد عثمان بعد أن ارتفع شأنهم زمن أبي بكر وعمر وأصبح منهم قادة كبار لهم تأثير كبير على السياسة ورجال آخرون ذوو نفوذ اقتصادي واضح كان لهم الأثر في كسب الموالين لحصر الترشيح في عثمان.

فقد عين على الكوفة الوليد بن عقبة بن أبي معيط وهو ممن استحقوا غضب الرسول صلى الله عليه وآله لأنه غشّه وكذب عليه حينما أرسله إلى بني المصطلق بعد إسلامهم. فلما سمعوا به ركبوا إليه فهابهم ورجع إلى الرسول يعلمه أنهم همّوا بقتله ومنعوه ما قبلهم من الصدقة فهرَ الرسول بغزوهم لولا أن جاء وفدهم يعلمه حقيقة الأمر[1].

فنزلت الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾[2].

وفي ولايته على الكوفة شرب الخمر وشهد عليه في ذلك شاهدان وروي أنه صلى في الناس الصبح وهو سكران بأربع ركعات ثم قال لهم إن شئتم أن أزيدكم أربعاً فزدتكم فأمر عثمان بأن يُقام عليه الحدّ جلداً وعزله.

وقد كان أمر العزل رغماً عنه، لأن الشاهدين على سكر الوليد بن عقبة

---

(١) تاريخ العرب والإسلام، ص ٩٤.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ٦.

قد جاءا إليه يشكوان من أفعاله فزجرهما ودفع في صدريهما وقال تنحيا عني.

فقابلا علي بن أبي طالب وأخبراه بالقصة فأتىٰ عثمان وهو يقول: دفعت الشهود وأبطلت الحدود.

ثم أشار إليه باستقدامه ومواجهته بالشهود فإن لم يستطع أن يدرأ عن نفسه بحجّة أقام عليه الحدّ، ففعل. لكن الذي عيّنه بدلاً منه كان من أقربائه أيضاً وهو سعيد بن العاص الذي ضجَّ الكوفيون من جوره فقال قائلهم[1]:

يا ويلنا قد عزل الوليد وجاءنا مجوعاً سعيد

ينقص في الصاع ولا يزيد فجوّع الإماء والعبيد

كما عزل أبا موسى الأشعري عن البصرة وولّى مكانه ابن خاله عبد الله بن عامر بن كريز وعمره ٢٥ سنة فأثار عليه بذلك نقمة أهل العراق لكون ولاته غلمة لا صحبة لهم مع الرسول ولا تجربة لهم في الأمور.

ولم يكن عبد الله بن أبي سرح وهو أخو عثمان بالرضاعة أصلح من هؤلاء العمال وقد عينه على ولاية مصر مع أن الرسول ﷺ كان قد أهدر دمه، وقصته أنه أسلم قبل الفتح وهاجر إلى المدينة وكان من كتّاب الوحي للرسول ثم ارتدّ ولحق بالمشركين في مكة فصار يتقوّل على الرسول بالباطل فلما كان يوم فتح مكة أمر الرسول بقتله مع آخرين ولو كان تحت أستار الكعبة ففرّ إلى عثمان فغيّبه حتى اطمأن أهل مكة ثم أتىٰ الرسول واستأمنه منه فصمت الرسول طويلاً ثم قال: نعم. فلما انصرف عثمان قال لمن حوله: ما صمت إلاّ ليقوم عليه أحدكم فيضرب عنقه»[2].

---

(١) تاريخ العرب والإسلام، ص ٩٤.

(٢) المصدر السابق، ص ٩٤.

لقد أساء هذا الرجل السياسة في مصر كما أساء العمال الآخرين الذين ولاّهم عثمان على العراق وبقية الأمصار الإسلامية وكان هذا السبب الأهم في نشوء المعارضة التي أقسمت على قتل عثمان بعد أن وجدوا فيه الضعف وعدم وضع الحدّ على عماله المفسدين الذين جرعوا المسلمين ويلات الظلم والجور مما أسهم ذلك في زيادة نقمة الناس على الخلافة وكانت من أهم الأسباب التي أدّت إلى الثورة التي قامت على عثمان وأسفرت عن مقتله وللأسف الشديد فإن الأمويين رموا سبب مقتله على الإمام علي عليه السلام واتهموا الموالين له بقيامهم بالثورة والحقيقة غير ذلك تماماً.

وهكذا نجح الأمويون من جديد في استعادة مكانتهم وتطلّعوا بقوة إلى السلطة بعد أن رأوا في عثمان السبيل الأمثل لتحقيق غايتهم وإبعاد آل محمد صلى الله عليه وآله والهاشميين عنها.

أما السبب **الثالث**: فهو رغبة كبار الصحابة ومنهم عبد الرحمن بن عوف أن يكون الأمر لعثمان إما نتيجة الحسد أو الحقد أو الكراهية أو تغلّب المصلحة الشخصية على المصلحة العامة أو لغيرها من الأسباب التي يعلمها الله وحده، فإن تلك الأسباب صبّت في التأثير المباشر على الناس ليرشحوا عثمان خليفة للمسلمين.

ورغم ذلك فإن الموالين للإمام علي عليه السلام والذين كانوا يرون بأن الخلافة يجب أن تكون في البيت النبوي ومنهم عمار بن ياسر الذي خاطب عبد الرحمن بن عوف قائلاً: «إن أردت أن لا يختلف المسلمون فبايع علياً».

وقال المقداد بن الأسود: «صدق عمار، إن بايعت علياً قلنا سمعنا وأطعنا».

ولم يخل ذلك الاجتماع الذي جمع المسلمون بين مؤيد ومعارض أن يتخلله التشاتم والتجاذب بين أنصار الطرفين.

واحتدم الأمر وكادت المشادّة تصل إلى رفع السيوف بين الموالين لآل محمد ﷺ الذين كانوا يرون الحق مع علي وبين الأمويون الذين كانوا يطمعون بالخلافة ورجّحوا كفّة عثمان.

وكثير من المؤرخين قد أوعزوا سبب عزوف أكثرية الناس عن علي عليه السلام بدعوة كونه من آل محمد ﷺ وهم لا يرغبون أن تكون الخلافة وراثية في بيت النبوّة. بينما نجدهم يتهافتون بالتهليل لمعاوية في استخلاف ولده يزيد وبقاء الحكم وراثياً في بني أُمية.

أما السبب الآخر الذي استندوا عليه أيضاً أنهم كانوا يرون في علي عليه السلام خشونة وشدّة وصرامة فمالوا إلى عثمان الشيخ المسنّ اللين لينعموا بالدعة والراحة وكانت بوادرها التمادي في الثراء الفاحش ورفاهية العيش على حساب الفقراء من عامة الناس. وفي الحقيقة كانت هناك مؤامرة منظّمة مكملة لبدايتها أيام السقيفة ونجحت من جديد في إقصاء صاحبها الشرعي.

وقد ازدادت عوامل السخط وعدم الرضا من سياسة الخليفة وتدخلات الأمويين في مقاليد السلطة نتيجة لينه وعدم قدرته في ردعهم فضلاً عن تساهله الكبير مع أقربائه.

وأخذت تتجمع ضد الخليفة مطالب التنحّي عن الخلافة ولكنه أصرّ على البقاء زيادة على إعطاء صلاحيات كثيرة أخرى لعمّاله أعطت العذر للثوّار على قتله لا سيما التفاف المؤيدين حول الزبير في الكوفة وهوىٰ أهل البصرة في طلحة وتوافق أهل مصر على عمرو بن العاص.

لقد اختلف عصر عثمان عن عصر عمر اختلافاً كبيراً خصوصاً في الناحية الاقتصادية للدولة الإسلامية. فقد أصاب الغنى الفاحش طبقة واحدة بيدهم السلطة والنفوذ ورأس المال مكّنت من إقامة طبقة الإقطاعيين الأغنياء وكان منهم عثمان نفسه.

يروي ابن قتيبة[1]: أن عثمان تطاول في البنيان حتى عدوا سبع دور بناها في المدينة، داراً لنائلة (زوجته) وداراً لعائشة (ابنته) وغيرهما من أهله وبناته، وبنى مروان القصور بذي الخشب.

ويذكر المسعودي[2]: أن عثمان بنى له داراً في المدينة وشيّدها بالحجر والكلس وجعل أبوابها من الساج والمرمر واقتنى أموالاً وجناناً وعيوناً، وأنه قد خلّف عند موته ثروة تقدّر إجمالاً بربع مليون درهم.

وأن الزبير كان له في البصرة دار ينزلها التجار وأرباب الأموال وأصحاب الجهاز وله دور أخرى مثلها في مصر والكوفة والاسكندرية وقد خلّف ٥٠ ألف دينار وألف فرس وألف عبد وأمة وبنى طلحة داراً له في المدينة بالآجر والجص والساج وكانت غلّته من العراق ألف دينار.

أما ثروة عبد الرحمن بن عوف فقد كانت عظيمة فإلى جانب الدور كان يملك مئة فرس وألف بعير وعشرة آلاف شاة وخلف ثلث مليون دينار.

وهذا بالطبع يفسر قطعاً لماذا كانت يد عبد الرحمن بن عوف مغلولة غير مبسوطة لعلي بن أبي طالب عليه السلام. فمثل علي عليه السلام وعبد الرحمن لا يمكن أن يجتمعا في مكان واحد ومثل علي عليه السلام لا يمكن أن يكون نصيراً لمن يكتنزون الذهب والكثير من المسلمين جياع.

---

(١) الإمامة والسياسة، ج ١ ص ٥٠٦.
(٢) مروج الذهب، ص ٢٥٠.

فعلي عليه السلام نصير الفقراء ويكنىٰ بأبي الفقراء.

وأما عبد الرحمن الذي بذل ما بذله من جهد كي لا يكون الأمر لعلي فهو حتماً كان يدرك أن خلافة علي عليه السلام خطر يهدد مصالحه الشخصية لذلك كان هواه عثمانياً وأموياً حيث اجتمعت مصالحهم جميعاً لإقصاء علي من الخلافة وإبعاده عن سياسة الدولة.

ونجد رجلاً كالمروان بن الحكم قد اقتطع خمس أفريقياً ويغدق القطائع والأرزاق إلى أقوام بالمدينة ليست لهم صحبة مع رسول الله صلى الله عليه وآله أو سابقة في الإسلام.

وقصة أبي ذر الغفاري الذي ثار على عثمان ودولته الأموية مثالاً واضحاً لرفض المسلمين للاستئثار والإقطاعية البغيضة وأن يكون الطلقاء هم من يطبقون الشريعة الإسلامية بدلاً من أهلها الشرعيين فثارت تلك الحياة الباذخة والأموال التي تصرف على الهوىٰ حفيظة أبي ذر الغفاري ليطالب بالعدالة الاجتماعية فاعتبر معاوية أن أبا ذر داعية فتنة في رسالة بعثها إلى عثمان الذي أمر على أثرهما بنفيه إلى الربذة ليموت فيها وحيداً.

وصدق نذير أبي ذر لأهل المدينة، أن بشَّر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار فكانت الفتنة وكان مقتل الخليفة عثمان على يد الثوار.

ومن الخطأ الإشارة إلى أن معظم الذين أعلنوا الثورة على عثمان ومن ثم قتله هم من شيعة الإمام علي عليه السلام، كما يذهب إلى ذلك القول المضللون والمنافقون من العرب وإنما الثوار كانوا فئة من الناس قد خلعت الطاعة لعثمان أن يكون أميراً عليهم نتيجة عواقب أعماله ورداً على ما أصاب الأمصار الإسلامية من ظلم وجور وفقر جرّاء السياسة التي اتخذها عمّاله الذين لم يكونوا بمستوى المسؤولية.

ويشير المؤرخون إلى حصول مشادّة عنيفة جرت بين سعيد بن العاص عامل الكوفة بسبب ما ادّعاه من كون السواد بستان قريش فاعترضه الناس ومنهم الأشتر مالك بن الحارث النخعي الذي أجابه بالقول: أتجعل مراكز رماحنا وما أفاء الله علينا بستاناً لك ولقومك؟ والله لو رامه أحد لقرع قرعاً يتصأصأ منه.

كما ضجَّ المسلمون من أعمال عبد الله بن سرح الذي أرهق الناس وأذاقهم أبشع أنواع الجور إلى جانب الفقر والجوع وهكذا اجتمع بغض عثمان والكيد له في أهل الأمصار ووجوه أهل المدينة ورغم أن الإمام علي عليه السلام كان ناقماً على سياسة عثمان وعمّاله على الأمصار إلا أنه كان يبدي المشورة تارة والاستنكار تارة أخرى، ولكنه لم يكن يرغب بما آلت إليه الأمور ومنها مقتل الخليفة عثمان على يد الثوار، إلا أن الأمر كان كبيراً ولا بد من حدوثه.

وبدأت ثورات الأقاليم تندلع على عثمان تحديداً في عام ٣٤ للهجرة ومنها في الكوفة بقيادة مالك الأشتر وهو من زعماء اليمانية مطالبين بعزل سعيد بن العاص وثارت ثائرة المصريين الذين تشجّعوا بجموع كبيرة لاجتياح المدينة وكان بين الثوّار محمد بن أبي حذيفة ومحمد بن أبي بكر الصديق وغيرهما.

وخرج الثوار من الأمصار إلا الشام فلم تنضم لهم، وفي الحقيقة إن مقتل الخليفة عثمان لم يكن تحديداً على يد الرجال الذين ثاروا من أجل الإصلاحات التي وعد بها عثمان ولم يوفِ بوعده وإنما استغلّ معاوية بن أبي سفيان وأعوانه الفرصة لدسّ الكثير من رجال الشام ممن يبدون الطاعة العمياء لمعاوية للعمل على اغتيال عثمان. وقد حظي ذلك المخطط بموافقة مروان بن الحكم خصوصاً إذا نظرنا إلى جهل عثمان بالرسالة التي بعثت إلى

عامل الخليفة على مصر يأمره بقتل وجلد وحبس المتمردين من الذين ثاروا عليه وعندما وقع هذا الكتاب في أيدي الثوّار المصريين عادوا إلى المدينة وهم غاضبون ليجابهوا الخليفة بهذا الكتاب الذي يناقض ما كان قد قطعه لهم من عهود.

وأنكر عثمان علمه بالكتاب وأنه لم يأمر بكتابته وتجمع المصادر بأن مروان بن الحكم قد زوّر رسالة الخليفة ولعب لعبة خطيرة توافقت مع ما أبرمه من اتفاق مع معاوية للتخلص من عثمان، وبلغ الأمر إلى قيام الثوار بمحاصرة بيت الخليفة رغم الجهد المضني للإمام علي عليه السلام في محاولة إنقاذ حياة الخليفة المحاصر إلا أن الذين أحاطوا به كانوا كثيري العدد إلا أن الذين تسوروا عليه ودخلوا بيته وقتلوه هم من رجال معاوية الذي أراد بقتل عثمان إشعال نار الفتنة في كل الأمصار لتشتدّ فيها الأحداث بينما تبقىٰ الشام في مأمن يسمح له ذلك بترسيخ دعائم حكمه وقوّته لإعلان نفسه خليفة على المسلمين. ومن جانب آخر فإن مقتل عثمان يعطيه الفرصة لرمي التهمة على الإمام علي عليه السلام وأصحابه.

★ خلافة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام (٣٥ ــ ٤٠ هـ/٦٥٥ ــ ٦٦٠ م)

وما أن تلقى الإمام علي عليه السلام البيعة في نفس اليوم الذي قُتل فيه عثمان سرعان ما أعلن معاوية اتهامه لعلي عليه السلام خصوصاً بعدما أدرك أن البيعة جماعية شارك فيها الأنصار والمهاجرين وأهل مصر والكوفة والبصرة.

ورغم أن البيعة كانت شرعية تماماً لم يمنع ذلك من ظهور معارضين لها كسعد بن أبي وقاص وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وطلحة والزبير وغيرهم.

وسرعان ما أبىٰ الإمام علي عليه السلام الخلافة في ظلّ الصراع الذي انفلت

ليشمل الأقاليم فضلاً عن المدينة. خصوصاً بعد أن وجّه له الأمويون الاتهام بتدبير أمر مقتل الخليفة عثمان.

وبالفعل سرعان «ما اضطربت الدولة الإسلامية وأصبحت مسرحاً للمنافقين ولأعدائه المناوئين والمستكبرين والطامعين لارتقاء منصّة الخلافة بأي ثمن وعلى أي طريق ولو بإزهاق النفوس البريئة، وقد تغيّرت أحكام الله ورسوله على مرّ تلك السنين الخمس والعشرين ووجد الإمام علي عليه السلام نفسه في حروب دامية فرضت عليه فرضاً من الناكثين والقاسطين والمارقين ولم يخرج منها إلا باستشهاده سلام الله عليه وهو يتحسّر على أمة محمد وقد طمع فيها الطليق بن الطليق معاوية بن أبي سفيان وأضرابه كعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة ومروان بن الحكم وغيرهم كثيرون وما جرأ هؤلاء على ما فعلوه إلا فكرة الشورى والاختيار[1].

ويذكر الطبري[2] في حديثه عن امتناع معاوية عن بيعة الإمام علي عليه السلام وكانت أول مبادرات رفض معاوية لأوامر الخليفة المنتخب خروج أهل الشام لمنع سهل بن حنيف عندما أرسله علياً عليه السلام عاملاً عليها وظلّ معاوية في امتناع وهو يرفع قميص عثمان الملطخ بالدم في محاولة يثير فيها نقمة الناس ضد علي، وأهل الشام مجتمعون حوله مطالبين بثأر الخليفة المقتول. والواقع أن معاوية لم يكن عثمانياً مخلصاً ولم يكن يهمه سوى الوصول إلى الخلافة، ولعب لعبة شيطانية عندما أفهم أهل الشام خصوصاً أن خروجه عن طاعة الخليفة المنتخب إنما للوصول إلى قتلة عثمان وإنزال القصاص بقاتليه.

والواقع هو من دبّر أمر اغتياله وخطط لها بعناية تامة في مناورة كتب لها النجاح كان القصد منها الحفاظ على ولاية الشام وضم مصر لها لأنه كان

---

(١) لأكون مع الصادقين، ص ٨١.
(٢) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٩٨.

يدرك جيداً أن البصرة والكوفة فيها رجال من الصعب أن تخدعهم مناوراته طويلاً.

فضلاً من أننا لا نستبعد تورط عمرو بن العاص في مخطط معاوية للتخلّص من عثمان بعد أن اتخذ الأخير إجراء إبعاده من ولاية مصر وما إن غدت الكوفة حاضرة الخلافة الجديدة ومستقرّ الخليفة الشرعي لم يرق الأمر للكثيرين خصوصاً الذين شعروا بانتقال الثقل السياسي للدولة الإسلامية إلى العراق بعد أن كانت وسط الجزيرة العربية لتصبح الكوفة محل كره وبغض من العرب إلى يومنا هذا لأنها نالت شرف الخلافة وأصبحت من أشدّ الموالين حباً للإمام علي عليه السلام.

واستمر الأمويون في الموقف المعارض والمثير للفتنة بين المسلمين طمعاً في استعادة نفوذهم ودورهم السياسي.

وعندما وجدوا أن ذلك النفوذ لا يمكن تحقيقه أبداً بتولّي علي بن أبي طالب عليه السلام لزمام الخلافة في الكوفة عمدوا جاهدين إلى تأييد معاوية وجمع المعاديين لبيعة علي عليه السلام حوله في محاولة لإحداث انقلاب على الخلافة بعدما وجدوا القوة في معاوية لتنفيذ ذلك الأمر.

وفي الحقيقة إن الكثير من الصحابة ممّن كانوا لا يزالون في مكة والمدينة الذين لم يكن يروق لهم وصول الخلافة لعلي عليه السلام يتّخذون موقفاً متشنجاً وخصوصاً الذين أصبحوا من ضمن الطبقة الإقطاعية وكان ثراؤهم على حساب الفقراء بالتأكيد لم تكن لهم المصلحة في أن تكون أمور الدولة بيد رجل مثل علي في استقامته وعدله لذا فإن رجال الأرستقراطية القرشية ممن كدسوا الأموال والثروات الطائلة أيام حكم عثمان شعروا بخطورة بقاء علي على رأس السلطة لذا سارعوا إلى تأييد معاوية في خروجه عن طاعة الخليفة المنتخب مؤكدين بذلك معارضتهم لخلافة علي عليه السلام.

«ومهما يكن من حجّة لإثبات أحقيّته في الخلافة فإن الحقد والنفاق والحسد قد لعبت بالعرب فمن جملة المواقف التي أشارت لها المصادر التي تؤكد ما ذهبنا إليه عندما اجتمع المسلمون في الرحبة وناشد أصحاب محمد ممن حضر عيد الغدير أن يقوموا فيشهدوا أمام الناس ببيعة الخلافة فقام ثلاثون صحابياً منهم ستة عشر بدرياً وشهدوا»[1].

«وبذلك أقام أبو الحسن الحجّة على هذه الأمة. والذي كتم الشهادة وادّعى النسيان، كأنس بن مالك الذي أصابته دعوة علي بن أبي طالب فلم يقم من مقامه ذلك إلاّ أبرص فكان يبكي ويقول أصابتني دعوة العبد الصالح لأني كتمت شهادته»[2].

★ معركة الجمل:

لسنا نستغرب عندما نجد هناك مَنْ يبدي تعاطفه مع معاوية على أساس أنه الثائر الشرعي الساعي للقصاص من قتلة الخليفة المظلوم ويقصدون عثمان.

حتى بدأوا يطالبون بالإصلاح والإمام لا زال في طريقه إلى الكوفة وأخذ البعض يحرّض على شرعية خلافته كطلحة والزبير ولا تندهش إن وجدنا من بين المعارضين على تولّي الإمام علي لزمام الخلافة من جانب السيدة عائشة أم المؤمنين والتي كانت أثناء الثورة على عثمان تتعاطف مع الثائرين وتجد لهم العذر في قيامهم على أنهم المطالبون بالإصلاح وما إن بايع الناس علياً عليه السلام سرعان ما أنكرت عليه الأمر.

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٤ ص ٣٧٠، وكذلك ج ١ ص ١١٩، النسائي في الخصائص ص ١٩، كنز العمال ج ٦ ص ٣٩٧، ابن كثير في تاريخه ج ٥ ص ٢١١، ابن الأثير في أسد الغابة ج ٤ ص ٢٨، وابن حجر ج ٥ ص ٢١١.

(٢) مجمع الزوائد للهيثمي ج ٩ ص ١٠٦، ابن كثير في تاريخه ج ٥ ص ٢١١، ابن الأثير في أسد الغابة ج ٣ ص ٣٢١، حلية الأولياء ج ٥ ص ٢٦، أحمد بن حنبل ج ١ ص ١١٩.

«فلم ينعم أبو تراب عليه السلام بالخلافة فكانت أيامه كلها محن وفتن ومؤامرات وحروب شنّت عليه من كل حدب وصوب وبرزت تلك الأحقاد والضغائن البدرية والحنينية والخيبرية. . حتى سقط شهيداً، ولم تجد تلك السنن النبوية أذناً صاغية لدى الناكثين والمارقين والقاسطين والانتهازيين الذين ألفوا الفساد والرشوة وحب الدنيا أيام عثمان فلم يكن ابن أبي طالب ليصلح فساد وانحراف ربع قرن في ثلاث أو أربع سنوات إلاّ بفساد نفسه وهيهات منه ذلك وهو القائل: «والله إني لأعرف ماذا يُصلحكم ولكن لا أصلحكم بفساد نفسي»[1].

وما إن أنكرت عائشة أن يتولاها الإمام علي عليه السلام حتى بادرت بالخروج إلى البصرة والتحق بها فيما بعد كل من طلحة والزبير ليعلنوا الثورة على الإمام لينجم عن ذلك الموقف وقعة الجمل.

إن خروج رجلين كطلحة والزبير ينكران البيعة للإمام علي عليه السلام فلأنهما يعرفان سلفاً أن رجلاً من طراز علي عليه السلام سيقف في طريق إقطاعياتهم الكبيرة ومصالحهم المادية فلو آلت الخلافة لغير علي هل كانا سيعلنان الثورة عليه مثلما فعلوا؟

فطلحة والزبير معروف عنهما من طبقة الأرستقراطية القرشية ممن استفادوا من عصر الفتوحات وموالاتهم لعثمان ومروان بن الحكم فكدّسوا أموالاً وثروات طائلة خشوا أن يفقدوها بتولّي علي الذي سرعان ما قرر المسير بجيش كبير لمقاتلة معاوية الذي رفض البيعة، وما إن أعدّ العدّة للخروج إلى الشام جاءته الأخبار بخروج طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة فاضطر بالمسير لقتالهم عوضاً عن المسير إلى الشام.

فقال الإمام علي عليه السلام في عائشة وأتباعها من الصحابة الذين سعوا إلى

---

(١) واسألوا أهل الذكر، ص ٢١٢.

حرب الجمل «كنتم جند المرأة وأتباع البهيمة. رغا فأجبتم وعقر فهربتم، أخلاقكم دقاق وعهدكم شقاق ودينكم نفاق»[1].

أما فلانة فأدركها رأي النساء وضغن غلى في صدرها كمرجل القينِ ولو دُعيت لتنال من غيري ما أتت إليَّ لم تفعل ولها بعدُ حُرمتها الأولى والحساب على الله تعالى»[2].

ذكر المؤرخون بأن عائشة هي التي كانت القائدة العامة وهي التي تولي وتعزل وتصدر الأوامر حتى أن طلحة والزبير اختلفا في إمامة الصلاة وأراد كل منهما أن يصلّي بالناس، فتدخلت عائشة وعزلتهما معاً وأمرت عبد الله بن الزبير ابن أختها أن يصلي هو بالناس. وهي التي كانت ترسل الرسل بكتبها التي بعثتها في كثير من البلدان تستنصرهم على علي بن أبي طالب وتثير فيهم حمية الجاهلية حتى عبّأت عشرين ألفاً أو أكثر من أوباش العرب وأهل الأطماع لقتال أمير المؤمنين للإطاحة به وأثارتها فتنة عمياء قتل فيها خلق كثير باسم الدفاع عن أم المؤمنين ونصرتها، ويقول المؤرخون إن أصحاب عائشة لما غدروا بعثمان بن حنيف والي البصرة وأسروه هو وسبعين من أصحابه الذين كانوا يحرسون بيت المال جاؤوا بهم إلى عائشة فأمرت بقتلهم فذبحوهم كما يذبح الغنم (فلماذا نستغرب اليوم بما يقوم به الإرهابيون التكفيريون بذبح شيعة علي عليه السلام بالسكين مبررين فعلتهم الشنعاء على أنها سُنّة). وقيل كانوا أربعمائة رجل يقال إنهم أول قوم من المسلمين ضربت أعناقهم صبراً[3].

وبهذا ومن خلال الكثير من الرسائل التي بعثتها إلى البلاد تطلب فيها

---

(١) نهج البلاغة ص ٩٨.
(٢) نفس المصدر السابق، ص ٣٣٤.
(٣) الطبري في تاريخه ج ٥ ص ١٧٨، شرح النهج ج ٢ ص ٥٠١.

مساندتها، ولم تكتف بقيادة جيش الجمل وإنما طمعت في إمرة المؤمنين كافة في كل بقاع الأرض فلا عجب وقد رأت من قبل كيف وصلت الأمور إلى أبيها وهذا يبيّن إصرارها وعنادها على الحرب مع ما يمكن أن تفسّره من مقدار الكره والبغض والحقد الذي كانت تحمله للإمام علي عليه السلام.

يذكر الدينوري[1]، أقام الإمام عليه السلام وجيشه ثلاثة أيام يبعث رسله إلى أهل البصرة يدعوهم الرجوع إلى الطاعة والدخول في الجماعة فلم يجد عند القوم إجابة، حتى حاول أن يقيم حواراً مع الزبير وطلحة بقصد التفاهم وتجنّب اللجوء إلى القتال لحقن دماء المسلمين إلا أنه لم يتمكّن من إقناعهم بالعدول عن مبتغاهم.

فدخل الحرب مرغماً مضطراً يوم الخميس العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٦ هـ.

وكانت عائشة في هودجها أمام البصريين تشدّهم إلى القتال فتجمّعوا حول الجمل الذي كانت تركبه واعتبروا الدفاع عنه سبيلهم إلى النصر.

قام غلام حدث السن وأخذ المصحف ووقف أمام الصفوف وقال: هذا كتاب الله، وأمير المؤمنين يدعوكم إلى ما فيه، فأمرت عائشة بإعدامه فقطعوا يديه ثم أحاطوا به وطعنوه بالرماح من كل جانب وكانت أمه واقفة تنظر فصاحت وطرحت نفسها على ولدها.

وهناك دعا الإمام ابنه محمد بن الحنفية فأعطاه الراية وهي راية سوداء كبيرة، راية رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له: يا بني هذه راية ما ردّت قط ولا ترد قط!! ثم لبس الإمام درع رسول الله صلى الله عليه وآله، وحزم بطنه بعصابة أسفل من سرّته، ثم قال لولده محمد بن الحنفية: يا أبا القاسم قد حملت الراية وأنا

---

(١) الإمامة والسياسة، ص ٥٠٦.

أصغر منك فما استفزّني عدوي!! وذلك أني لم أبارز أحداً إلاّ حدّثتني نفسي بقتله، فحدّث نفسك بعون الله تعالى ـ بظهورك عليهم! وأعطاه تعاليم حربية وزحف أصحاب الجمل نحو معسكر الإمام فصاح الإمام بابنه محمد: امض.. فمضىٰ وتبعه أصحابه، واشتعل القتال..

وأقبل الإمام يهرول وبيده سيف ذو الفقار يصعد وينزل فتطير الرؤوس وتطيح الأيدي ولا يتلطّخ السيف بالدم لسرعة اليد وسبق السيف للدم!! وزحف الجيش خلفه...

وحمل عمار بن ياسر على الميسرة ومالك الأشتر على الميمنة وحملوا حملة رجل واحد[1].

وكتب الله لهم النصر، ومرّ الإمام على القتلى وجعل يخاطبهم ويعاتبهم، فخاطب كعباً وطلحة بعد قتلهما فقيل له: أتكلم هؤلاء بعد القتل!! فقال: والله لقد سمعا كلامي كما سمع أهل القليب كلام رسول الله يوم بدر.

وأمر الإمام محمد بن أبي بكر الذي كان يقاتل إلى جانبه أن يتقدم لإنقاذ أخته عائشة حتى لا يصيبها سوء ومن ثم اصطحابها إلى المدينة. «ودخل الإمام علي عليه السلام البصرة وجمع أهلها في المسجد وخطب بهم وعنّفهم على موقفهم منه وأمرهم بالانصراف إلى منازلهم.

وهكذا أسفرت المعركة عن انتصار كبير للإمام علي عليه السلام على الفتنة»[2].

هكذا يعترف التاريخ لنبل وشهامة وشجاعة علي بن أبي طالب عليه السلام،

---

(١) من المهد إلى اللحد، ص ٢٧٠.
(٢) تاريخ العرب والإسلام، ص ١١٤.

«أشجع الصحابة وأقواهم، وقد فرَّ الشجعان من الصحابة في مواقف عديدة من الزحف في حين ثبت هو عليه السلام في المواقف كلها، ويكفيه دليلاً الوسام الذي وسَمه به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عندما قال[1]: «لأعطين غداً رايتي إلى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، كرَّاراً ليس فرّاراً امتحن الله قلبه للإيمان»[2].

فكان بحق أسد الله الغالب وأصبحت قوّته وشجاعته مضرب الأمثال عبر الأجيال، حتى روى المؤرخون فيها قصصاً تقارب المعجزات[3] كاقتلاع باب خيبر وقد عجز عن تحريكه فيما بعد عشرون صحابياً[4]. واقتلاع الصنم الأكبر هُبل[5] من فوق سطح الكعبة وتحويل الصخرة العظيمة التي عجز الجيش كله عن تحريكها[6] وغير ذلك من الروايات المشهورة.

والمتتبع لسيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم يجده لم يكتفِ بالأقوال والأحاديث فيه فحسب بل إن أقواله تجسّدت في أعماله فلم يُؤمِّر في حياته على علي أحداً من الصحابة بالرغم من تأميرهم على بعضهم البعض، فقد أمَّر على أبي بكر وعمر في غزوة ذات السلاسل عمرو بن العاص[7].

كما أمر عليهم جميعاً شاباً صغيراً وهو أسامة بن زيد وذلك في سرية أسامة قبل موته صلى الله عليه وآله وسلم أما علي بن أبي طالب فلم يكن في بعث إلا وهو الأمير حتى أنه صلى الله عليه وآله وسلم بعث في مرة بعثتين وأمر علياً على بعثٍ وخالد بن الوليد على

---

(١) لأكون مع الصادقين، ص ١٠٠.
(٢) صحيح البخاري ج ٤ ص ٥.
(٣) لأكون مع الصادقين، ص ١٠١.
(٤) شرح النهج لابن أبي الحديد.
(٥) نفس المصدر السابق.
(٦) نفس المصدر السابق.
(٧) السيرة الحلبية (غزوة ذات السلسل)، وطبقات ابن سعد.

بعثٍ وقال لهم: إذا افترقتم فكل واد على جيشه وإذا التقيتم فعلي على الجيش كله.

ونستنتج من كل ما تقدم من أن علياً هو ولي المؤمنين بعد النبي ﷺ ولا ينبغي لأحد أن يتقدّم عليه.

ولكن مع الأسف الشديد فقد خسر المسلمون خسارة فادحة، وهم يعانون حتى اليوم ويجنون ثمار ما غرسوه وقد عرف الثالوث غبَّ ما أسسه الأولون[1].

وللأسف لا زالت هناك أطراف من المسلمين تعيش عقد الماضي وعليهم التخلّص من تلك العقد التي ما كونها إلا معاوية وأشياعه وأتباعه، وعليهم أن يتّقوا الله في إخوانهم من شيعة أهل البيت عليهم السلام ولا يجمعوا أمور الدنيا في أمور الدين وأن يخرجوا من قوقعة الاستفتاء التي تصل إلى حدّ الجهالة والكفر بالله.

ولينظروا إلى النخبة المثقفة من حملة الشهادات العليا من الهندوس والبوذيين وهم يعبدون البقر والحجر والبحر والشمس، أليس الأولى نشر العقيدة الإسلامية بين هؤلاء القوم أولىٰ من تفجير السيارات المفخخة والأسجاد الملغومة لقتل الأبرياء من الشيعة بلا ذنب سوى أنهم أظهروا ولاءهم وتعلقهم بحب أهل البيت عليهم السلام.

فهل هذا ذنب يستوجب قتلهم بهذا الشكل اللاإنساني المقزز الذي يعدّ خروجاً ومخالفة للكتاب والسُّنة؟

ولماذا هذا الإصرار على قتل وشتم الشيعة لحبهم لعلي إذا كان رسول الله ﷺ يأمر المسلمين بأتباع أهل بيته من بعده حتى جعلهم كسفينة نوح ينجو من يركب فيها ويهلك من يتخلّف عنها؟

---

(١) لأكون مع الصادقين، ص ١٠٢.

وما ذنب الشيعة إذا امتثلوا لأمر الرسول بقوله: «تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً» كما تشهد بذلك صحاح السنة فضلاً عن كتب الشيعة[1].

وبدل أن يقدم لهم الاحترام والتقدم على غيرهم يُقابلون بالشتم والتجريح والتكفير وآخرها القتل المتعمّد بالسيارات المفخخة والأحزمة الناسفة بين جموعهم في الأسواق والمدارس والشوارع والحسينيات والجوامع وو... فضلاً عن العمل بسُنّة الذبح التي سنّها لهم معاوية أيام كان يقطع أعناق الموالين لعلي عليه السلام وللأسف الشديد، أكررها لمرات ومرات... إن هذا النمط من الحديث لا ينفع مع تلك الجماعات التي تحمل عقلية لا تعرف الحقّ إلا من خلال أبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية ويزيد ومروان وابن العاص والحجاج...

فهم يعملون عكس القاعدة المنطقية وعرفوا الحق بالرجال والمفروض أن يعرفوا الرجال بالحق.

كما قال الإمام علي عليه السلام: «اعرف الحق تعرف أهله»[2].

★ وقعة صفّين:

دانت الأمصار كلها للخليفة الجديد بالطاعة ما عدا الشام، وتمكّن الإمام علي عليه السلام أن يفرض هيبة الدولة على أغلب أقاليم الدولة الإسلامية في العراق ومصر واليمن والبحرين وعمان واليمامة وفارس والجبل وخراسان وغيرها. وظل معاوية بن أبي سفيان والي الشام على عناده وخروجه عن الطاعة للخليفة الشرعي لا يبايع.

---

(١) فاسألوا أهل الذكر، ص ١٨.
(٢) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.

ويذكر الطبري[1]، أن خضوع مصر لعلي عليه السلام قد أغاظ معاوية كثيراً وجعله يشعر بالخطر لقرب مصر من الشام ومخافته أن يلجأ علي عليه السلام إلى خطة الإطباق عليه بجيش يقدم به قيس بن سعد من مصر (الذي ولاّه الإمام علي عليه السلام عليها قبل خروجه لقتال أهل الجمل) وجيش من العراق بعد خضوعها له، فيقع بين فكي كماشة قوية لا قبل له بمجابهتها، وأراد معاوية أن يستميل قيساً إليه فكتب له محاولاً استجلابه وممنياً إياه إذا انحاز له بأنه سيولّيه العراق وسيولي من يشاء من أهله (أهل قيس بن سعد) الحجاز وسينفذ له كل طلب أو أمر.

وبعد مراسلات عديدة أظهر قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ولاءه الأكيد والصادق لعلي عليه السلام ووقوفه إلى جانبه دون تحفّظ لاعتقاده بأن علياً صاحب الحق في الخلافة.

«. . . رأى معاوية أن مناورته مع قيس بن سعد فاشلة، فلجأ إلى تشويه موقف سعد ودسّ جواسيسه في العراق ليوصلوا لعلي أخباراً مشكّكة في ولائه له»[2]. ويشير المؤرخون بأن معاوية نجح في تسريب الشك في ولاء قيس بن سعد إلى نفس الإمام علي عليه السلام وهذا غير صحيح إطلاقاً، على الرغم من إقدام الإمام عليه السلام بعزله عن ولاية مصر وتعيين محمد بن أبي بكر بدلاً عنه. فقد جاء قرار العزل بعد تأكّد الإمام من عدم صمود قيس بن سعد أمام الإغراءات الكثيرة التي قدّمها له معاوية فضلاً عن انتشار الكثير من الجواسيس حوله ممن حاصروه وكاد يقرّ بولائه إلى معاوية لولا أن الإمام علي عليه السلام تدارك الأمر سريعاً قبل حصوله، وجاء قرار العزل في الوقت المناسب حتى أصيب معاوية بالدهشة والذهول من ذلك القرار الذي أفشل مخططه الشيطاني في آخر لحظة.

---

(١) التاريخ للطبري ج٥ ص١٧٩.
(٢) المصدر السابق، ص ١٧٩.

وتتحدث المصادر التاريخية عن لجوء الإمام عليه السلام إلى بعث العديد من الرسائل إلى معاوية وإلى عمرو بن العاص الذي اختار أن يكون مع معاوية، ولكنها جميعاً لم تنجح في حملهما على الرجوع إلى العقل والصف الإسلامي فيما يخصّ أمر الخلافة وأهمية عدم خروجهما على ما أجمع الناس عليه ولكنهم كما «كانا فيما مضى في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فعن ابن عباس قال كنا في سفر مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسمع رجلين يتغنيان وأحدهما يجيب الآخر، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: انظروا من هما، فقالوا: معاوية وابن العاص فرفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يديه فقال: اللهم اركسهما ركساً ودعهما إلى النار دعّاً»[1].

ولم يكن في البدّ إلاّ القتال، فأعدّ الإمام علي عليه السلام جيشاً لمقاتلة معاوية وصاحبه عمرو بن العاص اللذين قد وصلا برجالهما إلى صفّين قبل وصول جيش الإمام علي عليه السلام حيث عسكرا في موضع سهل قريب من شريعة ماء على الفرات.

«أما علي عليه السلام وجيشه فقد حِيل بينهم وبين الماء وقد طلب الإمام عليه السلام من معاوية أن يخلي بينه وبين الماء بالحسنىٰ ولكن معاوية رفض، فتمكّن جيش علي من أن يغلبهم على الماء وحين أراد جيشه منع جند معاوية من الشرب كما فعلوا معهم سابقاً رفض علي وأمر جيشه أن يخلوا بين الشوام والماء»[2].

وهذا موقف عظيم سجّله التاريخ للإمام علي عليه السلام اكتملت في جوانبه صورة الحق لشرعية قتاله لجماعة مرقت عن الحق وخرجت عن طاعة خليفة المسلمين الشرعي.

وسنرى في زمن لاحق عند تولّي يزيد بن معاوية الخلافة التي ورثها

---

(١) مسند الإمام أحمد ج ٤ ص ٤٢١ والطبراني في الكبير.
(٢) الإمامة والسياسة للدينوري.

عن أبيه خلاف ما دعا إليه المسلمون بوجوب الشورى وهذا موضوع يطول شرحه إلا أن المهم فيه أن الجيش الذي بعثه يزيد والي الشام بقيادة ابن زياد وابن سعد وغيرهم من أجلاف القوم كيف يمنعون ماء الفرات عن الإمام الحسين بن علي وعياله وأهله وأصحابه بلا مروءة في واقعة كربلاء الشهيرة.

ولنرجع إلى صفين التي دارت فيها المعركة التي استمرت لبضعة أيام وقد قتل فيها من الجانبين خلق كثير ولاح النصر في نهاية القتال للإمام علي عليه السلام.

حيث أوشك مالك الأشتر قائد جيوش الإمام علي عليه السلام في تلك الساعة وهو يتقدم للإمام لحظة بعد لحظة وجيش معاوية ينسحب ويتقهقر ولو أمهل الأشتر ساعة واحدة لانقضّ على معاوية في فسطاطه وانتهت المعركة وتخلّص الناس من شر معاوية وأعوانه لولا الحيلة التي أشار بها عمرو بن العاص في رفع المصاحف على رؤوس الرماح.

وتشير المصادر التاريخية، أنه قد كثر في جيش الشوام رفع المصاحف حتى بلغ أكثر من خمسمائة مصحف. ونادوا: كتاب الله بيننا وبينكم، من لثغور الشام بعد أهل الشام ومن لثغور العراق بعد أهل العراق، ومن لجهاد الروم، ومن للترك، ومن للكفار؟

فلما رأى الجيش العراقي هذا الموقف من جيش الشام المنكسر، قالوا: نجيب إلى كتاب الله وننيب إليه. وحاول الإمام علي عليه السلام أن يبيّن لهم أنها خدعة لأهل الشام يريدون بها بثّ الفرقة والفتنة بين صفوف أهل العراق وقال لهم منادياً:

«... وما رفعوها إلاّ خديعة ودهاء ومكيدة» فقالوا له: إنه ما يسعنا أن ندعىٰ لكتاب الله فنأبىٰ أن نقبله. فقال: ويحكم قاتلتم ليدينوا بحكم

الكتاب، فقد عصوا الله فيما أمرهم ونبذوا كتابه فأمضوا على حقكم وقصدكم وخذوا في قتال عدوكم، فإن معاوية وابن العاص. . . (وعدداً) غير هؤلاء، ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن، وأنا أعرَف بهم منكم. . .

وخطب فيهم قائلاً: «ولقد علم المستحفظون من أصحاب محمد ﷺ أني لم أرد على الله ولا على رسوله ساعة قط، ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال وتتأخر فيها الأقدام، نجدة أكرمني الله بها. ولقد قبض رسول الله ﷺ وأن رأسه على صدري ولقد سالت نفسه في كفي فأمررتها على وجهي ولقد وليت غسله ﷺ والملائكة أعواني، فضجّت الدار والأفنية ملأ يهبط وملأ يعرج وما فارقت سمعي هينمة منهم (الهينمة: الصوت الخفي) يصلّون عليه حتى واريناه في ضريحه فما أحقّ به مني حياً وميتاً؟ فأنفذوا على بصائركم ولتصدق نياتكم في جهاد عدوّكم فوالذي لا إله إلاّ هو إني لعلىٰ جادة الحق وإنهم لعلى مذلّة الباطل أقول ما تسمعون وأستغفر الله لي ولكم»[1].

ولكن الإمام لم يتمكّن من إقناعهم ويُثني من مأخذهم على التهادن والتهاون وعصيان الأوامر، وبرز بين جيش الإمام رجال دعوا إلى التمرد والانقلاب إن لم يحتكم لأمر القرآن ومنهم الأشعث بن قيس وعدد آخر غير قليل حتى تم فرض التحكيم فأختار العراقيون أن يكون ممثلهم في التحكيم أبو موسى الأشعري بينما اختار أهل الشام مرشحهم عمرو بن العاص.

ولما علم الإمام علي عليه السلام أن أهل الشام قد اختاروا ابن العاص أراد أن يقنع أهل العراق أن يكون نظيره عبد الله بن عباس ولكن القوم أصرّوا على أبي موسى مرشحاً لهم في التحكيم وما كان من الإمام إلاّ أن يرضخ لمشيئة أهل العراق وهذا يعني وصول جيش العراق إلى منحىٰ خطير من الاضطراب

---

(١) من المهد إلى اللحد، ص ٣١٥.

والانقسام. بحيث لم يتمكّن الإمام علي عليه السلام من إقناعهم على قبول عبد الله بن عباس ليكون بديلاً عن أبي موسى الأشعري الذي لم يكن في الحقيقة نظيراً لابن العاص الذي عرف عنه الدهاء والمكر والخديعة.

ورغم أن جيش الإمام عليه السلام قد استقطب جميع أبناء الصحابة والقرّاء إلا أنهم لم يكونوا مؤثرين في ذلك الموقف نظراً لكون أهل التمرّد كانوا أكثر عدداً في صفوف جيش العراق. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أراد الإمام أن يحتكم هؤلاء الذين تمرّدوا في جيشه واعتقدوا أن معاوية يريد الإسلام بأنهم مخطئون حتى وإن عرفوا حقيقة أمره هلموا إلى قتاله بلا تردد.

وتم التحكيم... وبعد نقاش طويل اتفق الحكمان على خلع علي ومعاوية وجعل الأمر شورى بين المسلمين ليختاروا لأنفسهم من أرادوا.

فتقدم أبو موسى الأشعري أولاً لكبر سنه على عمرو بن العاص وأعلن للناس أنه قرّ رأيه ورأي عمرو على أمر يرجو أن يصلح به الله أمر هذه الأمة.

عندئذ قال عمرو: صدق وبرّ... يا أبا موسى تقدّم فتكلم... فتقدم أبو موسى فأراد عبد الله بن عباس أن يمنعه من الكلام قبل عمرو خشية الغدر ولكن أبا موسى تقدّم وقال: إنه اتّفق مع عمرو على خلع علي ومعاوية لتستقبل هذه الأمة أمرها فيولوا منهم من أحبّوا، وأعلن أنه خلع علياً ومعاوية ليولّي الناس من يريدونه.

وقام عمرو بعد أبي موسى، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن هذا قد قال ما سمعتم، وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية: «فإنه ولي عثمان بن عفان والطالب بدمه وأحقّ الناس بمقامه». وقد أحدث كلام عمرو هرجاً بين الناس. وقام أحد أنصار علي وهو شريح بن

هانىء فضرب عمرو بالسوط وقام الخلاف والتلاسن بين الناس بعد ذلك وركب أبو موسى وتوجّه إلى مكّة هارباً من أهل العراق وأهل الشام معاً.

وهكذا وقع أبو موسى كما توقّع الإمام علي عليه السلام في شراك الخديعة التي نصبها له عمرو بن العاص لأن معاوية لم يكن خليفة بعد ليخلع أو يثبت وكان الخلع أو الإثبات لا يصيب بالواقع إلاّ علياً وحده لأنه هو الخليفة المنتخب، لذلك وجد علي نفسه مضطراً لرفض حكم الحكمين»[1].

وقال عليه السلام في رسالة بعثها إلى معاوية:

«فإنك مُترف قد أخذ الشيطان منك مأخذه وبلغ فيك أمله وجرى منك مجرى الروح والدم. ومتى كنتم يا معاوية ساسة الرعية وولاة أمر الأمة بغير قدم سابقٍ ولا شرف باسقٍ ونعوذ بالله من لزوم سوابق الشقاء.. وأحذرك أن تكون متمادياً في غرّة الأمنية مختلف العلانية والسريرة وقد دعوت إلى الحرب فدع الناس جانباً واْخرج إليّ واْعف الفريقين من القتال ليُعلم أيّنا المُرينُ على قلبه والمُغطّىٰ على بصره، فأنا أبو الحسن قاتل جدك وخالك وأخيك شدخاً يوم بدر وذلك السيف معي وبذلك القلب ألقىٰ عدوي ما استبدلت ديناً ولا استحدثتُ نبياً وإني لعلى المنهاج الذي تركتموه طائعين ودخلتم فيه مكرهين...»[2].

وأما قولك إنّا بنو عبد مناف فكذلك نحن ولكن ليس أُمية كهاشم ولا حرب كعبد المطلب ولا أبو سفيان كأبي طالب ولا المهاجر كالطليق ولا الصريح كاللصيق ولا المحق كالمبطل ولا المؤمن كالمُدغل ولبئس الخلف خلف يتتبع سلفاً هوى في نار جهنم. وفي أيدينا بعد فضل النبوّة التي أذللنا

---

(١) تاريخ العرب والإسلام، ص ١٢٣.
(٢) نهج البلاغة، ص ٥٢٦.

بها العزيز ونعشنا بها الذليل ولما أدخل الله العرب في دينه أفواجاً وأسلمت له هذه الأمة طوعاً وكرهاً كنتم ممن دخل في الدين إما رغبة وإما رهبةً، على حين فاز أهل السبق بسبقهم وذهب المهاجرون الأولون بفضلهم..[1].

وقد دعوتنا إلى حكم القرآن ولست من أهله، ولسنا إياك أجبنا ولكنّا أجبنا القرآن في حُكمه ـ والسلام[2].

ورفض الناس أنفسهم الذين طالبوا بالتحكيم إلى ما وصلت إليه الأمور في خلع الإمام عليه السلام ورأوا أنها خدعة أراد بها أهل الشام التخلّص من هزيمة ساحقة كادوا يتعرّضون لها من قبل جيش العراق في صفين.

كما أن أبا موسى الأشعري الذي ولّى هارباً إلى مكّة ليس خوفاً من أهل الشام لأنه قد يسّر لهم أمراً أرادوه بل ولّى هارباً خوفاً من المتطرفين الذين ظهروا في جيش الإمام علي عليه السلام ممّن أرادوا التحكيم هذا من جانب ومن جانب آخر أمر التحكيم قد كشف عنه الغفلة والغباء وعدم الدراية بأمور السياسة والحكمة ما دفعه إلى الاعتكاف خجلاً بمكّة وعدم التدخل في أمور المسلمين مرة أخرى، فدرس التحكيم كان على ما يبدو مؤلماً لأبي موسى الأشعري.

على العموم بعد فشل التحكيم على النحو الذي سار عليه الأمر، توجّه الإمام علي عليه السلام ومعه أصحابه المخلصين الذين لم ينقلبوا على أعقابهم وفضّلوا الجهاد في سبيل الله والاستشهاد بين يدي الإمام عليه السلام وتذكّروا قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم:

«الحق مع علي وعلي مع الحق، يدور الحق معه أينما دار». فتجمّعوا من جديد في معسكر النخيلة، بينما الفئة الضالّة التي انشقّت عن الإمام عليه السلام

---

(١) نهج البلاغة، ص ٥٣٣.
(٢) نهج البلاغة، ص ٥٩٥.

قد خرجت إلى النهروان بقيادة عبد الله بن وهب الراسبي وسموا بالخوارج لأنهم رفضوا الاستجابة لنداء الإمام علي عليه السلام لجهاد أهل الشام وخرجوا عن طاعته.

إن ما يؤسف له فرغم موقفهم الشديد المطالب بالتحكيم بعدما جرعوا الإمام عليه السلام مرارة الأسى هم أنفسهم قد تصدّروا الصفوف يطالبون علياً الاعتراف بأنه أخطأ في قبوله للتحكيم.

★ معركة النهروان:

تشير المصادر التاريخية إلى بشاعة ما ارتكبه الخوارج الذين انشقّوا عن طاعة الإمام علي عليه السلام لتصبح فئة باغية تقترف أبشع الجرائم بحق المسلمين فما إن مروا بالرجل وسألوه عن علي والتحكيم وقال إن علياً مع الحق قتلوه شرّ قتلة حتى أنهم ذبحوا عبد الله بن خباب بن الأرت وهو ابن أحد الصحابة ذوي السابقة في الإسلام وكان عامل الإمام علي عليه السلام على المدائن كما قتلوا امرأته وبقروا بطنها وكانت حاملاً وقتلوا غيرها من النساء والرجال الأبرياء فسار إليهم الإمام علي عليه السلام وهو مستاء منهم في صفر من عام ٣٨ هـ. وقد بلغ هؤلاء الخوارج[١] من الأجرام وعدم الاعتراف بأية شرعية للخليفة المنتخب بل وحتى عدم الاعتراف بأي مبادىء وقيم للدين الإسلامي الحنفي. ووصل الأمر إلى أنهم قد قتلوا رسول الإمام علي عليه السلام الذي يدعوهم الرجوع إلى الحق وآثروا على أنفسهم فمثّلوا بجثة مبعوث الإمام عليه السلام وقطعوها هبراً بالسيف.

---

(١) لقد ظهرت هذه الفرقة وانتشرت نظرياتهم السياسية إثر التحكيم بين الإمام علي ومعاوية وقد انقسم الخوارج إلى فرق متعددة. وأشهرها الأزارقة وهم أصحاب نافع بن الأزرق والنجدية وهم أتباع نجدة بن عامر الحنفي وكذلك البهيسية وهم أصحاب بهيس بن جابر وكذلك الفرقة الأباضية وهم أتباع عبد الله بن أباض التميمي والصفرية وهم أصحاب زياد بن الأصفر.

فلم ير الإمام علي عليه السلام بداً من قتالهم، يقول المسعودي[1]:

«. . . وكان جملة من قتل من أصحاب علي تسعة، ولم يفلت من الخوارج إلاّ عشرة وأتى علي على القوم وهم أربعة آلاف».

وحاول الإمام عليه السلام بعد انتصاره على الخوارج في النهروان أن يستحثّ جيشه من جديد للخروج إلى قتال معاوية وأنصاره ولكنهم تبرّموا من القتال وأخذوا يهربون من معسكر الجيش الذي أقامه في النخيلة فلم يبق فيه إلاّ نفر يسير اضطره إلى العودة والالتفات لقمع بعض الفتن التي أخذت تنشب هنا وهناك.

وخطب في الناس خطبته الشهيرة التي قال فيها:

«أيها الناس فأنا فقأت عين الفتنة ولم تكن ليجرأ عليها أحد غيري، بعد أن ماج غيهبها واشتدّ كلبها، فاسألوني قبل أن تفقدوني فوالذي نفسي بيده لا تسألوني عن شيء فيما بينكم وبين الساعة ولا عن فئة تهدي مائة وتضل مائة إلاّ أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها، ومناخ ركابها ومحطّ رحالها، ومن يقتل من أهلها قتلاً، ويموت منهم موتاً. ولو قد فقدتموني ونزلت بكم كرائه الأمور وحوازب الخطوب لأطرق كثير من السائلين وفشل الكثير من المسؤولين»[2].

وبقي الإمام عليه السلام في ساحة المواجهة مع الأعداء وحيداً إلاّ من أولاده وقلّة من الأصحاب والموالين.

فبعد المعركة انشقّ الخوارج عليه وتثاقل أهل البصرة والكوفة عن نصرته، وهروب الرجال من معسكره مما أثقل عليه الأمر صعوبة السير نحو معركة جديدة مع معاوية الذي أخذ يرسل جيوشاً تقوم بالغارات على أطراف

---

(١) مروج الذهب للمسعودي.

(٢) علي من المهد إلى اللحد، ص ٣١٦.

العراق وتقتل الأبرياء كيفما تشاء وتأخذ من الغنائم ما رفع، فازداد شكوى الناس حتى وصل الأمر أن يعلن معاوية نفسه خليفة في بيت المقدس بعد أن أخذ البيعة من أهل الشام.

وما إن أراد الإمام علي عليه السلام الخروج لحربه بقلّة ما معه من رجال وقع شهيداً إثر ضربة ابن ملجم الخارجي الغادرة يوم الجمعة الخامس عشر أو السادس عشر من شهر رمضان سنة ٤٠ هـ.

«وهو يعلم أن ابن ملجم اللعين الفاجر قاتله إلا أنه يأبىٰ أن يترك الصلاة وهو قائم بين يدي الله ففضل الشهادة، ونجد هؤلاء القوم الذين ابتلى بهم الإمام عليه السلام عندما لم يجدوا فيه نقيصة واحدة ولا سجّلوا عليه طيلة حياته كذبة واحدة ولا عرفوا له خطيئة واحدة ولو كانت، لملأوا الدنيا صياحاً وعويلاً فعمدوا لوضع رواية تتهمه بأنه كان يستخفّ بالصلاة[1]. عليٌّ الذي فضل الموت على أن يترك الصلاة وكم يحدثنا التاريخ عنه والمؤرخون أنه كان يقوم بصلاة الليل في ليلة الهرير (في حرب صفين) فيفرش نطعاً ويصلي بين الصفين والنبال والسهام تتساقط على يمينه وشماله فلا يرتاع ولا يقطع صلاة الليل ثم يخرج «البخاري في صحيحه حديثاً من كتاب الكسوف باب تحريض النبي صلى الله عليه وآله على صلاة الليل وطرق النبي صلى الله عليه وآله فاطمة وعلياً (عليهما السلام) ليلة للصلاة»[2].

رحل الإمام عليه السلام عن هذه الدنيا مفارقاً للحياة التي ملأت قلبه أسًى وحزناً وتجرّع مرارة الناس وتخاذلهم عن نصرة الحق...

فارق الدنيا في شهر رمضان وهو صائم، حينها ارتفعت الصيحات والصرخات وعلم أهل الكوفة كلهم أن أمير المؤمنين الذي ملؤوا قلبه قيحاً

---

(١) فاسألوا أهل الذكر، ص ٣٣٤.

(٢) صحيح البخاري ج ٢ ص ٤٣.

قد فارق الحياة. «فأقبل النساء والرجال يهرعون أفواجاً، وصاحوا صيحة عظيمة فارتجّت الكوفة بأهلها وكثر البكاء والنحيب والضجيج بالكوفة وقبائلها وجميع أقطارها، فكان ذلك اليوم كاليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ وتغيّر أفق السماء وسمع الناس أصواتاً وتسبيحاً في الهواء، واشتغلوا بالنياحة على الإمام.

ثم قام أولاده لتجهيزه ليلاً، ولمّا جرّدوه عن ثيابه وجدوا على جسده الشريف آثار ألف جراحة من قرنه إلى قدميه وهي الجراحات التي أصابته في سبيل الله في الحروب، فكان الحسن يغسله والحسين يصبّ عليه الماء، وهو(عليه السلام) لا يحتاج إلى من يقلبه بل كان يتقلّب كما يريد الغاسل يميناً وشمالاً لأن الملائكة كانت تقلبه، وكانت رائحته أطيب من رائحة المسك»[1].

★ خلافة الإمام الحسن بن علي ٤١ هـ/٦٦٢ م

اختلفت الآراء والروايات حول وصية الإمام علي عليه السلام، فمن قائل إنه أمر أن يكون الأمر من بعده لابنه الإمام الحسن عليه السلام، ومن قائل إنه قال حيث سئل لمن يكون الأمر من بعدك: ما آمركم ولا أنهاكم، أنتم أبصر.

فعلى الرغم من كثرة الروايات على أنه لم يوصِ لابنه الحسن عليه السلام إلا أننا نرى خلاف ما ذهبوا إليه من قول ورأي، فالإمام علي عليه السلام قد أوصىٰ بالأمر من بعده لابنه الحسن عليه السلام وخيَّر الناس بين الالتزام ببيعته أو النكوث عنها، فاختاره الناس خليفة عليهم.

فلا يمكن للأمة أن تبقى بلا خليفة شرعي وهي تُحاك ضدها المؤامرات

---

(١) الإمام علي من المهد إلى اللحد ـ العلاّمة الخطيب السيد محمد كاظم القزويني، ص ٣٤٤.

والدسائس والفتن وإلاّ لما حارب الإمام علي عليه السلام كل تلك السنوات أليس لأجل إحقاق الحق وإثبات الشرعية؟!

«لو قُدر لعلي أن يقود الأمة ثلاثين عاماً على سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لعمّ الإسلام ولتغلغلت العقيدة في قلوب الناس أكثر وأعمق ولما كانت فتنة صغرى ولا فتنة كبرى ولا كربلاء ولا عاشوراء ولو تصورنا قيادة الأئمة الأحد عشر بعد علي والذي نصّ عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والذين امتدت حياتهم عبر ثلاثة قرون لما بقي الأرض ديار لغير المسلمين ولكانت الأرض اليوم على غير ما نشاهده ولكانت إنسانية بمعناها الحقيقي»[1].

وقد بايعت كل الأمصار الإمام الحسن عليه السلام بالخلافة بعد أبيه عدا الشام وضواحيها.

وكان الإمام علي عليه السلام قد أسند قيادة الجيش قبل استشهاده إلى قيس بن سعد الذي كان مُصراً على محاربة معاوية إلا أن الحسن عليه السلام أدرك أن العراقيين سوف يخذلونه ويتآمرون عليه لو أقدم بالمسير إلى قتال معاوية كما خذلوا أبيه من قبل.

وبالفعل هاجموه في المدائن عندما قام أحدهم وطعنه بخنجر مسموم في رجله وأخذوا يراسلون معاوية بالقول إن شئت لسلمناك الحسن مكتوفاً لذا فإن الحسن عليه السلام أدرك حجم المؤامرة وضعف القوم الذين يبدون له الرضا في الظاهرو ويضمرون له الشر في الباطن.

ففكر بالهدنة كي يتمكّن من جمع الرجال ممّن تكون قلوبهم مع آل محمد صلى الله عليه وآله وسلم وليس عليهم كما أراد أن يكشف للجميع حقيقة معاوية، وبالفعل بموقفه الشجاع كشف الزيف والدجل المخبأ في تاريخ الذين ذهبوا إلى مدح

---

(١) لأكون مع الصادقين، ص ١٠٤.

معاوية ووصفه بصفات ليست له، كما أن الذين ذكروا بأن الإمام الحسن قد تنازل عن الخلافة لمعاوية قد وقعوا في خطأ كبير، وفي تيه شاسع بعيد عن الإيمان ومعرفة الحق.

فكيف للحسن عليه السلام أن يصالح فاسقاً مثل معاوية ويسلّمه الإمامة والخلافة.

بل كانت هدنة أراد بها المزيد من الوقت لبناء جيشه ويعيد الثقة لأصحابه بإمكانية هزيمة هذا المتملّق المتحجج بالقرآن والسُّنة كذباً وافتراءً وكان من أهم شروط الهدنة التي وقّعها دعوة معاوية ليطبّق ما في الكتاب والسُّنة بصدق وأن يترك المسلمين بأمان دون ملاحقة خصوصاً كفه عن ملاحقة وقتل شيعة الإمام علي عليه السلام ورفع السبّ عنه بعد أن اتّخذه الأمويون سُنّة يدعون الناس لها.

وأن لا يعهد بالخلافة من بعده.

ولم يطبق معاوية أو يلتزم بأي شرط من تلك الشروط بعد أن استشهد الإمام الحسن عليه السلام بالسم الذي دسته له زوجته جعدة بنت الأشعث لتكون مدة خلافته بعد أبيه لستة أشهر فقط ويبدأ عصر أول ملوك العرب بعد انهيار دولة الخلافة الراشدية وقال في تلك المعاهدة أو الهدنة.. إني جعلتها تحت قدمي وهذا ليس غريباً عن معاوية وأخلاقه.

الفصل الرابع

دولة الخلافة الأموية

★ خلافة معاوية بن أبي سفيان (٤١ ــ ٦٠ هـ/٦٦١ ــ ٦٧٩ م)

شاءت الأقدار أن يصبح معاوية رجل الدولة الإسلامية الأول حيث انتقلت إليه الخلافة بالسيف دون الشورى ليبدأ معه العصر الأموي أو الخلافة الأموية. وأنكر كل العهود والشروط بينه وبين الحسن بن علي، فبدأ أولاً بملاحقة شيعة الإمام علي عليه السلام وأخذ بقتلهم الواحد تلو الآخر ويصادر أملاكهم ويشرّد عيالاتهم ويطاردهم بين الأمصار. أما أنصاره فقد أخذ يغدق عليهم بالعطاء فقرّب منه الدهاة من العرب كالمغيرة وابن زياد وعمرو بن العاص وكل أقربائه وأبعد كل من له سابقة أو مكانة في الإسلام.

وللأسف لا زال من يقول بإمامته ويؤيد ما اقترفت يداه من جرائم، فقد تفنن في التنكيل والتمثيل بالمسلمين الذين كانوا شيعة لعلي فكم أحرق بالنار وكم دفن أحياء وكم صلب على جذوع النخل ومن الفنون التي ابتكرها وزيره عمرو بن العاص أنه مثّل بمحمد بن أبي بكر حيث ألبسه جلد حمار وقذف به في النار فهل هؤلاء المجرمون هم الأسوة الحسنة التي يجب أن نقتدي بها؟ فلا حول ولا قوة إلاّ بالله. فانظر إلى ما يقترفه أتباعهم اليوم من جرائم يعجز عن تصديقها العقل!!

«والحقيقة أن إقدام معاوية على لعن الإمام علي عليه السلام والطعن على صاحب الرسالة صلى الله عليه وآله كان من قبيل الانتقام لما كشفهم رسول الله صلى الله عليه وآله بداية البعثة وحذّر منهم وطردهم ولعنهم شرّ لعنة فقد أخرج الطبري في تاريخه: قال: رأىٰ النبي صلى الله عليه وآله أبا سفيان مقبلاً على حمار ومعاوية يقود به ويزيد ابنه يسوق به فقال: «لعن الله القائد والراكب والسائق»[1].

وعن أبي ذر الغفاري قال لمعاوية: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول وقد مررت به: اللهم ألعنه ولا تشبعه إلاّ بالتراب[2].

وغيرها من الأحاديث التي لعنهم فيها رسول الله صلى الله عليه وآله مليئة في كتب التاريخ.

«وعن ابن عباس قال: كنت ألعب مع الصبيان فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله فتواريت خلف باب. قال فجاء فحطأني حطأة وقال: اذهب وادع لي معاوية. قال: فجئت فقلت هو يأكل، قال: ثم قال لي اذهب فادع لي معاوية. قال: فجئت فقلت هو يأكل فقال: لا أشبع الله بطنه»[3].

★ خلافة يزيد بن معاوية (٦٠ ــ ٦٤ هـ/٦٧٩ ــ ٦٨٣ م)

بعد موت معاوية عهد بالخلافة لابنه يزيد في سنة ٦٠ هـ وكان قد بويع له في حياة أبيه ليكون ولياً للعهد من بعده ثم أكّد البيعة لنفسه بعد موت والده. والذي أنفذ أمره إلى ابن زياد لقتل الإمام الحسين بن علي عليه السلام حيث دارت معركة عظيمة عرفت بأعظم ملحمة جهادية في التاريخ سطرها الإمام الحسين عليه السلام في مقارعة جيش الخليفة اللاشرعي في كربلاء صبيحة العاشر

---

(١) تاريخ الطبري ج ١١ ص ٣٥٧.
(٢) مسند أحمد ج ٤ ص ٤٢١ ولسان العرب ج ٧ ص ٤٠٤.
(٣) صحيح مسلم ج ٨ ص ٢٧.

من محرم سنة ٦١ عليه السلام والتي أسفرت عن استشهاد الإمام الحسين عليه السلام وجميع أولاده عدا ابنه علي زين العابدين الذي كان على فراش المرض لم يكن يستطيع الحركة من شدّة مرضه، كما قتل جميع «من كان معه من بني هاشم ومناصريهم بعد أن قاتلوا بشجاعة منقطعة النظير، وحزّ رأس الحسين ورؤوس جميع قتلى كربلاء من أنصاره وحملت إلى ابن زياد إذ جاءت كندة بـ ١٣ رأساً وصاحبهم قيس بن الأشعث وجاءت هوازن بعشرين. . . وهكذا غيرها حتى بلغ عدد الرؤوس أكثر من سبعين. وأرسل ابن زياد رأس الحسين مع نسائه سبايا إلى يزيد، فسلّم الرأس إلى زينب أخت الحسين وردّ النساء إلى العراق، وجرى دفن الرأس والجسد في كربلاء وقد أحدث استشهاد الحسين أثراً عميقاً في نفوس المسلمين بوصفه سبط الرسول ولا سيما في نفوس الشيعة بحيث يصحّ القول إن الدعوة الشيعية قد أخذت منطلقها العنيف من ذلك اليوم واتّسمت حروبهم للأمويين بطابع الثأر لدمه»[1].

وفي الحقيقة نحن نرى عكس ما ذهب إليه صاحب هذا الرأي، لأن الشيعة ومنذ قيام الفتنة الكبرى في بيعة السقيفة لم تلجأ إلى العنف إلاّ دفاعاً عن النفس ولم تكن ذات منطلق عنيف في أي يوم من الأيام، بل كانت دائماً تدعو إلى السلم والتآلف والرجوع إلى العقل والمنطق والحوار وتنبذ العنف وتستنكر كل الجرائم التي كانت تجري بحقهم وكان هذا المبدأ منطلقاً من وصايا أئمتهم(عليهم السلام). وقد شهد عصر يزيد أحداثاً مؤلمة كثيرة إلا أن مقتل الحسين عليه السلام كان له الصدى العميق والمؤثر في نفوس المسلمين عامة، وكانت العامل الأهم في نهضة السخط والبغض لبني أُمية وهيأت الأرضية المناسبة لإعلان الثورة على يزيد في المدينة مما أعطى ذلك الفرصة من

---

(١) تاريخ العرب والإسلام، ص ١٤٣.

جديد ليزيد وهذه المدة أنفذ أوامره إلى قائد جيشه مسلم بن عقبة بدخول المدينة وإباحتها لجنده ثلاثة أيام كاملة[1].

وكان القتل نصيب العشرات من صحابة الرسول ﷺ وأبنائهم فقد قتل عشرة آلاف من خيرة المسلمين سوى النساء والصبيان.

وأثناء توجهه إلى مكة أنزل الله به مرضاً في الطريق كانت فيه أجله فعهد القيادة إلى الحصين بن نمير السكوني الذي حاصر مكة أربعة وستين يوماً قذف خلالها الكعبة بالمنجنيق فتصدّعت بعض أركانها واحترقت أستارها وخشبها ولم يطل الحصار طويلاً حتى جاء يزيد الموت ليتخلّص العباد من ظلمه وشرّه، فكم أدهش الأمة بأفعاله المزدرية التي شوّهت الإسلام ومعالمه النبيلة، والعجب أن تخرج اليوم طائفة من المسلمين وتكفر مَنْ لا يعتقد بخلافة معاوية وابنه يزيد ولا يقبلون في الأمر أي نقاش أو مجادلة، ونأسف حقاً لما وصلت إليه أحوال الأمة بابتلائها بمثل هؤلاء الذين أولوا العزم على التعصب ونكران الحق، فعلى الدنيا العفا.

ونحن نرى من يعترف بإمامة يزيد بن معاوية الذي عرف فسقه الخاص والعام من المسلمين ويكفي خسة وسقوطاً ما أجمع عليه المسلمون من إباحته المدينة المنوّرة لجيشه وجنده يفعلون فيها ما يشاؤون لأخذ البيعة له بالقهر على أنهم عبيد، فقتلوا عشرة آلاف من خيرة الصحابة والتابعين وهتكوا فيها أعراض المحصنات من النساء والفتيات المسلمات حتى ولدن

---

(١) زحف مسلم بجيشه كما أشار عليه عبد الملك بن مروان ونفذ الخطة التي رسمها له الأمويين الذين تمّ طردهم من المدينة عقب الثورة فوصل إلى الحرة شمالي شرق المدينة وهي أرض صخرية بركانية فخرج إليه أهل المدينة بقيادة عبد الله بن حنظلة واشتبكوا مع جند الخليفة في معركة شديدة انتهت بهزيمة أهل المدينة، وقتل عدد كبير من بني هاشم وقريش والأنصار، وسميت هذه المعركة باسم «الحرة».

من سفاح ما لا يُحصي عدده إلاّ الله ويكفيه عاراً وخزياً مدى الدهر قتله سيد شباب أهل الجنة وسبيه بنات الرسول»[1].

★ خلافة معاوية الثاني بن يزيد (٦٤ هـ/٦٨٣ م)

تولى الخلافة بعد يزيد ابنه معاوية الثاني في ١٥ ربيع الأول سنة ٦٤هـ.

وكان هذا زاهداً تقياً، وجاء في كتاب اليعقوبي[2] ما يشير إلى ذلك على أنه كان تقياً ورعاً زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة وأنه كان يعترف لآل علي بحق تولّي الخلافة وبأن جدّه معاوية الأول قد نازع أهله ومن هو أحقّ به منه وأنه كان يرثي لوالده كونه غير أهل للخلافة التي تقلّدها، وكونه قتل عترة الرسول واستباح حرمة الحرم المكّي وضرب الكعبة. وسرعان ما توفي معاوية الثاني في ظروف غامضة، تؤكد المصادر التاريخية أن بني أمية تخلّصوا منه بعد أن تبرأ من أفعاله أبوه وجده وتنازله عن الخلافة للعلويين وعمّت الفوضى في الأمصار وظهرت الفتن وانقسم الناس فيما بينهم من جديد، بعضهم كان يريد مبايعة عبد الله بن الزبير وبعضهم كان يريدها للأمويين وكان هناك أيضاً من يريدها للعلويين.

فثارت العصبية القبلية من جديد في نفوس العرب واشتكت القبائل القيسية واليمنية ودبّت الفتنة الهوجاء بينهما.

★ خلافة مروان بن الحكم (٦٤ ــ ٦٥ هـ/٦٨٣ ــ ٦٨٤ م)

تمكّن مروان بن الحكم سنة ٦٤ ـ ٦٥ هـ من السيطرة على الأوضاع وجعل الأمر له بعد الانتصار في معركة مرج راهط حيث حققت اليمنية انتصاراً على القيسية والأمويين على الزبير وخضعت جميع المناطق التي

---

(١) فاسألوا أهل الذكر، ص ١٦.

(٢) اليعقوبي.

كانت تحت نفوذ القيسية للأمويين رغماً عن أنف الذين لم يرغبوا به وبخلافة بني أُمية، فعن أبي سعيد الخدري قال: كان رسول الله ﷺ يخرج يوم الفطر والأضحى إلى المصلّى فأول شيء يبدأ به الصلاة ثم بعد ذلك يعظ الناس فلم يزل الناس على ذلك حتى خرجت مع مروان وهو أمير المدينة في أضحى أو فطر فأراد أن يرتقي المنبر قبل أن يصلّي فجذبته بثوبه فجذبني فأرتفع فخطب قبل الصلاة فقلت له: غيّرتم والله فقال: أبا سعيد قد ذهب ما تعلم فقلت: ما أعلم والله خير مما لا أعلم فقال: إن الناس لم يكونوا يجلسون لنا بعد الصلاة فجعلتها قبل الصلاة»[1].

ومروان هذا قد أسره الإمام علي عليه السلام في معركة الجمل ثم أطلق سراحه وهو من الذين بايعوا ونكثوا البيعة وقد قال فيه: «لا حاجة لي في بيعته إنها كف يهودية، لو بايعني بكفه لغدر بسبته، إما أن له إمرة كلعقة الكلب أنفه وهو ابن الأكبش الأربعة وستلقىٰ الأمة منه ومن ولده يوماً أحمر»[2].

وقد مات مروان بن الحكم خنقاً على يد (فاختة) أرملة يزيد سنة ٦٥ هـ. وأخذت الفتنة من حياة الناس مأخذاً وقد عمّت أرجاء الدولة بكل مفاصلها.

★ خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ ــ ٨٦ هـ/٦٨٤ ــ ٧٠٥ م)

وما إن مات مروان حتى تولّى الخلافة من بعده ابنه عبد الملك وكان الأمويون عندما عقدوا مؤتمر الجابية لمبايعة مروان بن الحكم قد اتفقوا على أن يخلفه خالد بن يزيد بن معاوية ثم سعيد بن العاص من بعده غير أن مروان نقض ذلك الوعد وعهد بالخلافة لابنه عبد الملك ومن بعده ابنه عبد العزيز، على العموم لم يكن عبد الملك يختلف عن أبيه كثيراً في سياسته، إلا أن

---

(١) صحيح البخاري، ص ٢ ص ٤.
(٢) نهج البلاغة، ص ١٧٦، اسألوا أهل الذكر، ص ١٦٨.

أهمّ الأحداث التي وقعت في زمنه هو قيام حركة المختار بن عبيد الله الثقفي في العراق الذي تعهّد على أخذ ثأر الحسين عليه السلام وسبق أن أعلن سليمان بن صرد الخزاعي وأنصار له من الشيعة بإعلان التوبة عن خذلان الإمام الحسين عليه السلام في ثورته على يزيد بن معاوية وتعاهدوا جميعاً على الأخذ بثأره عند قبره وتسمّوا (بالتوّابين).

وكان مروان بن الحكم قد أرسل لهم جيشاً بقيادة ابن زياد لم يتمكّن من إلحاق الهزيمة بابن صرد زعيم الحركة ثم دارت معركة بين الطرفين في «عين الوردة» من جديد وهذه المرة استلم القيادة الحصين بن نمير بدلاً عن ابن زياد والذي نجح في هزيمة التوابين وقتل سليمان بن صرد.

إلا أن المختار قد نجح في جمع الموالين له من بقية التوّابين بعد مقتل زعيمهم وتبنّى بإخلاص شديد فكرة الثأر لدم الحسين عليه السلام، فقد تمكّن من ملاحقة كل من شارك في قتل الحسين واحداً واحداً وقتلهم شر قتلة ولا سيما عمر بن سعد وشمر بن ذي الجوشن كما قتل أكثر من مئتين وخمسين رجلاً اشتركوا في قتل الحسين وآله على أثر النصر الذي حققه على ابن زياد في معركة الخاذر عام ٦٧ هـ.

وهي المعركة التي قتل فيها عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير وكانت السبب في زيادة قوة الشيعة في الكوفة لا سيما بعد هذا الانتصار الذي حققه المختار وقائد جيشه إبراهيم بن مالك الأشتر. واستمر المختار الثقفي في قتاله للأمويين والحزب الزبيري الذي أخذ يسعى بقوة لأخذ السلطة. فدارت معركة كبيرة بين المختار وجيش مصعب بن الزبير وانتهت بمقتل المختار سنة ٦٧ هـ ليصبح الأمر لابن الزبير في العراق، والفتنة لا زالت مشتعلة في دمشق على الخلافة. تعج بين القبائل العربية التي لا زال يشغلها أمر النزاع على السلطة.

استطاع عبد الملك بن مروان بحنكته السياسية أن يحرص على التوازن بين القبائل دون أن يكون لأحدها السيادة على الأخرى، فقد كان انشغاله بمصعب بن الزبير أكثر من النزاعات القبلية، فالأول من الممكن له أن يقوّض حكم الخلافة الأموية بعد أن فرض سيطرته على البصرة والحجاز، أما الكوفة فكانت مع عبد الملك كرهاً في الزبير الذي قتل المختار، فقرر عبد الملك التوجّه إلى قتال مصعب بنفسه سنة ٧٢ هـ ويباشر الحر بنفسه حتى تمكن من هزيمة جيش مصعب وقتله هو وابنه عيسى في تلك المعركة الحاسمة قرب دير الجثالقة بين «مسكن وباجميرا» سنة ٧١ هـ وما إن استتب الأمر لعبد الملك حتى ولى الحجاج على أهل العراق الذي ما إن تولاّها حتى هددهم ووصمهم بأهل الشقاق والنفاق منداداً بأعمالهم العدوانية ضد الأمويين وبميلهم إلى الفتن والثورات، وقد جاء في قوله لهم: يا أهل العراق يا أهل الشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق، إن الشيطان قد باض وفرّخ في صدوركم ودبّ ودرج في جحوركم، فأنتم له دين وهو لكم قرين» ثم هددهم بضرب أعناقهم قائلاً: «إني أرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها وأني لصاحبها، وكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحىٰ» لذا فقد عرف عن الحجاج بغلاظته وشدة بطشه وجبروته فلم يخلص من شرّه أحد لا علوي ولا زبيري ولا خارجي وقد قدم للأمويين كثيراً، فقد دانت البلاد وخمدت كل حركة لعبد الملك بفضل بطش الحجاج.

«وعاث في الأرض فساداً وقتل من شيعة أهل البيت آلاف الأبرياء ومثّل بهم فكان يقطع الأيدي والأرجل ويسمل الأعين ويخرج الألسن من القفا ويصلب الأحياء»[1] حتى يعترفوا بالخمس فهل من الممكن أن نجعله أسوة حسنة ونقتدي به اليوم.

---

(١) الإمام علي من المهد إلى اللحد ـ للقزويني، ص ٣٤٥.

«روي في منتخب التواريخ أن الحجاج بن يوسف نبش في النجف آلاف القبور يفتش عن جثمان علي عليه السلام ولكنه لم يعثر عليه فقد أراد من نبش القبر التنكيل بالجثمان وحرقه ـ لعنه الله. وظل قبر الإمام مخفياً عن الناس كما أوصىٰ به لا يعرف مكانه إلا أولاده وأخصّاءه من الشيعة إلى أيام هارون الرشيد».

قال عبد الله بن حازم: خرجنا مع الرشيد من الكوفة نتصيّد فصرنا إلى ناحية الغري، فرأينا ظبيات، فأرسلنا إليها الصقور والكلاب، فحاولتها ساعة، ثم لجأت الظباء إلى الأكمة فسقطت عليها، فسقطت الصقور والكلاب فتعجّب الرشيد من ذلك ثم إن الظباء هبطت من الأكمة، فتراجعت عنها الكلاب والصقور ففعلت ذلك ثلاثة، فقال هارون: اركضوا فمن لقيتموه ائتوني به؟ فأتيناه بشيخ من بني أسد، فقال هارون ما هذه الأكمة؟ قال: إن جعلت لي الأمان أخبرتك؟ قال: لك عهد الله وميثاقه أن لا أهجيك ولا أؤذيك. قال الشيخ: حدّثني أبي عن أبيه أنهم كانوا يقولون: هذه الأكمة قبر علي بن أبي طالب عليه السلام جعله الله حرماً لا يأوي إليه أحد إلاّ أمن. فأمر هارون ببناء القبّة على القبر ومن ذلك اليوم لم يزل البناء في تطوّر وهو الآن صرح بديع متلألىء يقصده ملايين الناس من شرق الأرض وغربها، وكذلك الوفود والسوّاح من المسلمين»[1].

★ خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ ــ ٩٦ هـ/٧٠٥ ــ ٧١٤ م)

ثم تولّى الخلافة من بعد عبد الملك ابنه الوليد سنة ٨٦ هـ. وكان شديداً مع أهل العراق لعلمه بأهلها على أنهم من الناقمين وغير الملزمين بالطاعة للأمويين الذين تجاهروا بشرب الخمر والزنى واللهو والقتل والصلب

---

(١) الإمام علي من المهد إلى اللحد ـ للقزويني، ص ٣٤٦.

وغيرها من الموبقات ووصل الأمر بالوليد أنه مزّق كتاب الله وهو يقول: إذا لقيت ربك يوم حشر فقل يا رب مزّقني الوليد.

★ خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ هـ/٧١٤ م)

وبعد موته تولى سليمان الخلافة سنة ٩٦ هـ والواقع أن وجود عمر بن عبد العزيز في بلاط الخلافة آنذاك بصفته مستشاراً للدولة قد عمل على كبح جماح قسوة الحجاج وبطشه بأهل العراق إلى حدّ ما حتى نجح في عزله واستقدامه إلى دمشق وخلّص أهل العراق ولو لفترة قليلة من جبروت الحجاج وظلمه.

ولما دنا أجل سليمان تقدّم منه وهو على فراش الموت كل من رجاء بن حرة ومكحول الشامي وابن شهاب الزهري، وكانوا من العلماء الصالحين الذين قرّبهم سليمان وجعل لهم المكانة المميزة في البلاد وأقنعوه بأن يجعل الخلافة من بعده لابن عمه عمر بن عبد العزيز بدلاً من أخيه يزيد الذي لم يكن محمود السيرة أو ابنه أيوب فقبل شرط أن تكون من بعد عمر ليزيد.

★ خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ــ ١٠١ هـ/٧١٧ ــ ٧١٩م)

لما حمل رجاء بن حرة الوصية إلى الناس وأطلعهم عليها استبشروا بها خيراً ورحّبوا بخلافة عمر.

وفي الحقيقة إن أكثر الناس استبشاراً بخلافة عمر هم أهل العراق والحجاز والمدينة ومكة فقد لاقوا ما لاقوه من ظلم الأمويين خصوصاً شيعة العراق حيث ارتاحوا زمناً من الملاحقات والاعتقالات العشوائية والقتل على الظن والموالاة وكان عمر قد أعلن منذ تولّيه قراراً بالإمساك عن شتم الإمام علي عليه السلام وآل بيت النبي صلى الله عليه وآله من على المنابر وأوصىٰ بإحقاق الحق

ونصرة المظلوم وإلغاء الأوامر التي توجب القتل أو الصلب أو قطع اليد أو الرجل قبل مراجعته، وبذلك أوقف التجاوزات الرعناء التي كان يقترفها أزلام الدولة الأموية بحق شيعة آل محمد ﷺ وقتلهم بحجّة الروافض أو التمرّد وغيرها.

والسياسة التي اتّبعها عمر هي لينة نسبياً خلافاً لما سلكه الحجاج بالتأكيد.

وقد اكتسب عمر رضىٰ أهل العراق والأمصار الإسلامية الأخرى لا سيما بسبب استخدامه سياسة إرجاع الحقوق المسلوبة لأصحابها وردّ المظالم... ولم يتهاون عمر بن عبد العزيز في إرجاع حقوق العلويين التي اغتصبت زمن الأمويين التي بدأت بعصر معاوية الأول. ولم يتردد في إنزال العقاب بمن يخالف تلك الأوامر.

«واتفقت كلمة المحدثين والمؤرخين على بداية جمع الحديث والتدوين في عهد عمر بن عبد العزيز (رض) أو بعده بقليل. فقد نقل البخاري في صحيحه في كتاب العلم باب كيف يقبض العلم قال: وكتب عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم، انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه فإني خفتُ دروس العلم وذهاب العلماء ولا يقبلُ إلاّ حديث النبي ﷺ وليفشوا العلم وليجلسوا حتى يعلم من لا يعلمُ فإن العلم لا يهلك حتى يكون سرّاً.

إن الباحث إذا ما قرأ كتب التاريخ وأحاط ببعض الخلفيات التي توخّتها حكومة الخلفاء الثلاثة علم عِلمَ اليقين بأنهم هم الذين منعوا من كتابة الحديث النبوي الشريف وتدوينه بل منعوا حتى التحدّث به ونقله إلى الناس لأنهم بلا شك علموا بأنه لا يخدم مصالحهم أو على الأقل يتعارض

ويتناقض مع الكثير من أحكامهم وما تأولوه حسب اجتهاداتهم وما اقتضته مصالحهم»[1].

وحسبنا أن ذلك يروى في الصحاح.

تلك السياسة العادلة التي انتهجها عمر في زمن خلافته لم تعجب البيت الأموي، فراحت تتحين الفرصة لتنحيته إلى أن تمكّنوا من اغتياله بالسُّم، الأمر الذي مهّد لانهيار الدولة إلى مهاوي السقوط. لقد كانت فترة خلافته فترة التقاط الأنفاس وجمع الكلمة والدفع بالتي هي أحسن.

★ خلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١ ــ ١٠٥ هـ/٧١٩ ــ ٧٢٣ م)

فجاء عهد يزيد بن عبد الملك سنة ١٠١ هـ حيث اتسم عهده بالظلم والجور والطغيان والإرهاب فرجع العراقيون من جديد إلى أيام المعاناة التي تعرّضوا لها أيام الحجاج وسبحان الله أن يزيد هذا كان كثير الشبه بجده يزيد الأول فقد ورث عنه الاستهتار والانصراف إلى اللهو والعبث والمجون وعدم الاهتمام بشؤون الدولة والولع بالجواري وغيرها من الأمور التي أثارت سخط الناس عليه وأهم الأحداث التي ظهرت في عهده وكان لها أثراً في زعزعة كيان الدولة الأموية ثورة يزيد بن المهلب بن أبي صفرة.

★ خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ــ ١٢٥ هـ/٧٢٣ ــ ٧٤٢ م)

لم تدم خلافته طويلاً إذ توفي سنة ١٠٥ هـ. فخلفه أخوه هشام بن عبد الملك الذي حصل في عهده اضطرابات كثيرة منها ثورة البربر بزعامة الخوارج في شمال أفريقيا وثار الأقباط في مصر سنة ١٠٧ هـ كما نشبت الفتنة من جديد بين العرب وتفاقم النزاع القبلي واستشرت بين القيسيين

---

(١) فاسألوا أهل الذكر، ص ٢٠٠.

واليمنيين كما ظهرت حركات الموالي الفرس. وكان معروفاً عن هشام صرامته وشدّته مع العلويين وكان كثير السخط عليهم فقد ورث الظلم والجبروت وعداوة أهل البيت من الأمويين فلم ينفكك من جوره لشيعة علي عليه السلام.

★ خلافة الوليد بن يزيد الثاني (١٢٥ هـ/٧٢٣ م)

وبعد موت هشام بن عبد الملك تولّى الخلافة الوليد بن يزيد الثاني سنة ١٢٥ هـ. الذي عرف عنه إقباله على اللهو والعبث والمجون والخلاعة والاستهتار وشرب الخمور كما اتّهم بالفسق والزندقة والخروج عن الدين وفي عهده نشبت ثورة الزعيم الشيعي يحيى بن زيد بن علي بن زين العابدين الذي كان قد ثار في عهد هشام وقتل سنة ١٢٢ هـ وقام عامل الوليد الثاني في خراسان بالقبض عليه وقتله، أثار مقتله استياء الشيعة فقام على أثر ذلك أبو مسلم الخراساني مطالباً بالثأر لآل محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد استهتر الوليد الثاني بكل الناس حتى وصل الأمر أنه أدار بظهره لبني أُمية حتى تزعم يزيد الثالث ابن الوليد الأول الثورة عليه حيث سار بطليعة جيش من العراق والشام فاحتلّ دمشق وأخذ البيعة لنفسه من أهلها. ثم بعث جيشاً إلى الأغدف حيث يقيم الوليد الثاني فدخل عليه رجاله وقتلوه سنة ١٢٧ هـ.

غير أن خلافته لم تدم أكثر من ستة أشهر.

وخلفه أخوه إبراهيم سنة ١٢٧ هـ الذي سرعان ما انقلبت عليه الأمور واندلعت ضده ثورة مروان بن محمد عامل الجزيرة وأرمينيا ومروان هذا يعتبر شيخ بني أُمية آنذاك وقد تمّت مبايعته في دمشق سنة ١٢٧ هـ.

واندلعت في عهده العديد من الثورات والقلاقل وكان سخط الأمصار

على بني أُمية قد بلغ حده الأعظم، فثارت بلاد الشام والعراق واليمن والحجاز فضلاً عن خراسان، ليستولي على الخلافة بني العباس بعد أن استخدموا اسم آل البيت وحركات التشيع لإزاحة الأمويين حتى أن الاضطهاد الاجتماعي الذي تعرّض له الشيعة خلال حكم الأسرة العباسية كانت لا تقلّ شراسة وقسوة من حكم الأسرة الأموية وكان الهدف المشترك بين الدولتين هو العداء والبغض لآل محمد ﷺ.

ويمكننا القول بأن العدالة الاجتماعية والاقتصادية وحتى السياسية لم تتحقق للشيعة في ظل العباسيين الذين كانوا امتداداً لنظام الحكم الأموي خصوصاً في استخدام التمييز في المعاملة.

فالشيعة ما لبثوا أن تخلصوا من ظلم واضطهاد الأمويين حتى وقعوا في ظلم وجبروت العباسيين.

ولو رجعنا إلى الأسباب الحقيقية التي أدّت إلى سقوط مروان بن محمد الأموي لوجدنا أن في طليعتها التعصب القومي للعرب الذين رأوا في مروان باعتباره من أم كردية خليفة غير شرعي خصوصاً أهل الشام حيث رفضوا الاعتراف بخلافته بل حتى البيت الأموي نفسه رفض تأييده لذلك فإن فشل مروان بن محمد لم يكن جراء نقص في الكفاءة السياسية أو العسكرية أو حتى الإدارية وإنما لكونه أصبح ضحية التعصّب القبلي والقومي التي كانت سائدة بقوة آنذاك ولا زالت.

فتلك النظرة التعصبية التي وقع العرب تحت تأثيرها كان لها الأثر المباشر في سقوط الدولة الأموية فانظر إلى المؤرخين الذين ينظرون إلى سقوط الدولة الأموية تحت شعار الدعوة لآل بيت محمد ﷺ على أنها لم تكن سوى مظهر من مظاهر الثورة الفارسية على العرب بل وحتى يقللون من

أهميتها كونها جاءت تحت يافطة التشيع لآل محمد ﷺ رغم أنها أزاحت أعتىٰ دولة ظالمة في التاريخ. دون أن نستثني بعدها الدولة العباسية بالطبع التي قد يرى الكثيرون أنها الأكثر دموية وشراسة في قمع المتشيعين لآل محمد ﷺ على الرغم من مناداتهم باسم الدعوة لآل محمد ﷺ للوصول إلى المسك بمقاليد السلطة والمناخ السياسي للخلافة.

كما أن قضية العصبية الإقليمية بين الشام والعراق وتصاعد الفتنة والتباغض والحسد والمؤامرات في أجوائها فضلاً عن وجودها أيضاً ما بين الجزيرة العربية والعراق وبين أهل الشام والجزيرة وبين هذه البلاد مجتمعة ومصر دفعت بالاتجاه العصبية الإقليمية رغم أن ما يجمعهم هو الدين الإسلامي.

كما تجاوزت تلك العصبية مداها لتصل بين العرب عموماً وبلاد خراسان وما ورائها مضافاً إليها الصراع المذهبي تحديداً في عهد الدولتين الأموية والعباسية خصوصاً بعد ازدياد التشيع بالدعوة لآل محمد ﷺ.

فقد كان طبيعياً أن تثور نقمة أهل العراق ضد الأمويين ومن ثم العباسيين لوجود الكثير من الموالين لآل البيت والمحبين للخليفة المظلوم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لتتصدر قائمة الاختلافات بين المسلمين التي زرعتها الفتنة الأولى أيام السقيفة لظهور العصبية المذهبية ليصبح الصراع المذهبي الأكثر حدة وخطورة من العصبية الإقليمية والقومية ولا زلنا نشهد ذلك التأثير من خلال قيام جماعات إسلامية متطرفة في البلاد العربية من أنصار السقيفة إلى تكفير الشيعة، بل وتعتبرهم إحدى الفرق الغير مسلمة. وهذا بطبيعة الحال أحد الأعباء الثقيلة التي خلّفها لنا الأولون لتصبح واحدة من عوامل النقمة التي ورثناها من الخلافة الأموية والعباسية ثم العثمانية لاحقاً دون أن ننسىٰ فتنتها الأولى التي تأسست في السقيفة لتبقىٰ فكرة الثأر

ممن اغتصبوا هذا الحق من آل محمد ﷺ سارية فاعلة إلى قيام الساعة.

وفي الجانب الآخر الطرف الذي أصبح المعاند والمجسّد والمتلازم مع القضية الدينية والسياسية وفق طابع الشدّة والعنف والقتل لتبقىٰ جذور هذه المسألة راسخة في أعماق المسلمين ليشكّل مصدر قلق دائم وتداعٍ للأمة بأسرها.

والمتطرفون اليوم هم أنفسهم تلك الفرقة من الخوارج التي بغضت وحقدت على علي بن أبي طالب عليه السلام وشيعته وأخذت تغالي في الحكم على مخالفيهم في الرأي ولا زالوا كما كانوا فيما مضى تتجرع منهم الأمة ألوان الظلم والأسى.

إن الذين تتقرب قلوبهم من خلافة الذين كانوا أسوأ شاهد على الطغاة ممن حكموا المسلمين وجعلوها مُلكاً عضوضاً فما عليهم «إلا أن يتصفحوا تاريخ الأمويين والعباسيين وغيرهم حتى يعرفوا بأن من تسمىٰ أمير المؤمنين كان يتجاهر بشرب الخمر ويلاعب القردة ويلبسهم الذهب وأن أمير المؤمنين يُلبس جاريته لباسه لتصلي بالمسلمين وأن أمير المؤمنين تموت جاريته حبّابة فيسلبُ عقله وأن أمير المؤمنين يطرب لشاعر فيقبّل ذكَره. ولماذا نستغرق في هؤلاء الذين حكم المسلمون بأنهم لا يمثلون إلا الملك العضوض ولا يمثلون الخلافة وذلك للحديث الذي يروونه وهو قول الرسول ﷺ: «الخلافة من بعدي ثلاثون عاماً ثم تكون ملكاً عضوضاً»[1].

«من ذلك نستنتج رؤية منطقية تقودنا إلى القول بأن الخلاف بين الشيعة وأهل السُّنة نشأ يوم السقيفة، وتفاقم، وكل خلاف جاء بعده فهو عيال عليه، وأكبر دليل على ذلك أن العقائد التي يشنّع أهل السُّنة على إخوانهم

---

(١) لأكون مع الصادقين، ص ١١٣.

من الشيعة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بموضوع الخلافة وتتفرّع منه، كعدد الأئمة والنص على الإمام، والعصمة وعلم الأئمة والبراء والتقية والمهدي المنتظر وغير ذلك»[1].

أما عن قول الجهلة الذين يدّعون بأن الشيعة اتّبعوا علي بن أبي طالب أما أهل السُّنة فإنهم اتّبعوا رسول الله ﷺ؟ فهذا كلام سخيف يُراد به فرقة المسلمين وهو ابتداع يهودي أموي أرادوا به إثبات أن الإمام علي خالف رسول الله ﷺ ولكنهم فشلوا مهما طبلت وزمرت جلاوزتهم في الدعوة لذلك لأن علياً هو السُّنة والسُّنة هي علي فهو مفسرها والقائم عليها وحاميها ومؤيدها والمستشهد من أجلها وقد قال فيه رسول الله ﷺ: «علي مني بمنزلتي من ربي»[2].

فكل التهويل والتشنيع والشتم الذي قُبل به الشيعي حتى أصبح مسبّة أهل السُّنة والجماعة لأنه يخالفهم في معتقداتهم وخارج عن جماعتهم حتى صار ذلك شعاراً لهم كما كان يفعل معاوية عندما كان يشتم علياً على المنابر لثمانين عاماً فأتخذ ذلك سُنة واليوم نرى بأن هناك من يستند إلى هذه السنة فجاءت بدعة يُراد بها إظهار الباطل على الحق وبقيت عقائد الشيعة أصلاً ثابتاً في القرآن والسُّنة.

أما أغلب العلماء الذين دأبوا على الجري وراء الحكّام واستمالتهم بالفتاوى والتملّق طمعاً في ما عندهم من مال وجاه، وعمل هؤلاء دائماً على سياسة «فرّق تسُدْ» فلم يسمحوا لأحد بالاجتهاد وفتح ذلك الباب الذي أغلقه الحكّام في بداية القرن الثاني، معتمدين على ما يُثار هنا وهناك من

---

(١) لأكون مع الصادقين، ص ١٦٢.

(٢) الصواعق المحرقة لابن حجر ص ١٠٦، وذخائر العقبى ص ٦٤، والرياض النضرة ج ٢ ص ٢١٥، إحقاق الحق ج ٧ ص ٢١٧.

فتن وحروب بين السُّنة والشيعة وهي الأغلبية الساحقة والتي تمثل الأنظمة الحاكمة، والشيعة وهي الأقلية المنبوذة والتي تمثّل في نظرهم المعارضة الخطيرة التي يجب القضاء عليها. وبقي علماء السُّنة مشغولون بتلك اللعبة السياسية الماكرة في نقد وتكفير الشيعة والردّ على أدلتهم بكل فنون النقاش والمجادلة حتى كتبت في ذلك آلاف الكتب وقتلت آلاف النفوس البريئة وليس لها ذنب غير ولائها لعترة النبي ﷺ ورفضها للحكّام الذين ركبوا أعناق الأمة بالقوة والقهر...

والآن وقد ولّى عصر الظلمات وعصر الظلم الذي لم يظلم أحداً بقدر ما ظلم أهل البيت عترة الرسول ﷺ حتى لعنوا على المنابر وقتلوا وسبيت نساؤهم وبناتهم على مرأى ومسمع من كل المسلمين فقد حان الوقت لرفع المظلمة عن أهل البيت النبوي ورجوع الأمة إلى أحضانهم الدافئة التي ملئت رأفة ورحمة إلى حظيرتهم المُترعة التي مُلئت علماً وعملاً وإلى ظلّ شجرتهم الباسقة التي حازت فضلاً وشرفاً. فقد صلى عليهم الله وملائكته وأمر المسلمين بذلك في كل صلواتهم كما أمرهم بمودّتهم وموالاتهم»[1].

(١) فاسألوا أهل الذكر، ص ٣٤٠ ـ ٣٤٣.

الفصل الخامس

دولة الخلافة العباسية

سمّيت الدولة العباسية بهذا الاسم، نسبة إلى العباس عم الرسول، (فمؤسس الدولة العباسية وخليفتها الأول هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب عم رسول الله)، وقد اشتهر أبو العباس بأبي العباس السفاح.

★ كيف آلت الخلافة إلى العباسيين؟

عندما ضعفت الدولة الأموية، تطلّع الناس إلى رجل يعود بالأمة إلى الجادة والطريق الصحيح، يرفع عنهم الظلم، ويقيم فيهم العدل، ويرهب بهم الأعداء، فحسبوا أن أصلح الناس لهذا الأمر، رجل يكون من بني هاشم، فكتبوا في هذا الشأن إلى «أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب» أحد العلماء الثقات، وكان مقيماً بالشام قريباً من مركز الخلافة الأموية.. وما لبث أمر تلك المكاتبة أن وصل الخليفة الأموي «سليمان بن عبد الملك»، فخشي أبو هاشم على نفسه ـ وكانت قد تقدمت به السن ـ بطش الخليفة، فانتقل إلى «الحميمة» من أرض الشام؛ حيث يقيم عمه «عليّ السجَّاد بن عبد الله بن عباس»، وهناك حضرته منيته، فأوصى إلى «محمد بن علي بن عبد الله بن عباس» بما كان من أمر الناس معه، ودفع إليه

الكتب التي كتبوها إليه، وقال له: أنت صاحب هذا الأمر، وهو في ولدك. ثم مات، وكان ذلك في خلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩ هـ/ ٧١٨ م.

وأخذ محمد العباسي في تنفيذ ما أوصاه به أبو هاشم، فاتصل بالناس، واختار من بينهم دعاة يخرجون وينتشرون في ربوع الدولة الأموية، يشهّرون بها وينتقدون عيوبها، ويدعون إلى ضرورة أن يتولّى أمر الخلافة رجل من آل البيت قادر على أن يملأ الأرض عدلاً، ووجدت تلك الدعوة صدًى عند الناس ورواجاً.

ويموت محمد بن علي بن عبد الله بن عباس سنة ١٢٤ هـ/ ٧٤٢ م، بعدما أوصى ابنه إبراهيم الملقّب بالإمام بمواصلة المسيرة.

وتأخذ الدعوة العباسية عند إبراهيم الإمام صورة أخرى غير التي كانت عليها قبل ذلك، فهي لم تكن منظمة، أما الآن فقد صار لها نظام، وقادة معلومون، من أمثال أبي سلمة الخلال على الكوفة، وأبي مسلم الخراساني على خراسان.

وما تكاد سنة ١٢٩ هـ/ ٧٤٧ م، تقبل حتى يصدر أمر الإمام العباسي «إبراهيم بن محمد» أن يكون «أبو مسلم الخراساني» رئيساً للدعاة جميعاً في خراسان وما حولها، وكلَّفه أن يجهر بالدعوة للعباسيين علناً، وأن يعمل على جعل خراسان قاعدة للانطلاق بقواته ضد البيت الأموي[1].

★ مبايعة أبي العباس السفاح (١٣٢ هـ/٧٥٠ م)

وما إن غربت شمس الأمويين أشرقت شمس العباسيين، حيث تحققت الغلبة للعباسيين وأعلنوا قيام دولتهم ليمضي ذلك العهد ويقبل عهد جديد، وسيظل عام ١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م فاصلاً بين عهدين وتاريخاً لا يُنسى بدأت معها

---

(١) أنترنيت/ موسوعة الأسرة المسلمة.

عصر الخلافة العباسية والذين بلغ عدد خلفائها نحو سبعة وثلاثين خليفة تعاقبوا على التوالي حكم هذه الدولة التي طال عمرها واختلفت عصورها وامتدت حتى سنة ٦٥٦ هـ/ ١١٠٠ م حيث سقطت على أيدي التتار بعد أن تمكّن خلفاء بني العباس الاستئثار بالحكم ـ مائتا سنة، فكيف كانت بداية هذه الخلافة، وكيف كانت نهايتها؟

★ (العصر العباسي الأول) (١٣٢ ــ ٢٣٢ هـ/٧٥٠ ــ ٨٤٧ م)

تضمن هذا العصر عهوداً تسعة من خلفاء بني العباس حيث بدأ حكمهم بأبي العباس السفاح وانتهى بخلافة الواثق ٢٣٢ هـ/ ٨٤٧ م.

★ خلافة أبي العباس السفاح ١٣٢ ــ ١٣٦ هـ

بويع بالخلافة في ربيع الآخر من سنة ١٣٢ هـ، وهو أبو العباس عبد الله بن محمد، دامت خلافته أربع سنين وثمانية أشهر ويومين، وقد اشتهر بقسوة القلب ومناصبة ذرية آل أبي طالب العداء والبراءة وكانوا يُسمون أيامه بالطالبيين أو أولاد فاطمة وتمكّن السفاح من حكم البلاد بقوة الحديد والنار وكان عهده يفوح منه رائحة الدم.

★ خلافة أبي جعفر المنصور (١٣٦ ــ ١٥٨ هـ/٧٥٤ ــ ٧٧٥ م)

يعتبر أبو جعفر المنصور المؤسس الحقيقي لدولة بني العباس وإن تولى الخلافة بعد أخيه أبي العباس سنة ١٣٦ هـ فقد بذل جهوداً كبيرة لتدعيم الأسرة العباسية في الحكم. وهو أبو جعفرعبد الله بن محمد المنصور الذي استمرت ولايته اثنتين وعشرين سنة إلاّ تسعة أيام وقد كان جلّ همه كما هو حال باقي خلفاء بني العباس الذين سنذكرهم من بعده قصد الشهوات وركوب اللذات وحكم البلاد بقوة الحديد والنار والاستخفاف بحقوق العباد

وسلب حق ذرية آل محمد ﷺ والدعوة إلى مطاردتهم والتضييق عليهم وحبسهم وقتلهم صبراً، فألبس الله بنو العباس الذلّ بذنوبهم كما ألبس من قبلهم بنو أمية، وعاشت بغداد والكوفة والبصرة في عهدهم مسرحاً دامياً للرعب والقتل والصلب والتهجير والحبس بحق شيعة علي بلا ذنب. فكل مسلسل الرعب في العراق يتقلّب في مدنه كأجوائه المتقلبة من حرارة إلى برد ومن سكون إلى رياح عاتية ومن صحو إلى مطر وبرق ورعد. فكل شيء فيها بات لا يمكن التنبؤ فيه أو السيطرة عليه، فأيام العراق أصبحت مليئة بالظلم والتعسّف حتى تكاد المصادر التاريخية تجمع على أن تاريخ بغداد والكوفة والبصرة قد زيّنته الكثير من الملاحم والفتن والمؤامرات والحروب التي واكبت حكم غالبية القائمين بأمر الحكم والإدارة، وقد عاصرت تلك الأحداث الدامية زمن الإمامين العسكريين على وجه الخصوص الهادي والحسن العسكري عليهما السلام إشارة إلى موضوع بحثنا لنفهم حقيقة الأسرار التي مهّدت لإقدام أعداء الأمة الإسلامية على هدم المرقدين الشريفين للإمامين العسكريين في سامراء عندما ضربت صاعقة التفجيرات الإجرامية القبّتين اللتين كانتا تمثلان قضية الإمام المهدي المنتظر حيث يمثّل ظهوره الأمل العظيم لشيعة آل محمد ﷺ وقد شكّل ذلك الاعتداء الآثم خطاً بيانياً ابتدأ يتصاعد من بيعة السقيفة في المدينة إلى أن بلغ ذروته في التحدّي السافر في معاداة البيت النبوي وأنصارهم وشيعتهم باستهداف مرقدي الإمامين الطاهرين في سامراء.

وتوالت الثورات على المنصور إلا أن أخطر هذه الثورات خروج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي وكان من أشراف بني هاشم علماً ومكانة. وكان يلقّب بـ «النفس الزكية» فاجتمع العلويون والعباسيون معاً وبايعوه أواخر الدولة الأموية وكان من المبايعين المنصور نفسه فلما

تولّى الخلافة لم يكن إلا طلب محمد هذا خشية مطالبته بطاعة هؤلاء الذين بايعوه من قبل، فخرج محمد «النفس الزكية» بالمدينة سنة ١٤٥ هـ/ ٧٦٣ م وبويع له في كثير من الأمصار وخرج أخوه إبراهيم بالبصرة واجتمع معه كثير من الفقهاء وغلب أتباعه على فارس وواسط والكوفة وشارك في هذه الثورة كثير من الأتباع من كل الطوائف.

فاضطر المنصور أن يبعث إلى محمد «النفس الزكية» يعرض عليه الأمن والأمان له ولأولاده وإخوته مع توفير ما يلزم له من المال بغية استمالته وإخماد ثورته وتشتيت الموالين له، وردّ عليه محمد بأن على المنصور نفسه أن يدخل في طاعته إلى أن وصلت الأمور إلى المواجهة العسكرية بين الطرفين واستطاعت جيوش أبي جعفر أن تتمكن من «النفس الزكية» بالمدينة وتقتله وتقضي على أتباع أخيه إبراهيم في قرية قريبة من الكوفة وتقتله.

قال المسعودي في مروج الذهب: «وفي زمن المنصور ظهر محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب (رض) بالمدينة وكان يعرف باسم «النفس الزكية» لزهده ونسكه وكان قد بويع له في كثير من الأمصار إلا أنه كان مستخفياً من المنصور لعلمه ببطشه ولم يظهر حتى قبض المنصور على أبيه عبد الله بن الحسن وعمومته وكثير من أهله وعدتهم، ولما ظهر محمد بالمدينة دعا المنصور إسحاق بن مسلم العقيلي وكان شيخاً ذا رأي وتجربة فقال له: أشر عليَّ في خارجي خرجَ عليَّ، قال صف لي الرجل، قال: رجل من فاطمة بنت رسول الله ﷺ ذو علم وزهد وورع قال: فمن تبعه!

قال: ولد علي وولد جعفر وعقيل وولد عمر بن الخطاب وولد الزبير بن عوام وسائر قريش وأولاد الأنصار، قال له: صف لي البلد الذي قام به، قال: بلد ليس به زرع ولا ضرع ولا تجارة واسعة، ففكر ساعة ثم قال: اشحن يا أمير المؤمنين البصرة بالرجال. فقال المنصور في نفسه: قد خرفَ

الرجل، أسأله عن خارجي خرج بالمدينة يقول لي اشحن البصرة بالرجال، فقال له انصرف يا شيخ، ثم لم يكن إلاّ يسيراً حتى ورد الخبر أن إبراهيم قد ظهر بالبصرة. فقال المنصور: عليَّ بالعقيلي، فلما دخل عليه أدناه ثم قال له: إني كنت قد شاورتك في أمر خارجي خرج بالمدينة فأشرت عليَّ أن أشحن البصرة بالرجال أوَ كان عندك من البصرة علم! قال: لا، ولكن ذكرت لي خروج رجل إذا خرج مثله لم يتخلّف عنه أحد، ثم ذكرت لي البلد الذي هو فيه فإذا هو ضيّق لا يحتمل الجيوش، فقلت: إنه رجل سيطلب غير موضعه، ففكرت في مصر فوجدتها مضبوطة، والشام والكوفة كذلك وفكرت بالبصرة فخفت عليها منه لخلوّها فأشرت بشحنها، فقال له المنصور: أحسنت، وقد خرج بها أخوه فما الرأي في صاحب المدينة! قال: ترميه بمثله، إذا قال أنا ابن رسول الله ﷺ قال هذا. وأنا ابن عم رسول الله ﷺ فقال المنصور لعيسى بن موسى: إما أن تخرج إليه وأقيم أنا أمدك بالجيوش وإما أن تكفيني ما أخلفُ ورائي وأخرج أنا إليه، فقال عيسى: بل أقيك بنفسي يا أمير المؤمنين وأكون الذي يخرج إليه، فأخرجه إليه من الكوفة في أربعة آلاف فارس وألفي راجل، وأتبعه محمد بن قحطبة في جيش كثيف، فقاتلوا محمداً بالمدينة حتى قتل وهو ابن خمس وأربعين سنة، ولما اتصل بإبراهيم قتل أخيه محمد بن عبد الله وهو بالبصرة صعد المنبر فنعاه... وتفرّق إخوة محمد بن عبد الله في البلاد، فتوجّه ابنه علي بن محمد إلى مصر فقتل بها، وسار ابنه عبد الله إلى خراسان فهرب لما طلب إلى السند فقتل هناك. وسار ابنه الحسن إلى اليمن، فحبس فمات في الحبس، وسار أخوه موسى إلى الجزيرة ومضى أخوه يحيى إلى الري ثم إلى طبرستان فكان من خبره في أيام الرشيد... فيقتل أيضاً.

ومضى أخوه إدريس بن عبد الله إلى المغرب فأجابه خلق من الناس

وبعث المنصور من اغتاله بالسم، فيما احتوى عليه من مدن المغرب وقام ولده إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن مقامه، فعرف البلد بهم، فقيل بلد إدريس بن إدريس.

ومضى إبراهيم أخوه إلى البصرة وظهر بها، فأجابه أهل فارس والأهواز وغيرهما من الأمصار، وسار من البصرة في عساكر كثيرة من الزيدية وجماعة ممن يذهب إلى قول البغداديين من المعتزلة وغيرهم، ومعه عيسى بن زيد بن علي بن الحسن بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهم) فسيَّر إليه المنصور عيسى بن موسى وسعيد بن مسلم في عساكر، فحارب حتى قتل في الموضع المعروف بباخُمرىٰ وذلك على ستة عشر فرسخاً من الكوفة من أرض الطف.

وجاء في مروج الذهب ذكر (. . . أن المنصور هيئت له عجة من مخ وسكر فاستطابها. فقال: أراد إبراهيم أن يحرمني هذا وأشباهه).

وذكر أن المنصور قال يوماً لجلسائه بعد قتل محمد وإبراهيم: تالله ما رأيت رجلاً أنصح من الحجاج لبني مروان، فقام المسيب بن زهير الضبي فقال: يا أمير المؤمنين ما سبقنا الحجاج بأمر تخلّفنا عنه، والله ما خلق الله على جديد الأرض خلقاً أعزّ علينا من نبينا ﷺ وقد أمرتنا بقتل أولاده فأطعناك وفعلنا ذلك. فهل نصَحناك أم لا؟ فقال له المنصور: اجلس لا جلست.

وأضاف المسعودي. . . أنه كان قُبض على عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي (رضي الله عنه) ومحمد وإبراهيم ابني عبد الله وعلى كثير من أهل بيته، وذلك سنة أربع وأربعين ومائة في منصرفه من الحج، فحملوا من المدينة إلى الربذة من جادة العراق، وكان ممّن حمله مع عبد الله بن الحسن إبراهيم بن الحسن بن الحسن، وأبو بكر بن الحسن بن الحسن، وعلي بن

الخير، وأخوه العباس، وعبد الله بن الحسن بن الحسن، والحسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن ومعهم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان أخو عبد الله بن الحسن بن الحسن لأمه فاطمة ابنة الحسين بن علي، وجدتهما فاطمة بنت رسول الله ﷺ فجرّد المنصور بالربذة محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان فضربه ألف سوط، وسأله عن ابني أخيه محمد وإبراهيم، فأنكر أن يعرف مكانهما.

وارتحل المنصور عن الربذة وهو في قبة، وأوهن القوم بالجهد فحملوا على المحامل المكشوفة، فمر بهم المنصور في قبته على الجمازة فصاح به عبد الله بن الحسن: يا أبا جعفر ما هكذا فعلنا بكم يوم بدر، فصيّرهم إلى الكوفة وحبسوا في سرداب تحت الأرض لا يفرقون بين ضياء النهار وسواد الليل حتى ماتوا وذلك على شاطىء الفرات بالقرب من قنطرة الكوفة ومواضعهم بالكوفة تزار في هذا الوقت.

وكان قد هدم عليهم الموضع وكانوا يتوضؤون في مواضعهم فاشتدّت عليهم الرائحة، فاحتال بعض مواليهم، حتى أدخل إليهم شيئاً من الغالية فكانوا يدفعون بشمها تلك الروائح المنتنة، وكان الورم يبدو في أقدامهم فلا يزال يرتفع حتى بلغ الفؤاد فيموت صاحبه. وذكر في وجه آخر أنهم حبسوا في هذا الموضع أشكل عليهم أوقات الصلاة فجزؤوا القرآن خمسة أجزاء، فكانوا يصلّون الصلاة على فراغ كل واحد منهم من حزبه، وكان عدد من بقي منهم خمسة، فمات إسماعيل بن الحسن، فترك عندهم حتى جيَّف فصعف دواد بن الحسن فمات، وأتي برأس إبراهيم بن عبد الله فوجّه به المنصور مع الربيع إليهم، فوضع الرأس بين أيديهم وعبد الله يصلي فقال له إدريس أخوه: أسرع في صلاتك يا أبا محمد، فالتفت إليه وأخذ الرأس فوضعه في حجره وقال له: أهلاً وسهلاً يا أبا القاسم، والله لقد كنت ـ ما

علمتُك ـ من الذي قال الله عزّ وجلّ فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾[1].

فقال له الربيع: كيف أبو القاسم في نفسه؟ قال: كما قال الشاعر:

فتى كان يحميه من الذلّ سيفه ويكفيه أن يأتي الذنوب اجتنابها

ثم التفت إلى الربيع فقال له: قل لصاحبك قد مضى من بؤسنا أيام، ومن نعيمك أيام، والملتقىٰ يوم القيامة، قال الربيع: فما رأيت المنصور قطّ أشد انكساراً منه في الوقت الذي بلّغته فيه هذه الرسالة. لقد كان المنصور أشدّ خلفاء بني العباس بل وبني أُمية أيضاً سفكاً للدماء فما كان الناس يرجون أيامه إلاّ الخلاص من شره وبطشه بالعباد لكثرة ولعه بالقتل خصوصاً لأولاد رسول الله ﷺ وشيعتهم. فقد كان يشدد عليهم جم غضبه حتى قتل منهم عدد غير قليل.

وفي أعيان الشيعة: ١/ ٢٨:

«وفعل المنصور ببني الحسن السبط الأفاعيل فحملهم من المدينة إلى الهاشمية بالعراق مقيدين مغللين وحبسهم في سجن لا يعرفون فيه الليل من النهار، وإذا مات منهم واحد تركه معهم، ثم هدم السجن عليهم»[2].

وتشير المصادر التاريخية إلى أن عبد الله بن علي لم تنقذه القرابة من بطش المنصور وهو عمه. فقد أمر المنصور بحبسه تسع سنين ثم أمر بعد لك بقتله حيث قام بخنقه حتى مات ومدّه على الفراش وأخذ بيد جارية كانت معه فخنقها هي الأخرى ووضعها على فراش عمه، حيث أدخلت يديها

---

(١) سورة الرعد، الآيتان: ٢٠ ـ ٢١.

(٢) راجع مروج الذهب: ٣/ ٢٩٩ وابن الأثير: ٥/ ٥٥١.

تحت جنبه ويده تحت جنبها كالمعتنقين ثم أمر المنصو بالبيت فهدم عليهما وأمر بإحضار القاضي ابن علاثة وغيره فنظروا إلى عبد الله والجارية معتنقين على تلك الحال. . . حيث أراد أن يشغل الناس بصورة الزنى التي دبّرها لعمه عن الجريمة الحقيقية التي ارتكبها بقتله مع جاريته بشكل فظيع، هذه هي شاكلة الرجال الذين تسلّطوا على رقاب المسلمين، يعيثون بالأرض ظلماً وفساداً وجوراً كأبي العباس السفاح وأبو جعفر المنصور وغيرهم ممن أفسدوا الخلافة الإسلامية وهم كمن سبقوهم ومن أتى بعدهم لاحقاً ينهون عن الحق ويأمرون بالباطل حتى اشتدّ الأمر على المسلمين في بلادهم يرجون الخلاص لما أنزل بهم من بؤس وشقاء على أيامهم.

وجاء في أخبار الرضا عليه السلام: ٢/ ١٠٢:

«لما بنى المنصور الأبنية ببغداد جعل يطلب العلوية طلباً شديداً ويجعل من ظفر منهم في الأسطوانات المجوّفة المبنية من الجص والآجر! فظفر ذات يوم بغلام منهم حسن الوجه عليه شعر أسود من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب، فسلّمه إلى البناء الذي كان يبني له وأمره أن يجعله في جوف أسطوانة ويبني عليه، ووكل عليه من ثقاته من يراعي ذلك حتى يجعله في جوف أسطوانة بمشهده، فجعله البنّاء في جوف أسطوانة فدخلته رقة عليه ورحمة له فترك الأسطوانة فرجة يدخل منها الروح فقال للغلام: لا بأس عليك فاصبر فإني سأخرجك من جوف هذه الأسطوانة إذا جنّ الليل، فلما جنّ الليل جاء البناء في ظلمة فأخرج ذلك العلوي من جوف تلك الأسطوانة وقال له: اتّق الله في دمي ودم الفعلة الذين معي وغيّب شخصك، فإني إنما أخرجتك ظلمة هذه الليلة من جوف الأسطوانة لأني خفت إن تركتك في جوفها أن يكون جدك رسول الله صلى الله عليه وآله يوم القيامة خصمي بين يدي الله عزّ وجل.

وذكر المسعودي في وفاة المنصور (. . . وحدَّث الفضل بن ربيع قال:

كنت مع المنصور في السفر الذي مات فيه فنزل منزلاً من المنازل، فبعث إليّ وهو في قبة ووجهه إلى الحائط، فقال لي:

ألم أنهك أن تدع العامة يدخلون هذه المنازل فيكتبون فيها ما لا خير فيه؟ قلت: وما هو يا أمير المؤمنين؟ قال: أما ترى على الحائط مكتوباً:

أبا جعفر حانت وفاتك، وانقضت ... سنوك، وأمر الله لا بد نازلُ

أبا جعفر، هل كاهن أو مُنجم ... يردُّ قضاء الله، أم أنت جاهلُ

قال: قلت والله ما أرى على الحائط شيئاً، وإنه لنقي أبيض قال: الله؟ قلت: الله، قال: إنها والله إذاً نفسي نعيت إلى الرحيل، بادر بيَّ إلى حرم ربي وأمنهِ هارباً من ذنوبي وإسرافي على نفسي، فرحلنا وقد ثقل، حتى بلغنا بئر ميمون، قلت له هذه بئر ميمون وقد دخلت الحرم، قال: الحمد لله، فتوفي بها.

لقد اعترف المنصور بذنوبه التي تجاوزت كل حدّ وبإسرافه على ملذاته وشهواته التي بعدته عن الله. فقد كان المنصور قاسياً شديداً ظالماً قد تجاوز ظلمه كل وصف وكان من انحطاط نفسه يعطي الحقير ويمنع الفقير، يذلّ العابد ويكرّم الفاجر، قاتل ذرية رسول الله ﷺ والأصحاب الطاهرين.

ثم يأتي من يقول إن المنصور كان حريصاً على إقامة العدل متأسياً في ذلك بما كان يفعل الخليفة الثاني عمر بن الخطاب. والأحداث والوقائع التي تضمّنتها حياته لا تدلّ على أنه كان بالفعل يبدي اهتماماً بالعدل خاصة وأن عهده كان من أشد العهود التي مرّت على آل بيت محمد ﷺ ظلماً.

وللأسف نجد مَنْ يزيّن سيرته في كتب التاريخ، ويكتب عنه مضللاً الناس بأن المنصور قد كان يلبس الخشن ويرقع القميص ورعاً وزهداً وتقوى، ولم يُر في بيته أبداً لهو ولعب أو ما يشبه اللهو واللعب وأنه كان

لازم الحدود زاهد عن الدنيا مصلح لدينه ولم يتجاوز أمر الله وكان يحكم بما أمر به الله في محكم القرآن وأن العدل كان أساسه ملكه.

والحق لم يكن المنصور إلا من الذين مشوا في ظلمة الباطل ورجح قبيح باطنه في كل ما عمله وقد كشف عن خبث سريرته وفساد نيّته فأحلّ العقوبات وأباح الدماء في حكمه وشقّ عصا الطاعة لله ورسوله ومنع الحق ومسك نفسه عن الإيمان متأسياً بالجبارين والطغاة.

★ خلافة المهدي (١٥٨ ــ ١٦٩ هـ/٧٧٥ ــ ٧٨٦ م)

ويأتي محمد المهدي بعد أبيه بعد أن بايعه الناس بالخلافة، وكانت خلافته عشر سنين وشهراً وخمسة عشر يوماً، سار فيها على نهج أبيه المنصور.

إلا أن المصادر التاريخية تشير إلى أن المهدي أشاع عهداً من السلام بينه وبين العلويين وسار على الخطة التي وضعها له أبوه ومهما يكن من أمر فإن ما فعله المهدي لم يكن ليصلح عورات وقبائح أبيه المنصور في ظلمه لآل بيت محمد ﷺ وشيعتهم وما تكاد سنة ١٦٩ هـ/ ٧٨٦ م تقبل حتى توفي المهدي وله من العمر ثلاث وأربعون سنة.

★ خلافة موسى الهادي (١٦٩ ــ ١٧٠ هـ/٧٨٦ ــ ٧٨٧ م)

بويع له بالخلافة وهو ابن أربع وعشرين سنة وثلاثة أشهر سنة ١٦٩ للهجرة، ودامت خلافته ما يقارب على سنة وثلاثة أشهر وعلى الرغم من أن مدة خلافته كانت قصيرة إلا أنها كانت مليئة بظلم العلويين «وكان يكنى أبا جعفر وقد أتته البيعة وهو ببلاد طبرستان وجرجان في حرب كانت هناك، فركب البريد، وأخذ له أخوه هارون الرشيد البيعة»[1].

فعلى الرغم من أن الفترة التي حكمها الأمويون مليئة بالخلفاء الذين لم

---

(١) مروج الذهب ـ للمسعودي، ص ٢٣٥.

يختلفوا في منهجهم وسياستهم التعسفية تجاه أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم إلا أننا نلتمس من بينهم بعض ممن عرفوا بحسن السيرة والأخلاق واعترفوا بمظلومية أهل البيت عليهم السلام وأعطوهم حتى ولو كان جزءاً يسيراً من حقوقهم التي تم اغتصابها من قبل أزلام بني أُمية كمعاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان الذي اعتزل الخلافة لأنها ليست شرعية وهي من حق العلويين وقد تم تشييدها على دماء الطاهرين من آل محمد صلى الله عليه وآله، وكانت مدة بقائه ثلاثة أشهر واثنين وعشرين يوماً.

كما ظهر الخليفة عمر بن عبد العزيز أيام بني مروان بن الحكم والذي دامت خلافته سنتين وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً وقد عرف بعدله، حتى أن الكثير من المصادر الإسلامية أعدّته خامس الخلفاء الراشدين.

وكان من أهم الأعمال التي قام بها في زمن خلافته النهي عن سب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام من على المنابر والتي اتخذت في عهد الأمويين سُنة استمرت زهاء ثمانين سنة بينما لم نجد من بني العباس من يعترف بمظلومية آل محمد صلى الله عليه وآله وشيعتهم بل نالوا ما نالوه من قسوة وشدة وتضييق وقتل حتى امتلأت سجونهم بكل من يوالي أهل البيت عليهم السلام وبات المسلم في عهدهم يخشى على حياته من الظن والفتنة فالموت كان مصير كل من يذكر علياً وأولاده.

وقد عرف عن الهادي أنه قوي البأس قاسي القلب غليظ الأخلاق لا يقلّ ظلماً وبطشاً عن أبيه.

ذكر المسعودي... أن في أيام الهادي ظهر الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (رض) وهو المقتول (بفخ) ولم يوارَ لثلاثة أيام حتى أكلته السباع والطير. كما أُسر في ذلك اليوم سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (رض) وضربت رقبته

بمكة صبراً، وقتل معه عبد الله بن إسحاق بن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (رض)، وأُسر الحسن بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي وضرب عنقه صبراً، وأخذ لعبد الله بن الحسن بن علي والحسين بن علي الأمان، فحبسا عند جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك وقتلا بعد ذلك.

★ خلافة هارون الرشيد (١٧٠ ــ ١٩٣ هـ/٧٨٨ ــ ٨١٠ م)

بويع هارون الرشيد بن المهدي بعد وفاة الهادي فكانت ولايته ثلاثاً وعشرين سنة وستة أشهر، وقد ولي الخلافة وهو ابن إحدى وعشرين سنة وشهرين. ومات بطوس بقرية يقال لها سناباذ وهو ابن أربع وأربعين سنة وعلى الرغم من أن الرشيد قد دامت ولايته لفترة طويلة لم يتجاوزه في مدة الحكم إلاّ المقتدر بالله الذي دامت خلافته أربعاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً وستة عشر يوماً ورغم البقاء والزيادة في العمر أيام دولته إلا أنه تعذّر عليه الدراية بكتاب الله وعترة رسول الله ﷺ فقد أظهر التاريخ عنه مأخذاً كبيراً في ظلمه وقهره لأولاد رسول الله ﷺ وشيعتهم ففي الوقت الذي ازدهرت فيه بغداد على أيامه في البنيان والعمران والعلم والمعرفة واقتناء الجاريات والغلمان إلا أن الرشيد لم يكن رشيداً في تعامله مع العلويين ولم يطهّر قلبه من الحقد والغلظة وشأنه في ذلك شأن من سبقه من بني العباس في التضييق على أولاد علي وزجّهم في السجون ومطاردتهم في الأمصار حتى أنه كان لا يتذرّع عن إباحة قتلهم وقتل من يأتي بسيرتهم أو يتشيع لهم حتى وصل به الأمر أن يختار الركوب بعيداً عن قصر الخلافة لملاحقة الإمام الرضا عليه السلام في طوس.

وأمر بدس السم لمحمد بن جعفر بن يحيى بن عبد الله بن الحس بن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام في بلاد المغرب.

عندما رأى اجتماع الناس إليه وظهر فيهم بعدل وحسن استقامة، فمات على أثر ذلك فيما جاء من خبر دسّ السم له.

كما أمر بحبس الإمام موسى بن جعفر (الكاظم) إلى أن مات مسموماً في سجنه ببغداد بعد أن دُسّ السم له بأمر من هارون.

وجاء في عيون أخبار الرضا عليه السلام: ١/ ١٧٢:

(وكان الجلودي في خلافة الرشيد، لما خرج محمد بن جعفر بن محمد بالمدينة بعثه الرشيد وأمره إن ظفر به أن يضرب عنقه وأن يغير على دور آل أبي طالب وأن يسلب نساءهم ولا يدع على واحدة منهن إلاّ ثوباً واحداً! ففعل الجلودي ذلك، وقد كان مضى أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام فصار الجلودي إلى باب دار أبي الحسن الرضا عليه السلام، هجم على داره مع خيله، فلما نظر إليه الرضا جعل النساء كلهن في بيت، ووقف على باب البيت فقال الجلودي لأبي الحسن: لا بد من أن أدخل البيت فأسلبهن كما أمرني أمير المؤمنين! (يقصد هارون الرشيد)! فقال الرضا عليه السلام: أنا أسلبهن لك وأحلف أني لا أدع عليهن شيئاً إلا أخذته! فلم يزل يطلب إليه ويحلف له حتى سكن، فدخل أبو الحسن الرضا عليه السلام فلم يدع عليهن شيئاً حتى أقراطهن وخلاخيلهن وأزرهن إلا أخذه منهن، وجميع ما كان في الدار من قليل وكثير)!

★ خلافة الأمين (١٩٣ ــ ١٩٨ هـ/٨٠٩ ــ ٨١٤ م)

بويع محمد الأمين بالخلافة بعد وفاة أبيه هارون الرشيد سنة ١٧٠ هـ/ ٧٨٧ م ببغداد. وكانت مدة خلافته أربع سنين وستة أشهر وقد حصل صراع بينه وبين أخيه المأمون من أجل الخلافة انتهى بمقتله سنة ١٩٨ هـ وانفراد المأمون بالحكم.

إن انقسام رجال الدولة بين الأمين والمأمون واضح بجلاء منذ أواخر

أيام الرشيد، وبعد وفاته مباشرة سنة ١٩٣ هـ تمّت البيعة للأمين في بغداد، وبويع المأمون بخراسان[١]. وهناك روايات وإشارات عديدة أوردها الطبري تؤكد أن البيعة للمأمون بالخلافة لم تأت بعد مخالفة الأمين المزعومة لعهد والده الرشيد وتسمية ابنه موسى ولياً للعهد، بل جاءت والرشيد على فراش الموت من قبل الحسين بن مصعب. (والد طاهر قائد جيش المأمون فيما بعد وسفاح بغداد ـ والذي سيكون له دوراً كبيراً في سيطرة المأمون على الخلافة تماماً).

وقد بايع المأمون على الخلافة أحدُ الذين أرسلهم الأمين في وفده لخراسان سنة ١٩٤ هـ وهو العباس بن موسى بن عيسى الذي أصبح بعد ذلك عين المأمون في بغداد[٢].

إن تناحر المصالح الذي اكتسى عند الفضل بن الربيع طابع صراع النفوذ تحت سلطة الخليفة العباسي والحكم العربي الإسلامي قد كان عند آل سهل غطاء حاولوا أن يستروا به مسعاهم الشعوبي زمناً، لكن تطور الصراع كشف ما حاولوا إخفاءه وهكذا برزت ـ أكثر ـ النزعة الفارسية التي كان مغلوبة على أمرها في عهد الأمويين[٣]، فقد تنفّست الصعداء منذ الانقلاب العباسي بل لقد أُبرزت على الرغم من كل مظاهر التساوي التي عرفت في عصر العباسيين. فالفضل بن سهل استطاع بدهائه أن يقنع المأمون بعدم العودة إلى بغداد بدعوى أن الأمين سيفتك به بعد أن كاد يلبّي دعوة أخيه ويقبل عروضه.

لقد وقف بعض القادة وآلاف الجند من الأبناء مع الأمين، ووقف

---

(١) نساء الخلفاء ـ لابن الساعي، ص ٧٧.

(٢) العبد ـ لابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٥٧، م ٣ قسم ٣ ص ٤٩٤.

(٣) ضحى الإسلام ـ لأحمد أمين ١/ ٢٤. الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي د .عبده بدوي، ١٩٧٣، ص ١٣٠.

بعض القادة العرب مع المأمون لكن ذلك لا ينفي وجود حركة شعوبية ضد الحكم العربي الإسلامي، ولكنه يشير إلى تداخل الأسباب والمصالح وتشابكها وتعقدها، إن تمثّل روح الإسلام قد عصم كثيرين من الوقوع في شراك الشعوبية التي قويت في نفوس آخرين كان همهم أن يكيدوا للعرب ودينهم معاً. ففي إسلام الفضل بن سهل سنة ١٩٠ هـ وقد بلغ سن الرجل ما يدعو للريبة والتساؤل، وفي إشهاره لإسلامه على يد المأمون ما يزيد الشكوك بالأمر. وسرعان ما توضّحت تلك الشكوك في الخطة المدبرة والفتنة التي كانت نكبة بغداد ثمرتها المباشرة. إن ما جرى يمثل في جانب منه استمراراً لمسعى البرامكة ورداً على تصفية الرشيد لهم. والمأمون الذي سكت على ذلك من خلال صراعه على مركز الخلافة مع أخيه الأمين سرعان ما حاول التخلّص من الفضل بن سهل ومن طاهر بن الحسين معاً عندما تطورت الأحداث إلى درجة كشفت ما كان مخبأً.

وبالفعل نجح الفضل بن سهل في إشعال نار الفتنة عندما أخذ البيعة للمأمون سراً وخلع أخاه الأمين سنة ١٩٥ هـ، ليعلن المأمون خلافته بشكل علني ويسيِّر المأمون جيشاً بقيادة طاهر بن الحسن الذي يتوجّه من حلوان[١] إلى الأهواز[٢] ومنها إلى المدائن[٣] فصرصر[٤] وكثير من الولاة والعمّال يخلعون الأمين ويبايعون المأمون.

وفي سنة ١٩٦ هـ نزل طاهر باب الأنبار بقوّاده وأجناده والمستأمنين من

---

(١) حلوان: في آخر حدود السواد في العراق ـ معجم البلدان لياقوت.

(٢) الأهواز: اسم للكورة، والبلد الذي يغلب عليه هذا الاسم هو سوق الأهواز. معجم البلدان لياقوت.

(٣) المدائن: جنوب بغداد في منطقة متوسطة ما بين مصب الفرات في دجلة. معجم البلدان لياقوت.

(٤) صرصر: قريتان من سواد بغداد سفلى وعليا على ضفة نهر عيسى. معجم البلدان لياقوت.

جند الأمين الذين لجؤوا إلى جيش الطاهر، وأصابت الرجة بغداد فنقب السجناء سجونهم وفتن الناس ووثب الدعار والشطار[1] على أهل الصلاح ـ حسب وصف الطبري.

وساءت حال الناس وخربت الديار وأحرقت وانتهبت الأموال، وغلت الأسعار وقاتل الأخ أخاه والابن أباه. لتختلط الأمور في بغداد لا يعرف الحق من الباطل ولا الباطل من الحق حتى ضمن العابثون والفاسدون لهم مكاناً ببغداد يجولون فيها كيفما يشاؤون وما أشبه الأمس باليوم، هكذا عندما استحكمت قبضة الشر على بغداد أيام الاحتلال الأمريكي كيف حلّت الفتنة فيها فانقلبت القيم وكان أرذال القوم وفسّاقهم بالمجتمع البغدادي وانتهت الحال بأن ذهب حُسن بغداد ومجالها وخربت ديارها وأسواقها وقصورها وسكت حكماؤها وهجر ناسها إلى ديار الغربة في وضع مأساوي حزين. إن وجه المقارنة بين العهدين نجد فيهما عمق المأساة التي اصطبغت بالدماء. فالحصار الذي ضربه الطاهر على بغداد قد تعزّز واستمر خلال سنة ١٩٧ هـ يعاونه هرثمة بن أعين[2] وزهير بن المسيّب الضبي[3]. وهُيئت كافة الاستحكامات، فحفرت الخنادق وأقيمت الأسوار ونصبت المناجيق والعرادات[4].

وبينما كان جند الأمين ينازلون جيش طاهر بن الحسين كان جند

---

(١) الدعار: الداعر: الفاسد الفاسق. الشطار: الشاطر: الخبيث الفاجر.

(٢) هرثمة بن أعين: قائد رشيدي مشهور. كان أعرج ولكنه كان كالعقاب على ظهر الخيل، قتله المأمون بدسائس الفضل بن سهل سنة ٢٠٠ هـ أو ٢٠١ هـ. البرصان والعرجان للجاحظ ص ١٩.

(٣) زهير بن المسيب الضبي: أحد القادة في العصر العباسي، كان مع المأمون وقتل سنة ٢٠١ هـ في الفتنة التي قامت ببغداد ضد الحسن بن سهل، تاريخ الطبري: حوادث سنة ٢٠١ هـ.

(٤) العرادة: أصغر من المنجنيق. شرح ديوان الحماسة للتبريزي ٤/ ١٨٢.

زهير بن المسيب يرمون الناس بالخطارات ويجبون السفن ويعشرون أموال التجار.

★ وقائع الحربية والأحياء المجاورة:

حتى حلت بالناس المصائب جرّاء قصف المناجيق الذي لم يرحم أحداً منهم. والمصيبة الكبرى عندما أمر الأمين برمي بغداد من جهة الحربية بالنفط والنيران والمجانيق لما رأى ضغط طاهر بن الحسين عليها وإمكانية فرض سيطرته عليها. فما كان أمام الأمين إلاّ اللجوء إلى استخدام أسلوب الأرض المحروقة حتى أخذ الدمار لا يفرق بين مقبل أو مدبر، عدو أو نصير، فكان أكثر الضحايا من الأبرياء والنساء اللواتي أخرجهن الحريق سافرات فكان الموت مستقبلاً لهن في الطرقات.

فكان النصر لجيش الطاهر فدخل الحربية وطريق دار الرقيق[1] وباب الشام ووكّل وكلاءه على الأمكنة والأحياء والدروب، ورغم أن هجومه كان عنيفاً إلا أن المقاومة التي أبداها جيش الأمين كان يقابلها بالعنف الشديد أيضاً، فكثر جرّاء ذلك الهدم والخراب.

وفي محاولة لإيقاف زحف الطاهر وجيشه بالقرب من قصر صالح وما والاه إلى قصور دجلة كان أنصار محمد الأمين بقيادة علي أفراهمرد[2] يهدمون الدور ويرمونها هي والدروب بالمجانيق والعرادات.

وكذلك كان يفعل طاهر وأنصاره بالدروب التي لا تستسلم لهم حتى أوحشت بغداد وخاف الناس أن تتحول إلى خراب جراء ما لحق بها من مصائب القتل والتهديم.

---

(١) دار الرقيق: محلة ببغداد (شارع دار الرقيق). معجم البلدان لياقوت.

(٢) علي أفراهمرد: من قادة العامة الذين تصدروا المعارك كما يُستفاد من وصف وقائع بغداد.

وفي ذلك يقول الوراق العنزي قصيدته[1] المسماة الجامعة الحزينة التي يصف بها بغداد وأهلها وما حلّ بهم وكيف أصبحوا:

من ذا أصابك يا بغداد بالعين ... ألم تكوني زمناً قُرةَ العينِ
ألم يكن فيك قوم كان مسكنهم ... وكان قربُهم زيناً من الزينِ؟
. . أستودعُ الله قوماً ما ذكرتُهم ... إلا تحدّر ماءُ العين من عيني
يا من يخرّبُ بغداداً ليعمرها ... أهلكت نفسك ما بين الطريقينِ
كانت قلوب جميع الناس واحدةً ... عيناً وليس لكون العين كالدّينِ
لما أَشتهم فرقتهم فِرقاً ... والناسُ طُراً جميعاً بين قلبينِ

ويصفها الحسين[2] الخليع وهو من أنصار الأمين لما رأى ما حلّ ببغداد وخشيته من ضياعها:

أتسرع الرجّلة إغذاذاً ... عن جانبي بغداد أم ماذا؟
. . . وانتفضت بغدادُ عمرانها ... عن رأي لا ذاك ولا هذا
ما أحسن الحالاتِ إن لم تَعُد ... بغدادُ في القلةِ بغداذا[3]

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٤٤٧، ٥٠٠ (حوادث سنتي ١٩٧، ١٩٨ هـ) مروج الذهب ٣/ ٤١٢. البداية والنهاية للقرشي ١٠/ ٢٣٨. أخبار أبي القاسم الزجاجي، ت: د. عبد الحسين المبارك، منشورات وزارة الثقافة العراقية، ١٩٨٠، ص ١٩٤ (وقد نسبها بعضهم لمحمد بن عبد الرحمن العطوي)، عدّتها (١١) بيتاً.

(٢) هو الحسين بن الضحاك بن ياسر مولى لباهلة وقيل باهلي صليبة يلقّب بالخليع والأشقر. لحق بصديقه أبي نواس إلى بغداد أيام الرشيد وأصبح نديم الخلفاء من الأمين وحتى المنتصر أو المستعين. وكان عاضد الأمين خلال النكبة ١٣٠ ورثاه أحر الرثاء، وأوجعه.

(٣) أ ـ ورد اسم بغداد في تاريخ الطبري، بعد التحقيق، وفي كل الأبيات: بغداذ، والوجه الصحيح أن تكون كذلك في نهاية البيت الأخير فقط حتى يستقيم المعنىٰ، إذ المقصود أن الشاعر يخاف أن تتحوّل المدينة إلى عطية صنم، وهو معنىٰ بغداذ، أي إلى خراب. القلّة: النهضة من علة أو سفر. القلة: ضد الكثرة.
ب ـ يرى جامع أشعار الخليع أن البيت الأخير لا يتّضح معناه على ما في الأصول،

لقد كانت انتصارات قائد جيش المأمون الطاهر تتوالى وتسقط أمامه دورب بغداد وأزقّتها تباعاً، أما الأحياء التي قاومته ولم تكن قد سقطت بيده كأسواق الكرخ والخلد ومدينة أبي جعفر الشرقية فقد سمّاها (دار النكث).

وغالبية خنادق المقاومة في أحياء الكرخ التي تسكنها غالبية الشيعة قد أثبتوا ولاءهم للأمين على الرغم من محاولة الشعوبيين التأثير عليهم واستمالتهم إلى المأمون على اعتبار أنهم من الموالين لأهل البيت عليهم السلام إلا أنهم فشلوا تماماً في استمالتهم وهذا ما يؤكّد بأن الشيعة كانوا ملتزمين بالولاء للخليفة في بغداد ولم يعلنوا موالاتهم للمأمون رغم ما حلّ بهم من مصائب وتضييق ومآسٍ.

ولكن قوة جيش الطاهر وأحرارهم على كسر شوكة أنصار الأمين مكّنهم في النهاية من الانتصار، فلم يبق في الميدان غير العامة من باعة الطرق والعراة وأهل السجون والأوباش والطرارين والرعاع[1] وأهل السوق ـ كما يسميهم الطبري ـ هؤلاء شاركوا أيضاً في الدفاع عن مدينتهم مع جنود الأمين منذ بدأ حصار المدينة وقد استمروا في مقاومتهم الشعبية في حين استأمن بعض الجنود، ومنهم الموكلون بقصر صالح لطاهر بن الحسين. كما استأمن إليه صاحب شرطة الأمين في منتصف جمادى الآخرة من سنة ١٩٧ هـ.

لذا قدّر أن تكون روايته:

ما أخشن الحالات إن لم تعد بغداد في القُلة بغداذا

والقلة: أعلى كل شيء، أو الجماعة من الناس. والبيت يستوي معناه وتتحقق جماليته من خلال استغلال معنىٰ (بغداذ). وقد أشار الطبري إلى هذا المعنى.

(١) الأوباش: المفرد وبش: الأخلاط والسفلة، العراة: العري ضد اللّبس. الطرار: النشال ـ الرعاع: الغوغاء.

ـ وقعة قصر صالح:

كاد الأمين يشرف على الهلاك لولا رفض العامة الاستسلام وقتالهم طاهراً قتالاً عنيفاً وقد برز لمقارعته الهرش والأفارقة وأباح حاتم[1] بن الصقر للعامة النهب فأبلي هؤلاء أحسن البلاء في وقعة قصر صالح التي قتل فيها من جيش طاهر ما لم يقتل منهم في وقعة أخرىٰ قبلها أو بعدها.

ويذكر الطبري أن الأمين بعد هذه الوقعة عاد إلى لهوه وشرابه وأوكل الأمر إلى الهرش وآخرين وهؤلاء وكّلوا الوكلاء بأبواب المدينة والأرباض وسوق الكرخ وفرض دجلة وباب المحوّل والكناسة[2]. لكن اللصوص والحرافشة والفسّاق أخذوا يسلبون من قدروا عليه من المسلمين والذميين معاً (حتى لم يسمع بمثل فعلهم في بلاد الحروب)[3]. إلا فيما شاهدناه في يومنا هذا لما عادت الطائفية وصراع الوثوب على السلطة في بغداد بعد سقوط حكومة صدام حسين عام ٢٠٠٣ حيث عاث فيها اللصوص والنهابين والقتلة حتى لم يسلم من أيديهم إلاّ من اعتكف في داره أو هرب خارج البلاد فما قام به هؤلاء لم يسمع بمثل فعلهم في كل بلاد العالم وفي أية حرب شنّت على مرّ التاريخ.

ـ وقعة دار الرقيق:

يقف فتى بغدادي عند وقعة دار الرقيق التي جرت إبان الحصار فيصف حالة الناس وما تعرّضوا له من المهاجمين وبعض المدافعين معاً، ومن خلال غزارة دموعه التي سكبها حزناً على مصير مدينته نتبين بعض صور

---

(١) الهرش ـ حاتم بن الصقر: من قادة العامة كما يُستفاد من وصف الوقائع ببغداد.
(٢) الأرباض: الربض: الناحية. المحول: محلة كبيرة بجانب الكرخ. الكناسة: محلة ببغداد. معجم البلدان لياقوت.
(٣) الحرافشة: من شرائح الشطار والعيارين.

المأساة الأليمة التي عصفت بأهلها، فمن نجا من نيران الحرائق غرق في مياه دجلة، ومن ابتعدت بها الدرب عن ألسنة اللهب وقعت بين أيدي العصابات التي استغلت الفاجعة فراحت تنهب ما تجده أمامها ـ وما أشبه الأمس باليوم ـ ولمّا كانت المدينة محطّ أنظار ذوي الحاجات فقد كثر فيها الغرباء وهؤلاء لقوا حتفهم فلم يرحمهم هذا الفريق أو ذاك. إن شدة الحرب جعلت المرء يركض وراء إنقاذ نفسه ليس غير، فلا الأب يسأل عن أبنائه ولا الأبناء يهتمون بآبائهم. هذه القسوة التي بلغت القمة حضرت الوقعة على وجدان الشاعر الفتىٰ وقد استطاع أن ينقل إلينا معاناته المأساوية وأن يُحسن إيصالها، يقول[1]:

بكيت دماً على بغداد لما ... فقدت غضارة العيش الأنيقِ
فقوم أحرقوا بالنار قسراً ... ونائحة تنوح على غريقِ
تفرُّ من الحريق إلى انتهابٍ ... ووالدها يفرُّ إلى الحريقِ
ومغترب قريبُ الدار ملقىٰ ... بلا رأسٍ بقارعة الطريقِ
فلا ولدٌ يُقيم على أبيه ... وقد هربَ الصديق بلا صديقِ
ومهما أنسَ من شيء تولىٰ ... فإني ذاكرٌ دار الرقيقِ

ثم أمر طاهر بن الحسين بعد وقعة قصر صالح التي قتل فيها من جنده عدد كبير بهدم دور مخالفيه وإحراقها ما بين دجلة ودار الرقيق وباب الشام وباب الكوفة إلى الصراة[2].

ونهر كرخايا والكناسة، وكان أنصار الأمين الذين اقتصروا على العراة فقط يأتون للدار التي خربت فيقتلعون الأبواب وبذلك أضروا أصحابهم

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٤٥٤ ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ٢٩٩. مروج الذهب ٣/ ٤١٤، يسمي الوقعة دار الرقيق. المنتقىٰ لابن الملا الحلبي ٤/ ٨. عدّتها (١٥) بيتاً.
(٢) الصراة: نهر يأخذ من نهر عيسىٰ من عند بلدة المحوّل. معجم البلدان لياقوت.

ومشايعيهم أكثر من جنود طاهر، وفي ذلك نعود إلى ما مر ببغداد في عصر الأمبراطورية الأمريكية في ظل الانفلات الأمني في بغداد عندما استغلّ اللصوص افتقاد الأمن ليسرقوا الناس الأبرياء ومحترفي القتل الذين أخذوا يتجولون في شوارع وأحياء بغداد الذين ما تركوا جرماً إلا وقاموا به حتى تاجروا بالأطفال والفتيات الصغيرات حتى عرفت المدينة باسم مدينة الأشباح والقتلة لتشهد حركة نزوح إلى خارجها طلباً للخلاص لم تشهد الدنيا مثيلاً لها عبر التاريخ.

يصف الوراق العنزي[1] الوضعية التي مرّت ببغداد أيام ما عصف بها من ظلم وهروب أهلها طلباً للنجاة في أبياته قائلاً[2]:

الناسُ في الهدم وفي الانتقال ... قد عرّضَ الناسُ بقيل وقالْ
لم يبقَ في بغداد إلا امرؤٌ ... حالفه الفقر كثير العيالْ
. . . ليس له مال سوى مطردٍ ... مطردُهُ في كفّه رأس مالْ
إن صار ذا الأمر إلى واحد ... صار إلى القتل على كل حالْ

ثم يعلن الوراق العنزي رفضه لهجرة الناس ونزوحهم عن بغداد تاركين المدينة لمصيرها قائلاً[3]:

ولست بتاركٍ بغدادَ يوماً ... ترحَّل من ترحّل أو أقاما
إذا ما العيشُ ساعدنا فلسنا ... نبالي بعدُ من كان الإماما

---

(١) هو عمرو بن المبارك بن عبد الملك الورّاق العنزي، بغدادي من أصل بصري من موالي الشابشتي بروايتها يمكن تسميتها دستور الفسّاق والمجّان في عصره/ دار البيان ببغداد ودار صعب ببيروت، ص ٣٢، شرح المقامات للشريشي ـ المكتبة الشعبية ط ٢، ١٩٧٩، ج ٣ ص ١٤، الديارات للشابشتي ص ٢٠٩، أخبار أبي نواس لابن منظور ١/ ٩٣، ١٢٨.

(٢) تاريخ الطبري ٨/ ٤٦٠. عدتها عشرة أبيات.

(٣) المصدر السابق والصفحة نفسها، عدتها (١٠) أبيات.

وباءت أساليب طاهر بن الحسين الدموية بما استخدمه من هدم وقتل وحرق مع أصحاب الأمين من أفراد المقاومة الشعبية الذين استبسلوا في الدفاع عن المدينة وظلّوا في خنادقهم رافضين أمر الاستسلام، فأمر الطاهر بمنع التجارات عن المدينة من المناطق التي يستولي عليها عيسىٰ أن تفعل حرب التجويع التي لجأ إليها ما لم تفعله أساليبه الدموية الوحشية، فضاق الرزق بالناس وحل الجوع بديارهم واحتكر التجار القوت بعد أن وجدوا فيها الفرصة لإشباع جشعهم، فغلت الأسعار ويئس الناس من الفرج لشدّة ما مرّوا به من البلاء، وكان طاهر قد جعل قواداً ممّن معه[1] بنواحي بغداد لإحكام طوق الحصار.

ـ وقعة دار الكناسة:

أمر الطاهر جيشه بالهجوم على الكناسة وكان على رأس الجيش فقتل الكثير من أصحاب الأمين الذين باغتتهم الضربة المفاجئة الخاطفة وأرهقهم الحصار والحرب الباردة التي رافقته، وفي تلك الوقعة يقول العنزي قصيدته[2] التي وصفت وحشية المعركة وما حصل فيها من قتل ما لا يحصىٰ من جيش الأمين:

وقعةُ يوم الأحد ... صارت حديث الأبدِ
كم جسدٍ أبصرته ... ملقًى وكم من جسدِ
وناظرٍ كانت له ... منيةٌ بالرصدِ
وصائحٍ: يا والدي ... وصائحٍ: يا ولدي
وطاهرٌ ملتهم ... مثلَ التهام الأسدِ

(١) كان بعض جنواد القواد من الترك، تاريخ الطبري، حوادث سنة ١٩٧ هـ.
(٢) تاريخ الطبري ٨/ ٤٦٠، مروج الذهب ٣/ ٤١٦ وقد نسبها إلى المكفوف، عدتها (٢٥) بيتاً.

قلت لمطعون وفيه ... روحهُ لم تُؤدِ:
مَنْ أنت يا ويلكَ يا ... مسكينُ من محمّدِ؟
فقال: لا من نسبٍ ... دانٍ ولا من بلدِ

ـ وقعة درب الحجارة:

سرعان ما انتقم أصحاب الأمين من وقعة الكناسة التي كانت عليهم بوقعة درب الحجارة التي كانت لهم وقتل العراة فيها خلقاً كثيراً من أصحاب طاهر.

يقول العنزي مصوّراً هذه الوقعة وما كان فيها أبياته[1]، ورغم تمكن العراة الذين استغلوا زمن المنازلة ودخلوا المعركة إلى جانب الأمين إلا أن أهل بغداد كانوا ينظرون إلى هؤلاء باحتقار وازدراء وحملهم التاريخ الإدانة باعتبارهم كانوا طفيليين ارتزقوا من دخول الحرب حباً في القتل واللصوصية والسلب والنهب، ولم يكن لهم مبدأ واضحاً يمكن أن يكون لهم مخرجاً سوى الاحتقار والنبذ وهذا ما صوّره الشاعر على الرغم من أن بعض الأبيات قد تخللتها إعجاباً بقتالهم.

وقعةُ السبت يوم دربِ الحجارة ... قطعت قطعة من النظارهْ
ذاك من بعد ما تفانوا ولكن ... أهلكتهم غوغاؤنا بالحجارهْ
هؤلاء مثل هؤلاء لدينا ... ليس يرعون حق جار وجارهْ
ليس هذا زمانُ حرٍ كريم ... ذا زمانُ الأنذالِ أهل الزعارهْ[2]
كان فيما مضىٰ القتال قتالاً ... وهو اليوم يا عليُّ تجارهْ

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٤٦٣، عدّتها (١٣) بيتاً.
(٢) الزعارة: سوء الخلق وقلّة الخير.

ـ وقائع باب الشماسية[1]:

وبالقرب من باب الشماسية حدثت وقعة أخرى بين حاتم بن الصقر ومعه العراة الذين تم انتسابهم إلى المقاومة الشعبية وبين جند الطاهر بن الحسين، وكانت الغلبة هذه المرة أيضاً للعراة الذين قويت شوكتهم بعد انتصارهم في معركة درب الحجارة، وقد تمكّنوا من أسر هرثمة بن أعين أحد أبرز قادة جيش المأمون ثم استبسل أنصاره وتمكّنوا من فكّ أسره دون أن يعرف العراة أيسرهم ومركزه القيادي في جيش المأمون.

ورداً على ما أصابهم أمر الطاهر بعقد جسر على دجلة فوق المنطقة ونجح الجنود من العبور بقتال شرس حتى تمكنوا من إزالة أنصار الأمين.

ثم واصلوا هجومهم على قصور الخلافة ذات السقوف المذهبة فحرقوها وقتلوا من العراة والنهابين عدداً كثيراً، عندها بدأ أمر الأمين يضعف بعد أن تضعضع أنصاره بعد المعارك المتلاحقة وأيقن بأن الهزيمة قادمة لا محالة وبدأ يفكر بأن الهلاك سوف يصيبه ولا أمل في الخلاص من الموت. وقد تتالى هرب القادة والموالين من بغداد واجتمع تجّار الكرخ وقرروا الكتابة لطاهر يؤكدون فيه تأييدهم لأمر المأمون ولكنهم في خضمّ المواقف المتقلّبة بين معركة وأخرى آثروا على الانتظار إلى أن تتّضح الصورة تماماً في هزيمة العراة خوفاً من بطشهم[2].

ـ وقائع جزيرة أبي العباس[3]:

دارت معركة أخرى في منطقة جزيرة أبي العباس بين أنصار الأمين بقيادة الهرش مع جيش طاهر بن الحسين، تمكّن الهرش في البداية من

---

(١) الشماسية: محلة في أعلى مدينة بغداد، معجم البلدان لياقوت الحموي.

(٢) مروج الذهب ٣/ ٤٠٨.

(٣) جزيرة أبي العباس: محلة ببغداد نسبة إلى العباس بن محمد، معجم البلدان لياقوت.

النصر ثم سرعان ما انقلبت الأحوال بعد أن تدارك الأمر قائد جيوش المأمون واستطاع أن يلحق هزيمة كبيرة بأفراد المقاومة الشعبية وقائدهم الهرش ثم كان الفتح فيما بعد للطاهر من ذلك الموضع.

وفي ذلك أنشد العنزي أبياته التي تدين تلك الحرب رغم تعاطفه مع جيش الطاهر نكاية بالعراة إلا أنه لم ينس ما حلّ ببغداد سواء من جيش الطاهر أم من العراة وكثيراً ما كان هذا الشاعر يتأسّىٰ بما آلت إليه الأحوال ببغداد وهو ينشد فيها[1]:

ذهبت بهجةُ بغدادَ وكانت ذات بهجهْ
ضجت الأرضُ إلى الله من المنكر ضجهْ
أيها المقتول ما أنت على دين المحجهْ

وفي محرم من سنة ١٩٨ هـ، شارك بقطع جسر دجلة خزيمة بن خازم وركّز أعلامه عليه وخلع الأمين وكان واحداً من قوّاده البارزين. وبايع المأمون بعد مراسلة بينه وبين طاهر.

وفي الحقيقة إن المبادرة التي قام بها هذا القائد قد عجّلت في إنهاء الحرب المدمرة.

وقد أشارت المصادر التاريخية المتعددة إلى حصول اتفاق ما بين الأمين والمأمون تتضمن قبول الأمين التنازل عن الخلافة لأخيه المأمون لقاء حفظ نفسه وماله وولده، ولكن تفاجأ أهل بغداد بأن أخذت الأحداث منحى جديداً آخر بعدما كانوا قد أمنوا بوصول الطرفين إلى الاتفاق عبر التفاوض الذي كان قد مهّد الأمر لإنهاء الحرب، إلا أن طاهر بن الحسين لم يكن مرتاحاً لهذا الاتفاق خشية على مركزه ومشروعه ومصالحه، لذا

---

(١) تاريخ الطبري ٨/ ٤٦٩، عدتها (٨) أبيات.

باشر الحرب مجدداً في المدينة الشرقية وأرباضها والكرخ وأسواقها وقام بهدم قنطرتي الصراة العتيقة والحديثة ثم مضى بجيشه يريد مدينة أبي جعفر فأحاط بها وبقصر الخلد وقصر زبيدة، فخرج إلى قتاله حاتم بن الصقر والهرش والأفارقة، وبعد رمي المنطقة بالمجانيق والعرادات لجأ الأمين بأمه وولده إلى بعض قصورها وتفرّق عنه حرسه وعامة جنده وخصيانه وجواريه في السكك والطرق وتفرّق العامة من غوغاء وسفلة ـ كما يسميهم الطبري ـ وقد ألقى طاهر باللائمة على أنصار الأمين بأنهم قاموا بخرق الهدنة مبرراً مباشرته بالهجوم على جماعة الأمين والقضاء عليهم بعد ما أثار مظاهر الدمار والهدم والخراب بالقتل ببغداد وأهلها. إلى أن تم التوصل أخيراً إلى النهاية التي أوقفت مسلسل الرعب والحصار بكل ما تضمنته من مآسٍ وجرائم ودمار استمرّ أكثر من سنة على أثرها قتل الأمين وجزّ رأسه وأرسل إلى أخيه المأمون بخراسان.

وبعد مقتل الأمين بأيام معدودات ثارت العامة وهاجت وكثر الشغب والفوضىٰ طلباً للأرزاق فقد خرج الناس ينادون (موسى يا منصور) وموسى ابن الأمين وولي عهده فأحرقوا باب الأنبار وباب البستان حيث كان مقرّ طاهر لفترة طويلة فجمع طاهر جمعه من جديد لمحاربتهم ولم يكتف الجميع من دروس المحنة التي مرّوا بها ليقطعوا شوطاً جديداً لمعركة خاسرة أخرى.

وفي ذلك يقول الخريمي في قصيدته[1]:

قالوا ولم يلعبِ الزمان ببغداد ... وتعثر بها عواثرها

---

(١) هو أبو يعقوب إسحاق بن حسان بن قوهي، صغدي (وليس من الفرس أو الترك)، عور ثم عمي في آخر عمره المديد. جزري ـ نسبة إلى جزيرة ابن عمر. استقر في بغداد، اتصل بآل الخرمي بسجستان واستمدّ لقبه الذي عرف به منهم. كما اتصل بكبار رجال الدولة فمدحهم ونال جوائزهم، توفي سنة ٢١٤ هـ.(البرصان والعرجان للجاحظ) ص ١٩٠.

إذ هي مثلُ العروس باديها مشوق للفتى وحاضرها
فالقوم منها في روضة أُنف أشرق غبّ القطار زاهرها
يا هل رأيت الأملاك ما صنعت إذ لم يرُعها بالنصح زاجرها
ما ضرّها لو وفت بموثقها واستحكمت في التقىٰ بصائرها

ويجب أن لا ننسى قول الشاعر وهو يرمي باللائمة على الناس في بغداد لأنهم نسوا الله وتفشّت بينهم الكبائر والمعاصي فحلّت عليهم لعنة الله وغضبه لتصدح مدينتهم العامرة إلى خراب وحياة الناس إلى محنة وبلاء.

كم قد رأينا من المعاصي ببغداد فهل ذو الجلال غافرها
حلَّت ببغداد وهي آمنةٌ داهيةٌ لم تكن تحاذرها
طالعها السوء من مطالعه وأدركت أهلها جرائرها

يا الله ما أشبه ما مرَّ به البغداديون في زمن الأمين والمأمون وما مرّوا به ولا زالوا في أيام الإرهاب وتطرّف التكفيريون فقد تصدّرت النكبة والفتنة ببغداد في الماضي وتصدّرتها اليوم. فبالأمس كان العراة وعدّتهم واليوم الطغاة وعصابات الموت واللصوص والميليشيات نصبوا حقدهم كما انتصبت المجانيق على أسوار بغداد تمهيداً لقتل وزرع الحرائق في دروبها وأحيائها وشوارعها وسجّل التاريخ في ذلك الزمن ما يسجله اليوم من حوادث النهب واللصوصية وابتزاز الآمنين والاعتداء على حرّيات الناس وهتك الأعراض واغتصاب النساء المؤمنات وفي خضم الموت الأحمر الذي سقي من كأسه البغداديون وما جرى على الأمهات اللواتي تقاذفتهن أكفّ المصائب والويلات هكذا هي بغداد نعيش فيها زمناً على أكفّ الراحة وزمناً على أكف الصعاب... نكبة في عهد الأمين... ونكبة في عهد صدام... ونكبة في عهد الاحتلال الأمريكي. وتدور الأيام في بغداد...

قبل المحنة وبعدها والمعارك طاحنة بين الناس دون أن تردعهم حوادث التاريخ درساً وعظة كي لا يقعوا في مهاوي الفتن.

★ خلافة المأمون (١٩٨ ــ ٢١٨ هـ/٨١٤ ــ ٨٣٣ م)

أصبح الأمر لعبد الله المأمون بن هارون الرشيد بعد مقتل أخيه الأمين وهو سابع خلفاء بني العباس، وكنيته أبو جعفر، وهو ابن ثمان وعشرين سنة. وكانت مدة خلافته إحدىٰ وعشرين سنة منها أربعة عشر شهراً يحارب فيها أخاه الأمين الذي قُطع رأسه وأهدي إليه وهو في خراسان الذي كان والياً عليها من قبل والده. وفي عهده أمر بدسّ السم للإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ليموت بطوس ودفن هناك.

وقد أخطأ الذين توهّموا بأن المأمون يحب العلويين كما تشير إلى ذلك بعض المصادر التاريخية عندما قام بمبايعة الإمام علي الرضا عليه السلام بولاية العهد... وإنما لجأ المأمون لهذه الخطوة خشية العلويين الذين ازداد نفوذهم وقويت شوكتهم وأراد تهدئة الأحوال للسيطرة على زمام أمور الخلافة.

والعجب في أهل بغداد أنه لما وصلت إليهم صورة المنشور الذي بعثه المأمون يقول فيه بأنه: (لم يجد في بني العباس وبني علي أفضل ولا أورع ولا أعلم من علي الرضا فلذلك ولي الخلافة من بعدي) ثاروا وفي مقدمتهم العباسيون وقالوا لا ندع الخلافة تخرج من بني العباس.

★ خلافة المعتصم (٢١٨ ــ ٢٢٧ هـ/٨٣٣ ــ ٨٤٢ م)

تولّى المعتصم بالله محمد بن هارون الرشيد الخلافة بعد أخيه المأمون وهو ابن ثمان وثلاثين سنة وكانت مدة خلافته ثمان سنين وثمانية أشهر حيث توفي بسامراء. وقد ضاقت بغداد في عهده لكثرة الغلمان الترك الذين جلبهم

المعتصم، فاجتمع إليه رجال من بغداد وقالوا: إن لم تخرج عنّا بهذا الجند حاربناك. قال: وكيف تحاربونني؟ قالوا: بسهام الأسحار. قال: لا طاقة لي بذلك، فكان ذلك بسبب بنائه «سر من رأى» وإقامته بها.

وقد تحرّكت في عهده ثورات من أهمها: ثورة الزط وهجم قوم من بلاد السند والهند (باكستان ـ الهند ـ بنجلاديش) الآن، وانضمّ إليهم نفر من العبيد فشجعوهم على قطع الطريق وعصيان الخليفة وكان ذلك سنة ٢٢٠ هـ/ ٨٣٥ م وقد عاثوا بالبصرة فساداً وقطعوا الطريق ونهبوا الغلاّت، فندب المعتصم أحد قوّاده بقتالهم. «وكان عدد مقاتلي الزط اثني عشر ألفاً وشارك بحصارهم آلاف الفوارس، واستمر الحصار تسعة أشهر، ثم دفع بهم إلى الثغور حتى اقتتلوا جميعاً»[1].

وقد استشهد في أيام خلافته الإمام الجواد محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام حيث مات مسموماً على يد أم الفضل بنت المأمون بأمر من المعتصم وله من العمر ٢٥ سنة ودفن ببغداد في مقابر قريش إلى جوار جده موسى بن جعفر. كما أمر المعتصم بحبس محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام ليقتل فيها بالسُّم.

★ خلافة الواثق بالله (٢٢٧ ــ ٢٣٢ هـ/٨٤٢ ــ ٨٤٧ م)

وما إن مات المعتصم حتى بويع لهارون بن محمد بن هارون (الواثق بالله) ويكنىٰ بأبي جعفر، وله من العمر إحدى وثلاثين سنة وتسعة أشهر ودامت خلافته خمس سنين وتسعة أشهر ودفن بسامراء وكان من أبرز صفاته كثير الأكل والشرب ولم يكن عهده لينتهي حتى ساد الضعف والانحلال إلى أن انتهت الدولة العباسية على يد هولاكو التتري سنة ٦٥٧ هـ/ ١٢٥٨ م.

---

(١) تاريخ الطبري، حوادث سنة ٢١٩ هـ.

الفصل السادس

العصر العباسي الثاني (عصر نفوذ الأتراك)

(٢٣٢ ــ ٣٣٤ هـ/٨٤٧ ــ ٩٤٦ م)

★ خلافة المتوكل (٢٣٢ ــ ٢٤٧ هـ/٨٦١ ــ ٩٤٧ م)

بويع المتوكل جعفر بن المعتصم بالخلافة بعد موت الواثق وهو ابن سبع وعشرين سنة فكانت خلافته أربع عشرة سنة وتسعة أشهر، وقد عرف باسم نيرون العرب لما شهد عصره ظلماً وجوراً وتعسّفاً وإرهاباً لم يشهده العرب من قبل، كما كانت أيامه شديدة الوطأة على الشيعة. فقد كان كثير السخط والكره والبغض لآل محمد ﷺ، واستطاع أن يثبت حكمه بالاعتماد على الضبّاط الأتراك وأحكامهم التعسفية، وسجّل المؤرخون للمتوكل اهتماماً استثنائياً بالأخبار أي أخبار جواسيسه المنتشرين في كل مكان. وشهدت فترة حكمه تشكيل شبكة رهيبة ومخيفة للجاسوسية وأثرى الجواسيس من خلال إدراكهم لتوجهات وتوجسات المتوكّل خاصة عداءه الشديد لآل محمد ﷺ، «وأصدر أوامره بهدم مرقد الإمام الحسين عليه السلام وهدم الدور المحيطة به وحرث المنطقة بأسرها وفتح مياه الفرات وإغراقها، وهي مهمة امتنع المسلمون والنصارى عن تنفيذها، ونفّذها اليهود بتعهد

إبراهيم الديزج اليهودي»[1]، والذي تولى فيما بعد منصباً حساساً في دولة المتوكل.

فضلاً عن أن الشبكة الرهيبة من الجواسيس الذين نشرهم في البلاد ليقتفوا أثر آل أبي طالب، وقد رفعوا إليه التقارير المباشرة التي يشيرون فيها إلى خطورة الإمام علي الهادي عليه السلام زوراً وبهتاناً.

يقول المسعودي: (وكتب بريحة العباسي صاحب الصلاة بالحرمين إلى المتوكل: إن كان لك في الحرمين حاجة فأخرج علي بن محمد منها، فإنه قد دعا إلى نفسه واتبعه خلق كثير).

ونجد أن زوجة المتوكل تؤكد على زوجها ذلك، وهي كانت جارية ثم أصبحت زوجة المتوكل الأولى. وقد عرفت بحسنها الباهر، وذُكر أنها كانت من أصل يوناني تمكّنت من الاستحواذ على قلب وعقل «المتوكل» واسمها غير معروف لكنها اشتهرت باسم «قبيحة» من باب تسمية الشيء بضده[2].

تلك التقارير دفعت المتوكل إلى استدعاء الإمام الهادي عليه السلام إلى سامراء في سنة ٢٣٤ هـ ولم يتم استقباله من قبل المتوكل بما يناسب مكانته الجليلة. وفرض عليه الإقامة الجبرية والحصار والجو الجاسوسي إلى أن لقي مصرعه في عهد المعتزّ في الخامس من شوال سنة ٢٤٧ هـ.

وفي مقاتل الطالبيين/ ٣٩٦:

(استعمل المتوكل على المدينة ومكة عمر بن الفرج الرخجي فمنع آل أبي طالب من التعرّض لمسألة الناس ومنع الناس من البرّ بهم، وكان لا

---

(١) الإمام المهدي ـ نظرة في التاريخ ورؤية للمستقبل، كمال السيد، ص ٣٧.
(٢) المصدر السابق، ص ٣٨.

يبلغه أن أحداً أبرّ أحداً منهم بشيء وإن قلّ إلاّ أنهكه عقوبة وأثقله غرماً، حتى كان القميص يكون بين جماعة من العلويات يصلين فيه واحدة بعد واحدة ثم يرقعنه ويجلسن على مغازلهن عواري حواسر إلى أن قُتل المتوكل.

وكان المتطرفون ممن يبغضون آل محمد ﷺ ينظرون إلى أفعال المتوكّل بأنها أمر لإظهار السُّنة والقضاء على الفتنة، حيث يذهبون على حدّ قولهم بأن العلويين هم أسباب الفتنة التي كانت مستشرية في ذلك العهد في أقاليم الدولة العباسية، بل ذهبوا إلى أن يحدّثوا بحديث أهل السُّنة لمحو كل أثر عن مناقب آل محمد ﷺ وراح العلماء يتصدرون ذلك ظناً بأنه إحقاق الحق وإبطال الباطل، حتى نودي بشيعة آل محمد ﷺ على أنهم يحيون البدعة ويتخلّون عن السُّنة فكانوا يضربون ويشتمون ويُرمون في السجون على الظن.

★ خلافة المنتصر (٢٤٧ ــ ٢٤٨ هـ/٨٦١ ــ ٨٦٢ م)

ولى المتوكل أولاده الثلاثة: المنتصر، المعتزّ، المؤيد ـ العهد. وقدّم ابنه المعتزّ على المنتصر، فأدّى ذلك إلى اغتياله بيد ابنه المنتصر بتحريض ومساندة الأتراك ليجلس هذا الابن القاتل على العرش مكان أبيه وله من العمر خمساً وعشرين سنة. ثم ينضم إليه جموع الترك ثانية للتخلّص من أخويه لكيلا ينتقما منه لأبيهما وخاصة المعتزّ.

وكانت مدة خلافته قصيرة لم تستمر سوى ستة أشهر حيث مات مقتولاً، فقام الأتراك على تحويل الخلافة من أبناء المتوكل إلى أبناء المعتصم فولوا أحمد بن المعتصم ولقّبوه بالمستعين.

وفي عهده تفاقم نفوذ الأتراك وعلى رأسهم بغا الكبير وبغا الصغير،

وأتامش، وباغر، ولم يلبث بعض هؤلاء الأتراك الذين أجلسوا هذا الخليفة على العرش أن انقلبوا عليه بعدما أشيع عن عزمه الفتك بهم، ومن ثم قامت فتن وحروب لينتهي الأمر بعزل المستعين وتولية المعتزّ بن المتوكل ولم يكتف الأتراك بعزل المستعين ونفيه إلى واسط بل قتلوه، ورغم بقائه مدة قصيرة في الحكم إلا أنه تأثر كثيراً بالأتراك الذين ساعدوه في البطش بمن يعارضه.

وقد ظهر في عهده بالكوفة أبو الحسن يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن عبد الله بن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب (الطيار) فقتل وحمل رأسه إلى بغداد، وصلب. كما ظهر في عهده محمد بن جعفر بن الحسن الذي حمل أسيراً إلى نيسابور فمات في حبسه.

لقد كان الأتراك في عهد المستعين يظهرون عداءً كبيراً للعلويين ولهذا لم يتأخروا في قتلهم وسفك دمائهم.

«وما كان عام ٢٤٩ فقد شغب الجنود الشاكرية ببغداد ونادوا بالنفير وفتحوا السجون وأخرجوا من فيها، وأحرقوا أحد الجسرين وقطعوا الآخر وكان أحد الأسباب لذلك احتجاجهم على الأتراك واستعظامهم قتلهم للمتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين، يقتلون من يريدون من الخلفاء ويستخلفون من أحبّوا من غير ديانة ولا نظر للمسلمين[١].

لقد كانت حرب المستعين والمعتزّ في وجه من وجوهها حرباً بين الفرس والأتراك، الفرس لاستعادة مركزهم والترك لاستمراره وتدعيمه. ففي سنة ٢٥١ هـ[٢] حدثت نكبة بغداد الثانية اعتدى رجل يقال له أحمد بن

---

(١) الإمام المهدي ـ نظرة في التاريخ ورؤية للمستقبل، كمال السيد، ج ٥ ص ٣١٣.
(٢) انظر تاريخ الطبري.

مارمّة على وكيل القائد التركي باغر في إحدى إقطاعاته الكثيرة بسواد الكوفة، وقد استطاع صديق ابن مارمة دليل ابن يعقوب كاتب القائد بغا الشرابي أن يحول دون انتقام باغر ـ وهو واحد من قوّاد بُغا فيما مضى ـ من ابن مارمّة. وتفاعل الحدث بين القائدين فلزم باغر الخليفة المستعين في داره مع كره المستعين له. واضطره أن يوكل إليه بعض الأعمال التي كانت بيد قواد آخرين.

غير أن بُغا ووصيف استطاعا بموافقة المستعين ومباركته أن يتخلّصا من باغر. تلك الشرارة التي أشعلت فتيل حرب ضروس. والقضية في عمقها ليست مسألة وكيل أهين، وإنما هي صراع القادة الأتراك على النفوذ والسلطة الفعلية في عهود الخلفاء الضعفاء.

فقد أراد باغر التركي الذي كان أحد قتلة المتوكل أن يتخلّص من الخليفة المستعين ومن القائدين اللذين نصّباه خليفة وهما وصيف وبُغا ولكنهما عاجلاه فقتلاه، فشغب الجند الأتراك لمقتل باغر، وخاف الخليفة والقائدان من قوة أنصاره فركبوا في محرم حراقة وانحدروا هاربين من سامراء إلى بغداد. نزل المستعين في دار واليها ورجلها القوي محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين[1] ووافاه القواد، إلا أقلهم، والعمال والكتّاب وبنو هاشم إلى هناك وفي الخبر أن المشاغبين في سامراء أرسلوا وفداً إلى بغداد ليسترضوا الخليفة المستعين ويعودوا به. لكن الوفد أهين على يد محمد بن عبد الله بن الطاهر فعاد إلى سامراء وحرّض الأتراك على خلع المستعين واجتمع الرأي على أن يخرجوا المعتزّ من سجن الجوسق وأن ينصّبوه خليفة، هكذا خلعوا المستعين وبايعوا المعتزّ.

---

(١) محمد بن عبد الله بن طاهر: من قواد العصر العباسي المشهورين، كان والياً على بغداد وتوفي سنة ٢٥٣ هـ، العبر للذهبي ٢/ ٥.

أخذ كل فريق يكيد للآخر ويجمع حوله الأنصار والقادة ويؤلّف حوله القلوب بمزيد من العطاء والمال ـ إن وجد ـ وقد حاول كل فريق أن يصله خراج الأمصار الأخرى استعداداً لتمويل الحرب بينهما.

قبل نهاية شهر محرم عقد المعتزّ لأخيه أبي أحمد الموفّق على حرب المستعين والبغاددة، وقد وصل هو وعسكره إلى باب الشماسية في صفر ليبدأ حصار بغداد، كما سار قائد آخر تركي في خمسين ألفاً من المحاربين للمهمة نفسها. حاول محمد بن عبد الله بن طاهر القائم بأمر الحرب في معسكر المستعين ببغداد أن يمنع المؤن من الوصول إلى سامراء، وكتب بذلك إلى عامل الأنبار[1] وأمر بكسر القناطر المحيطة بها ليمنع الأتراك من الوصول إليها، كما قام بتجديد أسوار مدينة بغداد وترميمها وتوزيع الحراس والمقاتلين عليها.

وأمر بحفر الخنادق من جانبي الأسوار، وجدد الأبواب وجعل على كل باب قائداً من قوّاده، كما نصب على الأبواب المنجنيقات والعرادات، وقد استعان أيما استعانة بعياري[2] المدينة أولئك الذين أبلوا أحسن البلاء دفاعاً عن مدينتهم في حرب الأخوين الأمين والمأمون.

في هذه المرة تمّت الاستعانة بالعيارين رسمياً وهكذا فرض لهم فرضاً وجعل عليهم عريضاً منهم يقودهم وعمل لهم تراساً من البواري المقيدة وأعطاهم المخالي ليجعلوا فيها الحجارة للرمي.

توالت المواقع بين الطرفين وكثر عدد القتلى. وتعاوروا النصر والهزيمة وقد ثبت أصحاب البواري العياروين في حين فرَّ البغاددة في بداية الصدمات الأولى.

---

(١) الأنبار: مدينة غربي بغداد على الفرات، معجم البلدان لياقوت.

(٢) العيار: الذي يخلي نفسه وهواها لا يردعها ولا يدحرها وقد كان للعيارين لباس خاص، الأغاني ٦/ ١٩٣.

وفي موقعة ثانية كثر قتلى الطرفين وكثرت الرؤوس المعلّقة في سامراء وبغداد.

لكن جيش المعتز الذي جلّه من الأتراك خسرها في النهاية فقتل وغرق أكثره وتعدادهم أربعة آلاف وفرَّ من بقي منه إلى جيش أبي أحمد الموفق. ويعود الفضل في انهزامه إلى بلاء العيارين وشدة بأسهم. وفي إحدى المعارك خارج بغداد انهزم جيش المستعين الذي يقوده واحد من العرب فاستغلّ الهزيمة محمد بن عبد الله الطاهر القائم بحرب المستعين ليظهر لنا شعوبيته التي ورثها عن آبائه فقال: لا يفلح أحد من العرب إلاّ أن يكون وراءه نبي ينصره الله به[1].

ولم يطل الوقت حتى انهزم أخو محمد بن عبد الله بن طاهر أمام الأتراك، وكان الأذى من إغلاق أبواب بغداد التي سدّت كي لا يفكر جند الطاهر البغاددة بالفرار يعادل الأذى الذي لحق بالجيش في هزيمته، واستطاع الأتراك أن ينقبوا سور بغداد في إحدى المرات لكن الداخلين قتلوا ثم انهزم جيش الطاهر أمام الأتراك في جمادى الأولى واستطاع الأتراك أن يدخلوا بعض بغداد لكنهم انهزموا بعد ذلك. وتلاقى جيش الطاهر بجيش الموفق أبي أحمد في شهر ذي القعدة فانهزم الأتراك الذين كانوا مع الموفّق وتبعهم البغاددة إلى مشارف سامراء ثم تراجعوا وكانت هذه الموقعة أهم المواقع التي جرت بين الطرفين... على أن حصار بغداد أخذ يستفحل وقد أضرّ غلاء الأسعار بمعنويات أهلها ووصل الغلاء ونقص المواد الغذائية بسبب ذلك الحصار الذي دام أشهراً إلى الحدّ الذي جعل أهل بغداد يأكلون الجيف[2].

التحق جماعة من الكتّاب والقوّاد ونفر من بني هاشم بالمعتزّ في

---

(١) تاريخ الطبري، حوادث سنة ٢٥١ هـ.

(٢) العبر للذهبي ٢/٢ (حوادث سنة ٢٥٢ هـ).

سامراء وكانت جرت مكاتبات متعددة بين المعتزّ وبين الطاهر القائم بحرب المستعين، كما جرت مكاتبات بين الطاهر وبين أبي أحمد الموفّق، وكاتب المستعين بدوره آخرين في سامراء على أن يتمّ الصلح بين الطرفين على أساس أن يستمرّ المستعين في تسلم منصب الخلافة وأن تكون ولاية العهد من بعده للمعتز. وفي شهر ذي الحجة من سنة ٢٥١ هـ قلب الطاهر ظهر المجن للخليفة المستعين ووافق على خلعه والبيعة للمعتزّ. وقد رفض البغاددة ذلك وشتم العامة الطاهر وهجموا على داره يريدون حرقها انتقاماً لتخاذله وبقيت ثورة العامة ببغداد محتدمة حتى كلمهم المستعين نفسه وأثنىٰ على الطاهر واعتذر الأغنياء للطاهر عن شتم العامة له وثورتهم ضده مما يذكرنا بموقفهم مع جده طاهر بن الحسين[١].

انتهت الحرب بين المستعين والمعتز بعد أن اجتمع وصيف وبُغا ومحمد بن عبد الله بن طاهر في شهر ذي الحجة وفرضوا على المستعين قبول خلع نفسه لقاء شروط يشترطها، وقد وقع على وثيقة الخلع مع بداية سنة ٢٥٢ هـ ثم قتل بعد ذلك بواسط ولعلّ كلمته التي قالها قبل التوجّه لواسط، بعد أن رُفض طلبه للمحاورة بمكة فاختار البصرة، تمثل لنا وضع سلطة الخلافة وأمر الأتراك خير تمثيل فقد قيل له: إن البصرة وبيئة، فقال: هي أوبأ أو ترك الخلافة؟[٢].

★ خلافة المعتز (٢٥١ ــ ٢٥٥ هـ/٨٦٥ ــ ٨٦٩ م)

بعد مقتل الخليفة العباسي المستعين بالله بويع المعتزّ بالله وهو الزبير بن جعفر المتوكل ويكنى أبا عبد الله، وله من العمر ثمان عشرة سنة، وكان هذا الخليفة ألعوبة في أيدي الأتراك مسلوب السلطة حتى لم يكن من بد إلا

---

(١) انظر: وقائع باب الشماسية، أيام قتال الأخوين الأمين والمأمون.
(٢) مروج الذهب للمسعودي ٤/١٦٩.

الاستعانة بالمغاربة والفراعنة للتخلّص من تسلّط الأتراك الذين تغلغل نفوذهم في الدولة وبالمقابل عمل الأتراك للتخلّص منه سريعاً بعدما علموا بمخطط المعتزّ للتخلّص منهم، فثاروا عليه وقتلوه ومثّلوا بجثته.

ولم يكن يفكر المعتزّ بكيفية التخلّص من الأتراك فقط على الرغم من أنهم كانوا خصوماً له، إلا أن المعتزّ كان شديداً على آل أبي طالب فلاقوا منه البلاء الكثير وسفك الدماء.

فقد كانت سياسة المعتزّ تنهض على أساس تصفية أعداء والده وخصومه أياً كانت اتجاهاتهم، ولذا قام بترقية الضباط المغاربة الذين أصبحوا عماد حرسه الخاص. فيما عمّت موجة من الاعتقالات في بغداد وسامراء طالت عشرات العلويين أو ممن تُشم فيهم رائحة الولاء لأهل البيت عليهم السلام وكان في طليعة من اعتقل: أبو هاشم الجعفري بأوامر شخصية من المعتز بذريعة أن البلاط يفكر في إرساله إلى طبرستان للتفاوض مع الثائر العلوي الحسن بن زيد وتهدئة القلاقل هناك، فنقل مخفوراً إلى سامراء وزج في سجن خاص[1].

وتم تعيين ابن أبي الشوارب رئيساً لسلطة القضاء وهو رجل معروف بموقفه العدائي التقليدي للعلويين[2].

★ خلافة المهتدي (٢٥٥ ــ ٢٥٦ هـ/٨٦٩ ــ ٨٧٠ م)

ولما قتل المعتز بالله خلفه المهتدي بالله محمد بن هارون وله من العمر سبع وثلاثون سنة وكانت ولايته أحد عشر شهراً سعى فيها إلى اعتقال الإمام الحسن العسكري وزجّه في سجن خاص مع تأكيداته الصارمة على حراس

---

(١) الطبري: ٧/ ٥١١ ـ ٥١٢، حوادث سنة ٢٥٢ ـ ٢٥٣.
(٢) نفس المصدر السابق.

السجن بمعاملته بشكل سيىء، وقد سلم الوزير صالح بن وصيف الإمام إلى علي بن أوتامش المعروف بفظاظته وقسوته وعدائه للعلويين وقد تعرّض صالح بن وصيف إلى الانتقاد بعد أن وصلت القصر تقارير إلى المهتدي تؤكد معاملته الطيبة للإمام الحسن في سجنه، فقال القائد التركي وماذا تريدوني أفعل لقد سلّمته إلى رجل ليس في قلبه رحمة، ولكن ابن أوتامش لا يرفع الآن رأسه إجلالاً له[1].

وفي فترة المهتدي انتشرت الأخبار التي تؤكد أن الإمام المهدي سيولد مما سبب ذلك قلقاً وهواجس كبيرة للمؤسسة الحاكمة.

ونرى أن المهتدي يطلق تهديدات تتوعّد الشيعة بالفناء[2].

وهناك رواية تشير إلى أن الإمام قد تنبأ بمصير المهتدي الأسود بعد إطلاقه التهديدات بشأن الشيعة[3].

وقد سجّل الطبري صيحاته وهو يدور في شوارع سامراء وأزقّتها: يا معشر الناس! أنا أمير المؤمنين... قاتلوا عن خليفتكم. ولم يكترث له أحد. واتجه إلى السجن وأمر بإطلاق السجناء متوقعاً عونهم ولكنهم فضّلوا الفرار إلى أن تمّ إلقاء القبض عليه وقتله ودفنه في سامراء.

ومرّت ببغداد حوادث جمّة رافقها قتل وبلاء على أهلها منها ما كان أيام استيلاء الموالي الأتراك على دفّة السياسة في العاصمة بغداد والأطراف. وكان هؤلاء القواد الموالي تارة يعملون ضد الخليفة الشرعي وأخرى ضد أعدائه بحسب ما يرونه من المصلحة. وأشهر ما قاموا به قتلهم

---

(١) أصول الكافي: ١/ ٥٠١.
(٢) حياة الإمام الحسن العسكري، ص ٢٥٢.
(٣) مهج الدعوات: ٢٧٤.

للمتوكّل والمهتدي وخلعهم المعتزّ والمؤيد ابني المتوكل من ولاية العهد واستخلافهم للمستعين واستيلائهم على الأموال في عهده ومقاتلتهم إياه وما رافق ذلك من القتال والجهد والبلاء على أهل بغداد حتى أكلوا الجيف»[1].

★ خلافة المعتمد على الله (٢٥٦ ــ ٢٧٩ هـ/٨٧٠ ــ ٨٩٢ م)

بويع المعتمد على الله أحمد بن جعفر المتوكل وهو ابن خمس وعشرين سنة فكانت خلافته ثلاثاً وعشرين سنة. فقد اعتلىٰ العرش على أيدي الأتراك الذين أخرجوه من «الجوسق» الذي حبسه فيه المهتدي، وكان كما يقول السيوطي: «أول خليفة قُهر وحجر عليه ووُكل به».

وفي عهده استشهد الإمام أبو محمد الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام الملقّب (بالعسكري) بعد أن أمر المعتمد بدسّ السم له، فضلاً عن غياب الإمام محمد بن الحسن العسكري صاحب الزمان تخوفاً من قهر السلطة التي كانت تريد قتله.

ولم يكن زمن خلافة المعتمد أفضل حالاً للشيعة الإمامية. فقد قامت السلطة الحاكمة بالتضييق عليهم واستخدام القسوة معهم وعدم إعطائهم حرية العمل والاشتراك في إدارة الدولة، وكثيراً ما كانت السجون تعجّ بهم إلى أن تمكّن أبو أحمد الموفق أخو المعتمد على تنحيته وحبسه فكان المعتمد أول خليفة يقهر ويحبس ويحجر عليه.

وكان للموفق الفضل في القضاء على ثورة الزنوج التي استمرّت أربع عشرة سنة وأربعة أشهر وأمكن في عهده القضاء عليها سنة ٢٧٠ هـ/ ٨٨٤ م.

---

(١) الكامل، ص ٣٢٠، العبر ج ٢ ص ٢.

ـ فتنة صاحب الزنج:

شهد عهد المعتمد ظهور صاحب الزنج الذي قتل الألوف من النفوس وهتك الآلاف من الأعراض وأحرق عشرات المدن، وصاحب الزنج هو الرجل الذي ثار في البصرة عام ٢٥٥[١] واسمه علي بن محمد وزعم أنه علوي، يتّصل نسبه بزيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام، ولم يكن كذلك، على ما يذكر التاريخ، فإن نسبه في عبد قيس، وأمه من بني أسد بن خزيمة[٢].

واستمر يعيث في المجتمع فساداً خمسة عشر عاماً، إلى أن قتل عام ٢٧٠[٣].

وقد ارتكز في ثورته ـ مضافاً إلى دعواه الانتساب بالنسب العلوي ـ أنه وجد دعوته بشكل رئيسي إلى العمل والطبقة الكادحة من الشعب، وخاصة العبيد المماليك منهم، تلك الطبقة التي تلاقي من إرهاق مستخدميها ومالكيها ومن ضغط الدولة أنواع الذل والشقاء. ومن ثم سمي صاحب الزنج أي قائد العبيد، فبدأ أهل البصرة ودعاهم للإقبال إليه للخلاص من الرقّ والتعب[٤]. فاجتمع منهم خلق كثير، فخطبهم ووعدهم أن يقودهم ويملكهم الأموال وحلف لهم بالأيمان أن لا يغدر بهم ولا يخذلهم. فأتاه مواليهم وبذلوا له على كل عبد خمسة دنانير ليسلم إليه عبده، فأمر من عنده من العبيد فضربوا مواليهم أو وكلائهم، كل سيد خمسمائة سوط[٥].

---

(١) الكامل ج ٦ ص ١٥.
(٢) نفس المصدر، ج ٥ ص ٣٤٦ وابن الوردي ج ١ ص ٢٣٣.
(٣) نفس المصدر السابق، ص ٣٤٦.
(٤) موسوعة الإمام المهدي، ج ١ ص ٧٢.
(٥) الكامل ج ٥ ص ٣٤٧.

وكان هذا أول الشر. واكتسب العبيد بذلك قوة واندفاعاً وحماساً مضاعفاً، استطاعوا أن يكتسحوا بها منطقة ضخمة من البلاد.

واتّسع شرهم من البصرة إلى عبادان وإلى الأهواز[١] ودستميسان[٢] وواسط[٣] ورامهرمز[٤]، وما بينهما من البلدان والمناطق، وحين احتلوا البصرة، حاربوا أهلها بجيش من الزنج والأعراب ثلاثة أيام. ثم إنه أمنهم استجابة لإبراهيم بن يحيى المهلبي ونادى مناديه من أراد الأمان فليحضر إلى دار إبراهيم.

فحضر أهل البصرة قاطبة حتى ملؤوا الرحاب. فلما رأى صاحب الزنج اجتماعهم، انتهز الفرصة لئلا يتفرّقوا، فغدر بهم وأمر أصحابه بقتلهم، فكان السيف يعمل فيهم وأصواتهم مرتفعة بالشهادة، فقتل ذلك الجمع كله ولم يسلم إلاّ النادر منهم. وأحرق الجام، واحترقت البصرة في عدّة مواضع منها، وعظم الخطر، وعمّها القتل والنهب والإحراق، فمن كان غنياً أخذوا ماله وقتلوه ومن كان فقيراً قتلوه لوقته[٥]، ومثل ذلك عمل الزنج بعبادان والأهواز والأبله[٦] وأبي الخصيب[٧] وحين رأت الدولة ذلك منه، ناجزته القتال ببعض قوادها كسعيد الحاجب[٨] ومحمد المولد[٩] وموسى بن بغا[١٠]. إلا أنهم لم

---

(١) المصدر السابق ص ٣٥٩.
(٢) المصدر السابق ج ٦ ص ٨.
(٣) المصدر السابق ص ١٦.
(٤) المصدر السابق ص ٢٣.
(٥) الكامل ج ٥ ص ٣٦٢.
(٦) المصدر السابق ص ٣٥٩.
(٧) المصدر السابق ص ٣٥٨.
(٨) المصدر نفسه ص ٣٦١.
(٩) المصدر السابق ص ٣٦٣.
(١٠) المصدر السابق ص ٣٦٧.

يؤثروا شيئاً، وكان يستظهر عليهم صاحب الزنج، وكانت اليد الطولى في محاربته ومصابرته والقضاء عليه في النتيجة لأبي أحمد الموفّق طلحة بن المتوكل[١] بمعونة ولده أبي العباس المعتضد الذي أصبح أول خلفاء بغداد بعد أفول نجم سامراء. والتحق لمعونته أخيراً عام ٢٦٩ لؤلؤ غلام أحمد بن طولون الذي انشقّ على مولاه، وسار إلى الموفّق وهو يقاتل الزنج[٢].

وكانت له يد طولى في القضاء على حركة الزنج في آخر أيامها[٣] حتى قيل في عسكر موفق[٤]:

كيفما شئتم فقولوا إنما الفتح للولو

ولم يكن لجيش الموفق تجاه الزنج رحمة وإنما كانت الحرب معهم حرب إبادة، وقد أعمل معهم سائر أنحاء القتل من الإحراق والإغراق والمطاردة وغير ذلك[٥]. واستنقذوا ما لا يحصىٰ من النساء والصبيان والمساجين[٦].

واستأمن إلى الموفق عدداً من قواد الزنج قبل قتله وبعده[٧] وقد كان لقتله والقضاء على حركته أثر كبير على سائر الناس بالشعور بالسرور والأمن، وقيلت في ذلك أشعار كثيرة[٨].

وقد أثرت مواقف الموقف هذه على سيطرته التامة على الأمور كلها في

---

(١) الكامل ج ٥ ص ٣٩٥. وانظر العبر ج ٢ ص ١٥.
(٢) الكامل ج ٦ ص ٤٩.
(٣) المصدر السابق، ص ٥١.
(٤) المروج ج ٤ ص ١٢٤.
(٥) الكامل ج ٦ ص ٤٦.
(٦) المصدر السابق ص ٤٧.
(٧) الكامل ج٦ ص ٥٣.
(٨) المصدر السابق ص ٥٣ ـ ٥٤.

الدولة، على الجيش والتعامل مع ولاة الأطراف وجباية الأموال وعزل وتنصيب الوزراء حتى لم يبق لأخيه المعتمد من الخلافة إلا اسمها.

فتنة القرامطة:

كما شهدت آخر سنتين من خلافة المعتمد وأخوه الموفّق اندلاع ثورة القرامطة بالكوفة وقد تحرّكوا سنة ٢٧٨ هـ/ ٨٩١ م وهم ينسبون إلى قرمط بن الأشعث، وقد استجاب له جمع كثير، وتعدّ فرقة القرامطة من الزنادقة لانحراف تفكيرهم وحرصهم على هدم الدين الإسلامي والقضاء عليه.

وكانوا يتصفون بالصرامة والشدة والاستهانة بالدماء إلى حدّ لم يكن ليقف أمامهم جيش مقاتل أو تصمد أمامهم مدينة محاربة. وكان مجرد احتمال مهاجمة القرامطة لبعض المناطق يوجب بث الرعب في الناس وانهيار معنوياتهم إلى حدّ كبير. وقد كبَّدوا العراق وبعض دول الجوار تضحيات جليلة إلى أن قتل قائدهم (صاحب الشامة) بعد القبض عليه وتعذيبه عام ٢٩١[١]. وشيخهم زكرويه بن مهرويه عام ٢٩٤[٢] وكبيرهم في البحرين أبو سعيد الجنابي عام ٣٠١[٣].

ومعنى ذلك أن صاحب الشامة وزكرويه قتلا قبل اندلاع حركة المهدي المغربي[٤] عام ٢٩٦.

ولكن ذلك لم يفل من عزمهم إذ شهد عام ٣١١ مأساة البصرة التي

---

(١) الكامل ج ٦ ص ١٠٨.
(٢) المصدر السابق ص ١١٦.
(٣) المصدر السابق ص ١٤٧.
(٤) ظهور شخص في شمال أفريقيا يدّعي أنه هو المهدي وأنه من ذرية إسماعيل بن جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وهو جدّ الفاطميين في مصر وقد استولىٰ على دولة واسعة الأرجاء عام ٢٩٦.

أحدثوها بقيادة أبي طاهر سليمان بن أبي سعيد الهجري القرمطي. فقد وضع السيف في أهل البصرة وقتل خلقاً كثيراً وطرح الناس أنفسهم في الماء فغرق أكثرهم. وأقام أبو طاهر سبعة عشر يوماً يحمل ما يقدر عليه من المال والأمتعة والنساء والصبيان[1].

ثم هاجم الكوفة هجوماً مميتاً عام ٣١٥[2] وأما هجومهم على قوافل الحجاج وإبادتهم له، أعواماً متعددة فحدِّث عنه ولا حرج بدأت عام ٢٩٤ بقيادة زكرويه حيث غدروا بقافلة خراسانية للحجاج وقتلوهم عن آخرهم وبقي يقاتل القوافل حتى جمع القتلى كالتل. وتكللت هذه الجرائم عام ٣١٧ بالهجوم المباشر على مكة المكرمة وقتل الحجاج ونهبهم وسفك الدماء في المسجد الحرام وطرح القتلى في بئر زمزم وأخذ أبو طاهر كسوة البيت فقسمها بين أصحابه ونهب دور أهل مكة وقلع الحجر الأسود وأنفذه إلى هجر[3] حيث بقي ثلاثين سنة[4].

أما أهم عقائد القرامطة فقد ظهر من كتب الفرق كالنوبختي وسعد بن عبد الله الأشعري، إنهم فرقة من الإسماعيلية يؤمنون بسبعة أئمة هم: علي بن أبي طالب، الحسن والحسين، علي بن الحسين ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، ومحمد بن إسماعيل بن جعفر.

وهو الإمام القائم المهدي وهو رسول. وهو حي لم يمت وإنه في بلاد الروم ومعنى القائم عندهم أنه يبعث بالرسالة وبشريعة جديدة ينسخ بها شريعة محمد ﷺ. وإن محمد بن إسماعيل من أولي العزم من الأنبياء،

---

(١) الكامل ج ٦ ص ١٧٥.
(٢) المصدر السابق ص ١٨٦.
(٣) المصدر السابق ص ٢٠٤.
(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية، ج ٢ ص ٧٥.

وهم ـ عندهم: نوح ـ وإبراهيم ـ وموسى ـ وعيسى ـ ومحمد ـ ومحمد بن إسماعيل.

وزعموا أن محمد بن إسماعيل هو خاتم النبيين الذي حكاه الله عزّ وجلّ في كتابه، وأن الدنيا اثنتا عشرة جزيرة، في كل جزيرة حجة وأن الحجج اثنا عشر ولكل حجّة داعية ولكل داعية (يد). يعنون بذلك أن اليد رجل له دلائل وبراهين يقيمها ويسمىٰ الحجة الأب والداعية الأم، واليد الابن يضاهون قول النصارى في ثالث ثلاث.

وهم من الباطنية القائلين بأن جميع الأشياء التي فرضها الله تعالى على عباده وسنّها نبيه ﷺ وأمر بها فلها ظاهر وباطن. وأن جميع ما استعبد الله به العباد في الظاهر فأمثال مضروبة وتحتها معان هي بطونها. وعليها العمل وفيها النجاة. وأن ما ظهر منها ففي استعماله الهلاك والشقاء وهؤلاء القوم أي القرامطة قد استحلّوا أعراض الناس بالسيف وقتلهم واعتلُّوا في ذلك بقول الله عزّ وجلّ: ﴿لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ وزعموا أنه يجب عليهم أن يبدؤوا بقتل من قال بالإمامة من ليس على قولهم. وخاصة من قال بإمامة موسى بن جعفر وولده من بعده. وتأولوا في ذلك قول الله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ﴾[1].

وذكر بروكلمان: أنهم يؤمنون بالشراكة بالأموال، وبالتأويل الباطني للشريعة، ويعدّون المريد إعداداً ليأخذ أخيراً بالطاعة العمياء للجماعة ولرؤسائه، وحرر من جميع القيود العقائدية، ومن جميع أغلال القانون في وقت واحد[2].

وذكر ابن الأثير صلاة خاصة تختلف عن صلاة سائر المسلمين وأذاناً

---

(١) موسوعة الإمام المهدي ج ١ ص ٣٥٦.
(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية، ج ٢ ص ٧٣.

يختلف عن أذانهم، يذكرون فيه الأنبياء من أولي العزم واحداً واحداً. وذكر أن قبلتهم بيت المقدس وعطلتهم يوم الاثنين.

إن صاحب الزنج وأتباعه والقرامطة هم أنموذج ظهروا في زمن من تاريخنا الإسلامي وقد ذكرناهم في كتابنا على وجه التقريب لجماعات ظهرت في عصرنا الحاضر يخوضون غمار البؤس والصرامة والشدّة والاستهانة بدماء المسلمين فأحدثوا الفتنة والغوغاء والعبث في مجال الجدل العقائدي لوضع العثرات والفجوات في طريق المسلمين مثلما عبَّر واقع التاريخ قديماً عن شرور تلك الجماعات التي تحرّكت بنفس الاتجاه. فإن واقع التاريخ المُعاش يؤكد على الأحقاد والضغائن والفتن لا تقتصر على زمن دون غيره.

فما يحصل اليوم من مآسٍ كبرى أشغلت بتأثيرها الموجع العالم بأسره، لم يقتصر في غالب نشاطاته الإجرامية على فئة محددة من المقيم العراقي المعاصر وإنما أطلقت العنان لفتاوى التكفير للتصريح بالقتل متخذين من الدين حصانة تمكّنهم من إحداث التنكيل الفعلي المكشوف خلاصته فتح آفاق نشاط إجرامي لتاريخ مضىٰ بقيت مطوية وغامضة أمام الكثيرين الذين أرادوا نسيان مواجع الأمة وتاريخها الحافل بالمظالم والاتهامات والجرائم التي ملأت صفحات التاريخ. ذلك التاريخ الذي قدّر لنا اليوم أن نطّلع على بعض من صوره مثلما أعطاها ووضّحها المؤرخون في كتبهم في تلك الفترات نسعى اليوم جاهدين لنؤرخ في كتبنا اليوم وفق استيعابنا للأحداث التي أرّقت العقل والفكر معاً بما لا يمكن تخيّله. وها نحن ننفض الحقائق وندوّن الملاحظات ونعزل الأفكار المشوشة بالشكل الذي ننظمها بحيث يستطيع القارىء أن يميز ما بين صادق منها وكاذب.

ونحن ندوّن للتاريخ ولشعبنا الذين يعيشون هذه الأزمة التي زلزلت الأرض تحت أقدامهم وجعلتهم مبهوتين مما يحصل لبلادهم.

★ خلافة المعتضد (٢٧٩ ــ ٢٨٩ هـ/٨٩٢ ــ ٩٠٢ م)

وهو أبو العباس أحمد بن طلحة المعتضد بالله، وقد استمرت خلافته تسع سنين وتسعة أشهر وكان له من العمر أربعون سنة.

وسمي بالسفاح الثاني لقسوته وإقدامه على سفك الدماء والرغبة الجامحة في القتل بعدما كان لقب السفاح يطلق على الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح فكلاهما نجح في إدارة البلاد بقوة الحديد والنار.

خلاف ما ذهب إليه بعض المؤرخين على أنه نشر العدل ورفع الظلم عن الرعية.

«كما عرف المعتضد باسم الخليفة الدموي أبي العباس المعتضد لأنه كان شديد الرغبة في سفك الدماء وتعذيب ضحاياه بأساليب بشعة كما كان يسكن روحه حمى الشهوات شبق جنسي وميل جارف لبناء القصور الفخمة»[1]. وقد وقعت في عهده حوادث كثيرة حصلت في فترة حكومته الطويلة التي استمرت زهاء العقد من الزمن كان أشهرها ما تعرّض له العراق جرّاء ثورة الزنوج. كما أصدر المعتضد أحكاماً كثيرة بالإعدام كان أشهرها بحق مجموعة من الرجال وردت أسماؤهم على أنهم يعرفون رجلاً علوياً سيقود الثورة في قلب بغداد.

وكان من ضمن هذه المجموعة رجلاً عرف باسم (شميلة) الذي تعرّض لاستجواب طويل حاول المعتضد إغراءه بالمال ولكن الرجل أظهر إباءً،

---

(١) مروج الذهب للمسعودي، ص ٢٤٧.

فراح يهدده بالويل والعقاب الشديد. فرد عليه شميلة متحدياً عنجهية المعتضد:

لو شويتني على النار فلن تسمع مني إقراراً، أتريدني أن أدلّك على رجل أعتقد بإمامته وأدعو الناس إلى طاعته (الإمام المقصود هو المهدي عليه السلام محمد بن الحسن العسكري) فاشتعلت عينا الخليفة بالشرر، وقال وهو يصر على أسنانه بغيظ: سوف أشويك بالنار كما قلت ـ فأجابه الرجل ـ اصنع ما تشاء.

وبالفعل أمر المعتضد بشويه كما تشوى الدجاج وكان يتلذذ بآلام هذا الرجل العلوي دون أن يكترث لرائحة شواء لحم بشري إلى لحظة لفظ أنفاسه الأخيرة وعندها أمر خليفة المسلمين!! أن يصلب الجسد بين الجسرين على الجانب الغربي. واستمرّت التقارير السرية تردّ على قصر المعتضد تفيد بوجود مثل هذا العلوي الذي كان يسمىٰ مرة بالحجّة أو صاحب الزمان، ولا يوجد اسم صريح يمكن التعرّف عليه من قبل رجال السلطة الحاكمة.

ولشدة ولع المعتضد بأساليب التعذيب فقد عمد إلى تعذيب الخدم والجواري حتى الموت. وألقى في السجن آخرين ليس لسبب إلاّ لشبقه بشم رائحة الدماء والتلذذ بآلام الناس الذي ينتهي أمر كتابهم إليه حيث كان يشرف على تعذيبهم شخصياً بمختلف الطرق والوسائل البشعة ومات وهو مقتول.

★ خلافة المكتفي بالله (٢٨٩ ــ ٢٩٥ هـ/٩٠٢ ــ ٩٠٨ م)

وهو علي بن أحمد المعتضد وله من العمر عشرين سنة وكانت مدة خلافته ست سنين وستة أشهر.

وحدث في عهده ظهور القرامطة وفتنتهم من جديد. فأرسل إلى قتالهم

جيشاً كبيراً، يفوق قوات القرامطة أضعافاً مضاعفة، لذا شعر ابن أبي الساج قائد الجيش العباسي بالغرور وأمر بإعداد كتاب الفتح قبل أن تبدأ العمليات الحربية ونشبت المعركة في ضحى يوم السبت ٩ شوال واستمرّت حتى الغروب وقاد أبو طاهر القرمطي هجوماً مدمراً حطّم فيه خطوط الجيش العباسي الذي انهار فجأة ووقع يوسف بن أبي الساج في أسر القرامطة ووكّل أبو طاهر طبيباً يعالج جراحه. وصلت فلول المنهزمين إلى بغداد حفاة عراة وكان لمنظرهم المأساوي الأثر الرهيب في بث الرعب في المدينة وأصدر نازك قائد الشرطة العام أمراً بمنع التجوّل ليلاً ونفّذ الإعدام بالمتخلفين وبدأ سكان بغداد يعدّون العدّة للفرار من المدينة إلى همدان في إيران، فيما وصلت أنباء مؤكدة أن القرامطة في طريقهم إلى الأنبار[1].

ويبدو أن أهل بغداد كانوا يعدّون أنفسهم للفرار دوماً عندما يشعرون بأن مدينتهم في خطر وقد مرّ عليهم الكثير من الأحداث التي ولّوا عنها فارّين إلى إيران كلما شعروا بالخطر يحدق بهم.

ولم يسلم عهد المكتفي بالله من زلزلة عظيمة هزّت بغداد كلها، ودامت أياماً ذهب ضحيتها خلق كثير، وهبّت ريح بالبصرة لم يُرَ مثلها وزادت مياه دجلة زيادة كبيرة ففاض الماء وأغرق الأرض وخرب الديار والزروع.

★ خلافة المقتدر (٢٩٥ ــ ٣٢٠ هـ/٩٠٨ ــ ٩٣٢ م)

وبعد وفاة المكتفي بالله بويع أخاه المقتدر بالله بالخلافة وكان له من العمر ثلاث عشرة سنة وكانت مدة خلافته أربعاً وعشرين سنة وأحد عشر شهراً ويعدّ من أكثر الخلفاء العباسيين بقاءً في الحكم.

يقول المؤرخون: إن عهده كان عهد فتن وقلاقل فقد ترك النساء

---

(١) الإمام المهدي، نظرة في التاريخ ورؤية للمستقبل، كمال السيد، ص ١٠٥.

يتدخلن في أمور الدولة ويصرِّفن شؤونها، فقد ذكر ابن الأثير أن هذا الخليفة اشتهر بعزل وزرائه والقبض عليهم والرجوع إلى قول النساء والخدم والتصرّف على مقتضى آرائهن، واستكثر هذا الخليفة من الخدم والمماليك من الروم والسودان وقرّبهم فكانوا في أول عهده ألف ومائة، ثم زادوا حتى بلغ عددهم أحد عشر ألفاً. فولّى زعماءهم المناصب الرفيعة (وهو أول من فعل ذلك) فكانوا عوناً له في البداية ثم وبالاً عليه.

اضطربت الدولة العباسية في عهد المقتدر فخرج عليه «مؤنس الخادم» أحد القوّاد سنة ٣١٧ هـ/ ٩٢٩ م وأرغم هذا الخليفة على الهرب، وبايع هو وغيره من الأمراء محمد بن المعتضد ولقّبوه «القاهر بالله» وطلب الجند أرزاقهم في الوقت الذي قامت فيه الاحتفالات بتقليد الخليفة الجديد للخلافة، وحملوا المقتدر على أعناقهم وردّوه إلى دار الخلافة وعزلوا القاهر، فأخذ يبكي ويقول: الله الله في نفسي! وهنا استدناه المقتدر وقبله وقال له: يا أخي أنت والله لا ذنب لك والله لا جرى عليك مني سوء أبداً فطب نفساً.

وتحرّكت فتنة القرامطة من جديد فنزلوا البصرة سنة ٢٩٩ هـ/ ٩١٢ م والناس في الصلاة وخرج أهلها للقائهم وأغلقت أبواب البصرة في وجوههم ولكنهم عادوا سنة ٣١١ هـ/ ٩٢٤ م واقتحموا أسوارها وسعوا فيها فساداً مدة سبعة عشر يوماً يقتلون ويأسرون ويستولون على الأموال ثم قفلوا راجعين إلى هجر بالبحرين.

وفي سنة ٣١٣ هـ/ ٩٢٦ م قام القرامطة باعتراض الحجيج بعد أن أدّوا الفريضة فقطعوا عليهم الطريق، وأسروا نساءهم وأبناءهم.

وثار الناس في بغداد، وكسروا منابر الجوامع يوم الجمعة، وناحت النساء في الطرقات وطالبن بالقصاص من القرامطة وأعوانهم.

وظل مسلسل عدوان القرامطة على المدن والحجاج يتكرر كل عام وليس هناك من يؤدبهم أو يوقفهم عند حدّهم. وظهر القرامطة على مسرح الأحداث في سنة٣٢٣ هـ وزاد خطرهم حين دخلوا بغداد مهددين الخليفة نفسه، فاختلفوا فيما بينهم واقتتلوا وتفرّقت كلمتهم.

وفي هذه السنوات الطويلة التي شهدتها الخلافة في عهد المقتدر فإنها لم تخفِ آثار مطاردة العلويين والتضييق عليهم ومحاربتهم والاعتداء عليهم.

ففي عهده قتل ابن الرضا محسن بن جعفر بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد في أعمال دمشق وحمل رأسه إلى بغداد، فنصّب على الجسر، كما أمر المقتدر بقتل الحسن بن علي الأطروش.

الفصل السابع

عصر الأمراء

★ خلافة القاهر (٣٢٠ ــ ٣٢٢ هـ/٩٣٢ ــ ٩٣٤ م)

بويع القاهر بالخلافة بعد وفاة المقتدر وهو محمد بن أحمد المعتضد بالله، وكانت مدة خلافته سنة وستة أشهر وقد انتشرت في عهده الفتن الداخلية، واضطربت الدولة فقام رجال دولته على خلعه وسملت عيناه وحبس وظل فيها حتى مات.

ورأى الناس في عهده ما لم يروه ممّن قبله من سوء التدبير وسفك الدماء ونكث العهود والغدر حتى أن القوّاد ورجال الدولة والعلماء ندموا على مساعدتهم له ومبايعته فانقلبوا عليه.

وتشير المصادر التاريخية بأنه قد حدث خلاف بين القاهر بالله وبين رجاله (مؤنس وبليق الحاجب وعلي بن بليق والوزير أبو علي محمد بن الحسين بن مقلة) فاجتهد القادر بإيقاعهم بمكيدة تخلّص منهم جميعاً فأمر بذبحهم فطيف بالرؤوس في جانبي بغداد ونودي عليها: هذا جزاء من يخون الإمام ويسعى في فساد دولته. ثم أعيدت الرؤوس ونظفت وحفظت في خزانة الرؤوس في قصر الخلافة كما جرت العادة.

★ خلافة الراضي (٣٢٢ ــ ٣٢٩ هـ/٩٣٤ ــ ٩٤١ م)

هو محمد بن جعفر المقتدر وكانت مدة خلافته ست سنين وأحد عشر شهراً، وأصبحت الخلافة في عهده من الضعف بحيث لم يستطع الخليفة على دفع أرزاق الجند أو أن يحصل على ما يكفيه حتى قتل في بغداد سنة ٣٢٩ هـ/ ٤٩١ م.

والخليفة الراضي هو أول من كفّت يده عن بيت المال وأول من اخترع لقب أمير الأمراء في الإسلام.

إن شأن الخلافة العباسية أخذ بالضعف منذ تدخل الأتراك في الأمور أيام المعتصم. ومن جاء بعده وازداد ضعفاً على ضعف أيام الراضي وانقسمت المملكة الإسلامية دولاً تولّى كل منها أمير استقلّ بها. غير أن أكثر هؤلاء الأمراء كانوا يعدّون الخليفة رئيسهم الديني.

ولكننا لا نجد إشارات واضحة في الكتب والمصادر التاريخية تشير إلى ذلك بوضوح، فقد كان الأتراك السبب الرئيسي وراء تدمير الوحدة الإسلامية أكثر من الفرس على الرغم من أن القوتين التركية والفارسية لم تكن تتردد في إيقاع الفتن والاضطرابات بين المسلمين بغية إضعافهم. وهذا ما يبرر الكثير من الفتن والاقتتال الذي كان يحصل مراراً بين أهالي بغداد كان معظم انطلاقاتها طائفية بحتة.

★ خلافة المتّقي بالله (٣٢٩ ــ ٣٣٣ هـ/٩٤١ ــ ٩٤٥ م)

وهو أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر، وكانت مدة خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهراً وثلاثة وعشرين يوماً.

وذكر المسعودي في كتابه:

وخلع من الخلافة وسملت عيناه عندما قبض عليه توزون التركي وعلى

وزيره وأهله والبعض من رجاله وأخذ كل ما معه وسمل عينه وسار بالجميع إلى بغداد وأحضر المكتفي فبايعوه بالخلافة ولقّبوه المستكفي بالله.

وفي عهده تعرّضت بغداد لنكبة جديدة على يد أبي عبد الله البريدي الذي سيّره أخاه أبا الحسين سنة ٣٣٠ هـ في جيش كبير من الأتراك والديلم، وقد استولى عليها مخترقاً التحصينات التي هيأها أميرها ابن رائق، ولم تستطع العرادات والمنجنيقات التي نصبها على دجلة الصمود طويلاً، كما لم يستطع العامة والعراة الذين جنّدهم ابن رائق الوقوف في وجه المهاجمة. وبينما فرّ الخليفة المتّقي بالله والأمير ابن رائق[١] عنها إلى الموصل مقرّ إمارة الحمدانيين عاث جند البريديين بها قتلاً ونهباً وهتكاً للأعراض فأتمّوا ما بدأه بعض العامة بها[٢].

★ فتنة البريديين:

تمكن أمراء الموصل الحمدانيون[٣] من تخليص بغداد من البريديين[٤] وإعادة المتقي لله الى مقر الخلافة. وبقوا بجانبه في بغداد الىٰ أن تمكن الأتراك بزعامة توزون أن يطردوهم ويحملوهم علىٰ العودة الى الموصل سنة ٣٢١هـ ـ ٩٣٣م وقد رافقت نشأة الحمدانيين ضعف الدولة العباسية، وغروب

---

(١) قتل سنة ٣٣٠ هـ/ تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص ٣١٣، ومعجم الأنساب لزامباور، ص ١٩.

(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٦/ ٢٨٣.

(٣) **الحمدانيون:** أمراء الموصل التغالبة، اشتهر منهم ناصر الدولة صاحب الموصل الذي تولىٰ امرة الامراء للمتقي، توفي سنة ٣٥٨هـ.
(الاعلام للزركلي ٢/ ٢١٠)، وأخوه سيف الدولة (٣٠٣ ـ ٣٥٦هـ) الذي نقل مركز إمارته الى حلب ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي، ص٣١٦ والاعلام للزركلي ٥/ ١١٨.

(٤) **البريديون:** أسرة أستولت على جنوب العراق مدة. اشتهر منها أحمد بن محمد البريدي أبو عبد الله (ـ ٣٣٢هـ).وعبد الله بن محمد البريدي أبو الحسين (ـ ٣٣٣هـ) ـ تاريخ الخلفاء للسيوطي ص٣١٦ ـ معجم الانساب لزامباور،ص٢١ وقد نزل ببغداد مصائب كبيرة علىٰ يد البريديين حتىٰ عرفت بنكبة بغداد الثالثة.

شمسها ويشاء الله أن يشهد الحمدانيون الأحداث التي هزت الامبراطورية الاسلامية هزة انتهت الى فرط عقدها وظهور دويلات وإمارات مستقلة على يد الأتراك والفرس والكرد وبعض القبائل العربية وهي: الإمارة الأموية في الاندلس وتنسب الى عبد الرحمن الداخل (١٣٨ ـ ٤٢٢هـ/ ٧٥٠ ـ ١٠٣١م).

الدولة الرسمية (١٦٠ ـ ٢٩٦هـ/ ٧٧٧ ـ ٩٠٩م) في المغرب الأوسط (الجزائر) وتنسب الى مؤسسها الرحمن بن رستم زعيم الخوارج الأباضية، دولة الأدارسة في المغرب العربي (١٧٢ ـ ٣٦٤هـ/ ٧٨٩ ـ ٢٩٧٥) وتنسب الى مؤسسها إدريس بن عبد الله العلوي ـ دولة الأغالبة (١٨٤ ـ ٢٩٦هـ/ ٨٠٠ ـ ٩٠٩م).

القيروان (تونسى) ومؤسسها ابراهيم بن الأغلب والدولة الطاهرية في خراسان (٢٠٥ ـ ٢٥٩هـ/ ٨٢١ ـ ٩٧٣م) مؤسسها طاهر بن الحسين ـ الدولة الصفارية في خراسان (٢٥٤ ـ ٢٩٠هـ ـ ٨٦٨ ـ ٩٠٣) ومؤسسها يعقوب بن الليث الصفار ـ الدولة السامانية في بخارى (٢٦٦ ـ ٣٨٩هـ/ ٨٨٠ ـ ٩٩٩م) ومؤسسها نصر بن أحمد الساماني ـ الدولة الغزنوية في غزنة ومؤسسها سبكتكين (٣٥١ ـ ٤٨٣هـ ـ ٩٦٢ ـ ١١٨٦م.

الدولة الطولونية في مصر (٢٥٤ ـ ٢٩٢ ـ ٨٦٨ ـ ٩٠٥م) ومؤسسها أحمد بن طولون

الدولة الإخشيدية في مصر (٣٢٣ ـ ٣٥٨ ـ/ ٩٣٥ ـ ٩٦٩م) ومؤسسها محمد بن طغج الإخشيد الدولة الحمدانية في الموصل (٣١٧ ـ ٣٩٩ ـ ٩٢٩ ـ ١٠٠٩م) ومؤسسها حمدان بن حمدون.

الدولة الفاطمية في مصر ومؤسسها عبيد الله بن محمد (٣٥٨ ـ ٥٦٧هـ/ ٩٦٩ ـ ١١٧٢م).

الدولة الأيوبية الشام ومصر واليمن وبلاد الحجاز ومؤسسها صلاح الدين يوسف بن أيوب (٥٦٧ ـ ٦٤٨هـ ـ ١١٧٢ ـ ١٢٥٠م).

دولة المماليك في مصر (٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ ـ ١٢٥٠ ـ ١٥١٧م).

★ خلافة المستكفي بالله (٣٣٣ ــ ٣٣٤ هـ/٩٤٥ ــ ٩٤٦ م)

هو أبو القاسم عبد الله بن علي المستكفي حيث استمرّت خلافته سنة وأربعة أشهر ثم خلع منها.

وفي عهده قوي أمر الأتراك ببغداد وعظم شأنهم فلم يكن بيده من الأمر شيئاً بل كان الأمر كله للأتراك.

«واضطربت بغداد لهذا الأمر وكثرت فيها السرقات والنهب فانهزم أكثر التجار وأهل الوجاهة منها، وتقاعد الناس عن الأعمال والزراعة فغلت الأسعار وقطعت الطرقات وأصبحت بغداد وما جاورها في فوضى فلما ضاق الأمر بالناس وسئموا تجبّر الأتراك وظلمهم وغدرهم بالخلفاء استغاثوا سراً بأحمد بن بويه فسار بجيوشه من الديلم مغتنماً فرصة الاضطراب فحالفه النصر وأسّس الدولة البويهية»[١].

ولم تنج بغداد من اختلاط الأمور والفتن، ففي عام ٤١٦ تعرّضت إلى الفوضى وإرباك الحياة والسلب والنهب والقتل بيد السراق والعياريين[٢]. وعام ٤١٧ بيد الأتراك حتى أحرقوا المنازل والدروب[٣].

وللأسف كانت تقع حوادث مؤسفة بين أهل الإسلام من المذاهب المختلفة والسبب الحقيقي وراء أغلب الفتن والاقتتال التي كانت تحدث في بغدادهم المستعمرون والجهلة المتعصبون.

ورغم أن البويهيين قد أحسنوا للشيعة إلا أنهم قد أساؤوا للعراق فكان الانطباع على أنهم محسنون لأهل مذهبهم من خلال إطلاق الحرية لإقامة

---

(١) مختصر تاريخ بغداد، علي ظريف الأعظمي (١٨٨٢ ـ ١٩٥٨)، ص ٤٥.
(٢) الكامل ج ٧ ص ٣١٤.
(٣) المصدر السابق ص ٤٢٣.

شعائرهم وأعيادهم ومآتمهم إلا أن ذلك كان له أثراً سيئاً لدى باقي المذاهب الأخرى، فقد سارت الدولة الحمدانية في حلب عكس ذلك المنهج، وبالمقابل أيضاً كان أصحاب المذاهب الأخرى تحاول أن تغتنم أية فرصة مؤاتية للنيل من الشيعة وهذا ما كان يسبب اندفاعاً طائفياً مؤسفاً يفسح المجال لنموّ روح الطائفية المقيتة والفتنة البغيضة، وجاء السلاجقة ليثيروا ما استطاعوا الفتنة ويؤججوا نيرانها بين البغداديين فأسهم بضعفهم وتفككهم، فبعد دخول السلطان طغرل بك أول ملوك السلاجقة إلى بغداد عام ٤٤٧ فقد ترتب على دخوله قلاقل وحروب مؤسفة وعمّ الخلق ضرر عسكره وضاقت عليهم مساكنهم، فإن العساكر نزلوا فيها وغلبوهم على أقواتهم وارتكبوا فيها كل محذور[١].

إن الوقائع التاريخية كشفت عدم قيام البويهيين بفرض مذهبهم الشيعي كمذهب رسمي سواء في بلاد فارس أو في العراق. ولم يدفعوا السكان إلى الالتزام به فرضاً، وهذا ما يؤكد عدم قيام البويهيين في إقامة دولة شيعية مثلما كانت عليه دولة أوذة الشيعية في الهند.

فلم يكن ذلك الاتجاه أحد أهدافهم على الإطلاق على الرغم من أن الشيعة في العراق قد حصلوا على الحرية الدينية والفكرية، وتخلصوا من الظلم والاضطهاد الذي كانوا يعانون منه، وأخذوا يتحركون بصورة علنية نتيجة وثوقهم بوجود سلطة تحميهم وتدافع عنهم. فالبويهيون كانوا على علم بأن الاختلاف المذهبي والصراعات الحادة بين مختلف الأطراف الداخلية والمحيطة به سيكون من الصعب السيطرة عليه وبالتالي صعوبة السيطرة على الحكم في بغداد مركز الخلافة العباسية السنية وبلاد فارس التي تشكل مقاطعة سنية أيضاً.

---

(١) الكامل ج٧ ص ٧٧.

وأمام وجود أكبر فئتين متصارعتين وهما الحنابلة والشيعة والذي كان يأخذ ذلك الصراع جانباً متشدداً ومتطرفاً دون إعطاء المساحة المناسبة للاعتدال والتوافق السلمي. وجد البويهيون أن إنعاش حكمهم يتم من خلال الانفتاح والمرونة والحكمة في السياسة والعمل على نشر الأمن وتأمين الاستقرار في البلاد ورعاية مصالح عامة الناس وأمنهم.

إلا أن الأتراك دأبوا على إثارة الفتنة في بغداد كالتي حدثت سنة ٣٦٣ هـ والتي قادها سبكتكين التركي أراد بها الاستيلاء على الدولة في عهد عزّ الدولة البويهي حيث انقسم البغداديون إلى حزبين وهم أنصار الأتراك وكانوا من السُّنة وأبناء عمومتهم الشيعة وهم أنصار الديلم. وبعد قتال دام أياماً في شوارع المدينة وأسواقها تمكّن السُّنة من الشيعة وأحرقوا دورهم ولمّا حاول البويهيون الإحاطة ببغداد بجيوشهم للقضاء على الأتراك عانى البغداديون كثيراً واضطرب الأمن وكثر النهب والسلب وسادت الفوضى فيها إلى أن تمكّن البويهيون من هزيمة الأتراك وعلى رأسهم قائدهم أفتكين. واستلم عزّ الدولة زمام الأمور وشرع يعمّر ما أفسدته الفتن ببغداد.

«وفي عهد جلال الدولة ٤١٦ ـ ٤٣٥ هـ لسوء تدبيره وضعف رأيه وعدم قدرته في تطويع الأتراك لأمره كثرت الفتن في بغداد من جديد، وتوالى فيها شغب الأتراك وعظم أمرهم فيها وكثر المفسدون واللصوص وانتشر الأعراب في البلاد، فنهبوا النواحي وقطعوا الطرق وبلغوا أطراف بغداد حتى وصلوا إلى جامع المنصور وسلبوا ثياب النساء في المقابر. بل إن الفوضىٰ عمّت في أيامه جميع البلاد العراقية وكثر السلب والنهب والقتل وضعف أمر الدولة البويهية في العراق، وخصوصاً بغداد. حتى حاول البغداديون ترك وطنهم لعدم الأمن وشيوع الفوضى في المدينة وما يليها. ولكنهم لم يروا إلى ذلك سبيلاً لانقطاع الطرق وانتشار اللصوص في كل الجهات.

ومع عجز الدولة وضعفه لقّب سنة ٤٢٩ هـ بملك الملوك وتوفي ببغداد سنة ٤٣٥ هـ وفي عهده توفي الخليفة القادر بالله فبويع بالخلافة لابنه جعفر عبد الله ولقّبوه القائم بأمر الله (٤٢٢ ـ ٤٦٧ هـ/ ١٠٣١ ـ ١٠٧٤ م)[١]. وفي عهد الملك الرحيم آخر الأمراء البويهيين والذي في عهده بلغت دولة بني بويه في العراق من الضعف والفوضى إلى درجة محزنة وحدثت على أثرها في بغداد فتنة جديدة بين السُّنة والشيعة قتل فيها خلق كثير لعدم تمكّن الحكومة من قمع الفتنة التي كانت تقوم بها تارة من أجل المناصب وأخرى من أجل التعصب المذهبي الذي كان هو السبب الأكبر لتمزيق الأمة ومحوها. وقد قتل في إحدى الفتن ببغداد مدرّس الحنفية أبو سعيد الرخبي وأحرقت دور الفقهاء وضريح الإمام موسى بن جعفر وقبر زبيدة زوجة الرشيد وقبور الخلفاء وقبور ملوك بني بويه وذلك سنة ٤٤٣ هـ وعلى أثر تلك الفتن وانحلال أمور الدولة طمع طغرل بك السلجوقي في الاستيلاء على العراق فتقدم إلى بغداد بعد أن فتح بلاداً كثيرة فاستولى عليها وقرض الدولة البويهية من العراق بعد أن حكمته مائة وثلاث عشرة سنة من تاريخ استيلاء معزّ الدولة أحمد على بغداد إلى آخر أيام الملك الرحيم. وعدد الملوك البويهيين الذين ملكوا العراق عشرة»[٢].

ويبدو أن أنصار المذهب الشيعي انحصروا في فئة رجال الفكر والعلم، وكذلك كانت حالة المعتزلة الذين عادوا للانتعاش خلال الحكم البويهي وتولّى الكثير منهم مراكز مهمة في الدولة. لذلك فقد فشلوا في كسب ثقة وتعاون الأمراء الشيعة داخل العراق رغم كونهم من أتباع المذهب الشيعي، لأنهم جعلوا من الاعتبارات السياسية فوق الاعتبارات المذهبية وانقادوا

---

(١) مختصر تاريخ بغداد، ص ٦٠ ـ ٦١.

(٢) مختصر تاريخ بغداد ص ٦٢ ـ ٦٣.

لتوفير أجواء التسامح لضبط الصراعات الداخلية، لذا فإن سقوط الدولة البويهية لم يأتِ بسبب نهضة أهل العراق للتخلّص من حكمهم وإنما جاء انهيار حكمهم لأسباب وضغوطات خارجية متمثلة بالتهديد العسكري والحربي الذي شنّه السلاجقة. وكان آخر ملوكهم أبو نصر الملقّب بالملك الرحيم وبه انتهى حكم الدولة البويهية سنة ٤٧٤ هـ والذي امتدّ على مدى ١٥٣ سنة.

الفصل الثامن

العصر العباسي الثالث

عصر نفوذ البويهيين

(٣٣٤ ــ ٤٤٧ هـ/٩٤٦ ــ ١٠٥٦ م)

أصل البويهيين:

اختلف الكثير من المؤرخين في أصل نسب البويهيين. فيذكر ابن خلكان، أن الصابي ذكر في كتابه (التاجي) أنهم يرجعون في نسبهم إلى (بهرام جور بن يزدجر) الملك الساساني، أما ابن الأثير فيرى أن نسبهم إلى قوم الديلم بسبب طول مقامهم ببلادهم في حين..

إن الأصفهاني الذي هو أكثر المؤرخين معرفة بأصول ملوك الفرس فرغم أنه يجعل للبويهيين أصلاً يعود إلى الملك الساساني (بهرام) إلا أنه يعود ويذكر أن (علي بن بويه) كان زعيماً لإحدى قبائل الديلم تسمى (شير ذيل أونون) تقيم في قرية كياكاليش في ديلمان. البويهيون على الأرجح ينتسبون إلى الديلم[1] سكان المنطقة الجبلية في مقاطعة جيلان من بلاد فارس وكان من بين من خرج مع ملك الديلم ناصر الدين الأطروش هو

---

(١) الديلم: جيل من الفرس وكانوا شيعة.

علي بن بويه وعندما تولى الحسن بن القاسم الداعي خلافة الناصر أرسل ولديه أحمد وجعفر لمقاتلة السامانيين فكان من الذين برزوا في قتال السامانيين أبو شجاع بن بويه بن فناخسرو وكان لأبي شجاع ثلاثة أولاد قامت على أكتافهم الدولة البويهية وهم: عماد الدولة أبو الحسن علي، وركن الدولة أبو علي الحسن، ومعزّ الدولة أبو الحسين أحمد.

وتمكن البويهيون من بسط نفوذهم على بغداد في عهد الخليفة العباسي المطيع لله (٣٣٤ ـ ٣٦٣ هـ) ولم يبقوا للخلافة غير نفوذها الاسمي وكانت الدولة البويهية تدار من شيراز قاعدة أمير الأمراء البويهي في حين يتمتع سلطان بغداد بالاستقلال. وعلى الرغم من أن البويهيين في عصر ظهورهم قد ناصروا الشيعة في العراق الذين كانوا يعيشون في ظل أشد الاستغلال والمذلّة والضعف وتمارس بحقهم أبشع أنواع الظلم والطغيان والبطش، وكانت نشاطاتهم الفكرية والدينية يتم التصدي لها بالقوة مع استبعادهم عن الجهاز الحكومي وبخاصة دوائر القضاء والحسبة والوظائف المهمة الأخرى في الدولة التي كانت كلها مدعومة بالوجود السُّني، وكان من أبرز آثارها تقلّص نفوذ الفكر الشيعي وظهور الموجة المناهضة لفكرها.

وكان الشيعي يعامل وكأنه كافر وكثيراً ما كان يكلفه ذلك حياته في مجتمع ودولة غارقة في الطائفية. ومن الطبيعي عندما تمكّنت الدولة البويهية من فرض سيطرتها على مقاليد الحكم في بغداد وهي شيعية المذهب أن يكون دأبها نشر العلوم الدينية الشيعية والتخفيف عنهم. وأن تزيل الحيف عن الشيعة بعد كل ما لاقوه من ظلم وإجحاف مما تسبب ذلك في إحداث فتنة كبيرة بين السنة والشيعة لجأ فيها السنة إلى استخدام العنف والاغتيالات واستهداف علماء الشيعة والمدارس الدينية. على أثرها انتقل شيخ الطائفية الشيعية الطوسي(رحمه الله) بحوزته العلمية من بغداد إلى النجف الأشرف عام

٤٤٨هـ. إذ لم تعد بغداد ترضىٰ بمقام المرجعية الدينية فيها، وكما لم تعد صالحة أيضاً لاحتضان الحوزة العلمية جرّاء ما تعرّضت له من استهداف.

وعلى الرغم من أن البويهيين كانوا شيعة إلا أن شيعة بغداد لم يستغلّوا ذلك التميز للإيقاع بالسُّنة وإنما كان جلّ اهتمامهم تأدية شعائرهم الدينية وقد دأب العلماء الشيعة في ذلك الوقت نشر العلوم الدينية في جميع بقاع الأرض. وقد اتّسعت الشعائر الحسينية خلال مدة حكم آل بويه في العراق وإيران وفيما روته بعض كتب التاريخ ومؤلفات السير أن آل بويه ـ أول من بادروا بتخليد ذكرى الحسين عليه السلام يوم عاشوراء إذ في محرم سنة ٣٥٢ هـ أمر السلطان معزّ الدولة بتعطيل الأسواق وشلّ حركة البيع والشراء وأن يسقوا الماء بنصبهم القباب في الأسواق وتوزيع الطعام وقراءة المراثي والمناحات في مجالس العزاء وبقيت هذه العادة مستمرة في كل عام من يوم عاشوراء حتى أواسط القرن السادس على عهد السلاجقة[1]. وأن عادة إعلان الحداد العام خلال العشرة الأولى من محرم إكرام كانت من أهم ما أمر به معزّ الدولة البويهي وكان هذا الأمر قد أصدره سنة ٩٦٣ م.

«وقد سجّل التاريخ اهتمام معز الدولة البويهي، وسائر ملوك البويهيين في الدولة العباسية في بغداد عام ٣٥٢ هـ بشأن إقامة مآتم الحسين وأبرزها في هيئة مواكب خارج البيوت. فكانت النساء يخرجن ليلاً، ويخرج الرجال نهاراً حاسري الرؤوس، حفاة الأقدام، تحيتهم التعزية والمؤاساة بمأساة الحسين عليه السلام ولا تزال هذه العادة إلى الآن في مدن العتبات المقدسة، في العراق وإيران...»[2].

وكان آل بويه يناصرون الشيعة، وقد استكمل التشيع على عهدهم حتى

---

(١) للمزيد انظر: كتاب تاريخ الشيعة في الهند، للدكتور هولبيستر.
(٢) السيد جواد الشهرستاني، نهضة الحسين، ص ١٦٠.

أن معزّ الدولة أمر سنة ٣٥٢ هـ بإقامة المآتم في عاشوراء وكان هذا المأتم يُعدّ أول مأتم عام في الشوارع والأسواق تشهده بغداد في ذلك العهد.

وإن ما ميّز ذلك المأتم أن السلطان معزّ الدولة البويهي كان يرتدي رداء الحداد والحزن ويتقدم عسكره المشترك في هذا المأتم.

وكان معزّ الدولة البويهي سلطاناً عادلاً لم يعرف في أيامه أنه اضطهد أو ناصب العداء لأهل السُّنة وإنما كان يؤمن بالحرية الدينية والفكرية وما قام بإحيائه لذكرى الإمام الحسين عليه السلام لأن تلك الذكرى أراد الخلفاء العباسيون وقبلهم الأمويون إلى طمسها بل كانوا يقتلون ويصلبون كل من يحاول إحياء هذه الذكرى أو يتجرأ على ذكر الإمام الحسين عليه السلام على أيامهم.

«وكان معز الدولة البويهي مع وزرائه وأعيان دولته يزور الإمامين عليهما السلام في كل خميس، وكان يبيت مع هؤلاء ليلة الجمعة في بيت فخم أعدّه حول المشهد، ثم يرتحل نهار الجمعة بعد تجديد الزيارة إلى محل الحكم.

وفي سنة ٣٥٢ هـ أمر بإقامة العزاء لسيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام في شهر محرم وأمر الناس ببغداد أن يغلقوا دكاكينهم في العاشر منه ويعطّلوا الأسواق والبيع والشراء، وأن يظهروا النياحة، ويسبوا قباء عملوها بالمسوح، وأن يخرج الرجال والنساء لاطمي الصدور والوجوه، وكانوا بهذه الحالة يأتون مشهد الإمامين الكاظمين يعزونهما بالحسين عليه السلام وبقيت هذه السُّنة في العراق مدة الحكم البويهي والعزاء الحسيني الذي يُقام اليوم من آثار تلك السنة الكريمة...»[1].

«وما اقتصر آل بويه في خدمة التشيع على مظاهر الفرح يوم الغدير،

---

(١) الشيخ جعفر نقدي، تاريخ الإمامين الكاظمين، ص ٥٥.

وشعائر الحزن يوم عاشوراء، بل كانوا يبذلون جهدهم في خدمة أهل البيت بشتى الوسائل»[1].

واستطرد ابن الأثير في حوادث سنة ٣٨٩ هـ وقال:

«وكذلك عمل السُّنة في ١٨ محرم مثل ما عمل الشيعة يوم عاشوراء، وقالوا: هو يوم قتل فيه مصعب بن الزبير...»[2].

إن ما تقدم في محاولة أهل السُّنة في إحياء مقتل مصعب بن الزبير في محرم هو نكاية في الشيعة بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك حتى أنهم في بعض أحياء بغداد يضربون الدفوف ويوزعون الحلوى ويعلنون مباهج الفرح في العاشر من محرم يوم الحزن لذكرى مقتل الإمام الحسين عليه السلام في موقعة كربلاء بينما الشيعة منشغلون في اجتماعات المآتم الحسينية وعهدهم بذلك يتّصل بعصر الفاجعة الأليمة ولاءً ومحبة لآل البيت عليهم السلام.

«فمن الواضح أن الشيعة قد رجوا من ذكر مصاب الحسين والنواح عليه فوائد لهم والظاهر من الكتب أنهم ابتدؤوا بها من زمن آل بويه في بغداد، حيث كان التنافس بين الفريقين شديداً، والمشاحنات دائبة، كان السنيون يتّخذون عاشوراء يوم سرور لهم لأنها عندهم من الأيام المباركة، والشيعة يتّخذونها يوم غم ومأتم، فيجتمعون في مجتمع، أو ينشد لهم المنشد أشعاراً، فيبكون وينوحون...»[3].

لقد كان من عظيم الشأن لدى بني بويه التبرّك بح آل البيت عليهم السلام وانشغالهم بزيارة مراقد الأئمة وإقامة الشعائر الدينية عند دخولهم إلى العراق.

---

(١) دولة الشيعة في التاريخ، ص ٤٠.
(٢) الكامل لابن الأثير ٩: ١٥٥.
(٣) التشيع والشيعة، أحمد كسروي، ص ٨٧.

«وفي عاشوراء سنة ٤٢٣ هـ/ ١٠٣١ م وعلى عهد جلال الدولة البويهي اجتمع لفيف من شباب الشيعة الإمامية من سكّان الكرخ في مسجد براثا وارتقىٰ الخطيب المنبر، وشرع في بيان النهضة الحسينية وأسباب قيام الإمام عليه السلام ضد الظلم والبغي والاستبداد، ثم سرد فاجعة يوم عاشوراء سنة ٦١ هـ وما جرى على الحسين الشهيد وآله وأصحابه من فتك وسبي على يد جلاوزة بني أُمية. مما أثار شعور المسلمين وألهب فيهم روح الحماس، وبعد نزول الخطيب من المنبر تكتّل المجتمعون الذين جاشت عواطفهم في هذا اليوم الفجيع والتحق بهم عدد كبير من سكان تلك النواحي وساروا نحو المشهد الكاظمي، لاطمين على صدورهم ورؤوسهم، باكين نائحين، ومرددين عبارات الحزن والأسى غير آبهين بأي شيء. ومهرولين تحت تأثير حماء الحزن والكآبة لفاجعة كربلاء من ذلك المسجد حتى انتهواء إلى مشهد الإمامين الكاظمين، وقد أقاموا فيه المناحة والنياحة طيلة ذلك اليوم، مما لم يسبق له مثيل حتى ذلك التاريخ. . .»[١].

وكثيراً ما كان البويهيون حريصين على تعظيم الشعائر الحسينية والانتظام في زيارة العتبات المقدسة الشيعية فضلاً عن أوامرهم بالاهتمام في إعمارها ولم يأبهوا لعظمة السلطان والحكم أمام عظمة ومكانة أهل البيت عليهم السلام. فقد «زار الملك جلال الدولة، أبو طاهر بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه مرة مشهدي علي والحسين(عليهما السلام) وكان يمشي حافياً قبل أن يصل إلى كل مشهد منهما نحو فرسخ، يفعل ذلك تديّناً. . .»[٢].

والجدير بالذكر أن علي بن بويه تمكّن من الاستيلاء على بغداد. لم يعلن العداء والمواجهة سواء مع أهل السُّنة ومع الخلافة، وربما لم تكن

---

(١) الكامل ـ لابن الأثير ـ المجلد ٩ في حوادث سنة ٤٢٢ هـ، ص ٢٨٦.
(٢) الكامل لابن الأثير، في حوادث سنة ٤٢٢ هـ، ص ٢٨٦.

للعباسيين أن تتساهل معهم حتى وهي في أقصى مراحل ضعفها لو سنحت لهم الفرصة لذلك.

وإنما أول ما سعى إليه هو الحصول على اعتراف الخليفة به. فقد أظهر البويهيون على عكس من سبقهم من الأمراء ومن تبعهم المزيد من الاحترام والتنسيق...

«إن الخلفاء العباسيين تعرّضوا في عهد البويهيين الى التبديل أو لمهزلة الانتخاب الشكلي، فلم يستبدل الخلفاء بسرعة كما كان في العصر السابق، فقد حكم المطيع لله ٢٩ سنة (٣٣٤ ـ ٣٦٣).

والطائع ١٨ سنة (٨٣١ هـ) والقادر ٤١ سنة (٤٣٣ هـ)[١].

---

(١) العالم الإسلامي في العصر العباسي، حسن أحمد محمود الشريف، ص ٤٧.

الفصل التاسع

العصر العباسي الرابع

عصر نفوذ السلاجقة

(٤٤٧ ــ ٦٥٦ هـ/١٠٥٥ ــ ١٢٥٨ م)

كانت بداية ظهور السلاجقة[١]، وتوسعهم على حساب الدولة الغزنوية في خراسان حيث أعلن طغرل بك[٢] الولاء والطاعة للخليفة العباسي طالباً الاعتراف به. وازداد الصراع بينهم وبين البويهيين المتمركزين في بغداد ووجد الخليفة العباسي القادر بالله العباسي ظهور السلاجقة الفرصة للتحرر من السيطرة البويهية فضلاً عن مشورة علماء وخاصة السنة في بغداد على ضرورة التخلّص من نفوذ الشيعة المتمثلة بحكم البويهيين، فأمر الخليفة

---

(١) إنهم أتراك ينتسبون إلى جدهم سلجوق، وينتمون إلى قبيلة تركية، وقد نزلوا على نهر سيحون واتصلوا بخدمة التركمان في بلاد ما وراء النهر، وراح جدهم سلجوق يتقدم في خدمة ملك الترك وكان بارع الحديث كريماً، فاستمال الناس إليه، وجمعهم من حوله فانقادوا له وأطاعوه، وخافت زوجة ملك الترك على زوجها منه فأغرته بقتله وعرف سلجوق ما يدبّر له في الخفاء فجمع من حوله، وسار بهم حتى ما جاور المسلمين ببلاد تركستان ولما جاورهم وتعرّف على أخلاق الإسلام أعلن إسلامه على مذهب أهل السُّنة واعتنق الغز الإسلام معه وعندئذ بدأ في غزو كفّار الترك وكان لسلجوق أربعة أولاد هم: أرسلان وميكائيل، وموسى، ويونس.

(٢) هو أحد أحفاد سلجوق تزعم السلاجقة.

بالخطبة لطغرل بك السلجوقي بجوامع بغداد حتى تمكّن السلاجقة من دخول بغداد سنة ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥ م.

ورغم أن الكثيرين ممن رغبوا في قدوم السلاجقة للتخلص من البويهيين إلا أنهم اصطدموا بحقيقة المستعمرين الجدد الذين كانوا يشكّلون مجرد سلطة إقطاعية، لذا فإن غالبية السكان لم يشعروا بالأمان والاطمئنان للسلاجقة حتى بادروا بالثورة عليهم بعد أن ترك السلاجقة نائباً عنهم وجيشاً في بغداد، وكان من أبرز ملامح حكمه في بغداد المبادرة إلى تشجيع الانقسامات القبلية والفتنة الطائفية واضطهاد السكان ونهب موارد البلاد مما دفع بأهل العراق رفض هذه السيطرة وتجمّعوا حول الخليفة العباسي.

فبعد أن نزل طغرل بك بجيوشه بظاهر بغداد أرسل فرقة من جنوده إلى المدينة لتحتلها حسب الأصول المتّخذة يوم ذاك، فانتشرت عساكره في شوارع المدينة وأسواقها فظن الشيعة أن الملك الرحيم قد أمر بقتالهم أو لعلّهم دفعتهم الحمية فآثروا على أنفسهم أن يدخلها الترك فقاتلوا جند طغرل بك وزادوا من مقاومتهم حتى تمكّنوا من الخروج إلى معسكر طغرل بك نفسه، فأمر عساكره أن تقاتلهم في دروب بغداد وشوارعها وأسواقها حتى تمكّنوا من هزيمتهم.

فنهبت بعض الدروب حتى دروب الخلفاء وفشا النهب والقتل وعظمت الفتنة وأحرقت دور كثيرة من جملتها دار العلم «التي بناها سابور بن أردشير في محلة بين السورين بالكرخ» كما حدثت فتنة أخرى أيام طغرل بك هذا عندما اغتنم أرسلان البساسيري التركي الأصل بالزحف على بغداد. فنزل الجانب الغربي على دجلة تجاه باب الطاق وعقد جسراً عبر عليه بجيوشه إلى الجانب الشرقي وزحف إلى المدينة فدافع عنها الخليفة القائم بأمر الله دفاعاً شديداً وجرت بينهما حروب آلت إلى خراب بغداد. فلما دخل

البساسيري المدينة جرت بين جيوشه وبين أهل بغداد حروب في الشوارع والأسواق وأخيراً انحدر الأهلون ونهبت جيوش البساسيري دوراً كثيرة وأضرموا النار في البيوت والأسواق ونهب قائدهم قصر الخلافة وذلك سنة ٤٥٠ هـ. وخطب في جوامع بغداد لخليفة مصر المنتصر الفاطمي[١] ولما علم طغرل بك بما جرى في بغداد وكان غائباً عنها أسرع إليها بعساكره وأنقذ الخليفة، وقاتل جيش البساسري حتى مزّقوا عساكره وأسروه وقتلوه وأرسلوا رأسه إلى بغداد سنة ٤٥١ هـ.

وقد شهدت الفترة المتأخرة من عهد السيطرة السلجوقية محاولات الخلافة المتعددة للتحرر من هيمنتهم وكانت أكثرها تخطيطاً وتنظيماً ثورة الخليفة (المسترشد) ٥١٢ ـ ٥٢٩ هـ/١١١٨ ـ ١١٣٥ م والتي انتهت بمقتله عندما اجتهد لإرجاع نفوذ الخلافة العباسية وسطوتها.

ولما سمع أهل بغداد ضجّوا وحثوا على رؤوسهم التراب وتركوا الصلاة في الجوامع وقطعوا الخطبة يوم الجمعة وأغلقوا الأسواق وخرجوا حفاة مخرقي الثياب حتى النساء فإنهن خرجن حاسرات الوجوه يندبنه في الشوارع. بل إن المدينة ارتجّت وأقيم فيها مأتم عام حزناً على الخليفة المحبوب وبايعوا من بعده ابنه الراشد بالله ولياً للعهد[٢] ثم خلفه المقتفي لأمر الله وهو أول من حكم العراق منفرداً عن سلطان وبويع من بعده لابنه المستنجد بالله الذي وجد مخنوقاً في الحمام من بعض رجال دولته غدراً وبويع للمستضيء بأمر الله الذي احتجب عن أكثر الناس غير خدم القصر.

واستمرت ثورات أهل العراق ورفضهم للوجود السلجوقي حتى دخول

---

(١) نفس المصدر السابق، ص ٦٤ ـ ٦٥.
(٢) نفس المصدر السابق، ص ٧٨.

المغول لمدينة بغداد ٦٥٦ هـ/١٢٥٨ م. وكان أشهر خلفاء هذه الفترة الخليفة الناصر لدين الله الذي استمر في الحكم ١٦ عاماً عالج فيها الأوضاع الداخلية بحزم في الوحدة الاجتماعية.

فترك لخلفائه وضعاً مستقراً أفاد المستنصر بالله الذي ازدهرت في عهده بغداد ازدهاراً في مجمل الحياة الاجتماعية والاقتصادية وعاشت زمناً مليئاً بالأمن والاستقرار إلاّ سنة ٦٠١ هـ، حيث احترق مخزن الأسلحة ببغداد وسرت النار بكثير من الدور والأسواق وتجسّم الأمر وتلف كثير من الدور والحوانيت والمخازن والأموال والنفوس وعظمت المصيبة حتى جاء الأعراب من أطراف بغداد لإطفاء ذلك الحريق الهائل الذي لم يسبق له مثيل في بغداد، فأطفىء وما إن مات حتى بويع لابنه الظاهر بأمر الله وبقيَ فيها ٩ أشهر.

لقد كانت جهود السلاجقة ليس في حماية العراق والعمل على تأمين الأمن والاستقرار لأهلها، وإنما كان هدفهم هو الاستحواذ على خيرات البلاد وإشاعة الفتنة الطائفية التي عملت على نشرها وواصلت جهدها في تعميق الهوة بين العراقيين مستغلين الاضطراب الاجتماعي والسياسي الذي ساد البلاد.

وكان السلاجقة قد مكّنوا لدولتهم من خلال بثّ الدعاية على أنهم جاؤوا لإعادة الخلافة العباسية السنية من جديد ليقبضوا على زمام الأمور في بغداد فدعوا بالحزن والشدة وتعقب كل من هو على المذهب الشيعي كما قاموا بإقصاء المتشيعين للمذهب الإمامي عن دواوين الحكومة والوظائف الدينية وعيّنوا أهل السُّنة بدلاً منهم.

ثم دأب السلاجقة إلى إنشاء المدارس النظامية للتصدّي للفكر الشيعي.

«بدأ التفكير الفعلي في إنشاء هذه المدارس النظامية للوقوف أمام المدّ

الشيعي الإمامي والإسماعيلي الرافضي عقب اعتلاء السلطان ألب أرسلان عرش السلاجقة في عام ٤٥٥ هـ فقد استوزر هذا السلطان رجلاً قديراً وسنياً متحمساً هو الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي الملقّب بنظام الملك، فرأى هذا الوزير أن الاقتصار على مقاومة الشيعة الإمامية والإسماعيلية الباطنية سياسياً لن يكتب له النجاح إلا إذا وازى هذه المقاومة السياسية مقاومة فكرية، ذلك أن الشيعة إمامية كانوا أو إسماعيلية نشطوا في هذه الفترة وما قبلها إلى الدعوة لمذهبهم بوسائل فكرية متعددة، وهذا النشاط الفكري ما كان ينجح في مقاومته إلاّ نشاط سني مماثل يتصدّى له بالحجّة والبرهان»[١].

«وكان الإمام الغزالي على قمة المفكرين الذين شنّوا حرباً شعواء على الشيعة الرافضة..

وكان الغزالي ـ العالم السني ـ يذكر أنه ألّف في ذلك كتباً عدّة أشهرها: فضائح الباطنية، الذي كلف بتأليفه في ٤٨٧ هـ من قبل الخليفة المستظهر»[٢].

لقد كانت السلطة السياسية والتي يؤازرها بعض العلماء المتعصبين ترى بأن الشيعة أشدّ خطراً على الإسلام من السلاجقة وغيرهم ممّن هم على مذهب أهل السُّنة.

وتلك السموم تم بثّها داخل المقيم الإسلامي بحملة واسعة كان لها بالتأكيد الإغراءات المادية القوية مع الدعم السلطوي والديني وسارت تلك المسيرة بتأثيرها لمناصرة المذهب السني على حساب المذاهب الأخرى ويعدّون لها الكيد والمؤامرات وكان نتيجتها توسيع الصدع وزيادة الهوة الطائفية بين المسلمين لحسابات دنيوية زائلة.

---

(١) دولة السلاجقة للصلابي، ص ٢٩١.

(٢) فقه نور الدين في التعامل مع الدولة الفاطمية، د. علي محمد الصلابي، ص ٦٠.

ولا زال بعض العلماء والمفكرين من أهل بغداد يعتقدون بأن الدولة السلجوقية أفضل من سيطرة الدولة البويهية.

وقد ظهر لي هذا جلياً في مناقشة طويلة وحادّة مع أحد أساتذتي في قسم التاريخ عندما كان يلبس السلاجقة ثوب الطهارة والإيمان بدفاعهم عن الإسلام ضد البيزنطيين، وألبس البويهيون ثوب الطائفية والتخلّف من منطلق ضيّق كونه من الطائفة السنية.

وللأسف الشديد انتابني الحزن والأسىٰ وأنا أرى بروفيسوراً في التاريخ الإسلامي يمدح المستعمرين السلاجقة ويراهم أخياراً على حساب وطنه.

فقلت له في محض إجابة.. بأن الاستعمار... هو الاستعمار بذاته وإن تغيّرت ألوانه وأشكاله ومذاهبه ودينه في كل أنحاء العالم. ولا بد لنا أن نكون منصفين ليس أمام التاريخ فحسب بل أمام أنفسنا ومسؤوليتنا الأخلاقية تجاه شعبنا. فالمستعمرون مهما كانت مواقفهم في أي بلد من البلدان يبقىٰ هو المسيطر الباحث عن كل ما ينفعه ويخدم مصالحه.

فالسلاجقة لم يحاربوا المسيحيين إلاّ عندما وجدوا ضرورة لذلك بعدما شعروا بخطورة المد البيزنطي بتقدمهم نحو العراق وبلاد فارس والأناضول، لهذا خشوا أن تسقط عروشهم وينهار سلطانهم وتهوى قصورهم وتباع جارياتهم وينتهك ملكهم فقاموا مجبرين غير مخيرين بالدفاع عن وجودهم وليس دفاعاً عن أهل العراق أو عن المسلمين بشكل عام.

وإلاّ كيف نفسّر عدم رضا أهل العراق واطمئنانهم للسلاجقة وقيامهم بثورات عديدة في محاولة التخلص من سيطرتهم منذ أن دخلوا بغداد إلى أن خرجوا منها بالقوة؟!!

وتدفقت القبائل التركية على العراق بعد انتصار طغرل ولقد سخَّر

السلاجقة مركزهم ـ إلى جانب الخلافة العباسية ـ ولم يكن هدفهم تقوية مركز الخليفة العباسي وإنما البحث عن التوسّع والسيطرة والنفوذ فاتخذوا من الدين وسيلة لهم للتوغل بين المسلمين فأعلنوا أنفسهم المدافعين عن المذهب السني ضد التشيّع الفارسي وعمدوا إلى نشر المذهب السني الذي دانت به الخلافة العباسية.

وكان السلاجقة ينظرون إلى التشيع على أنه مصدر خطر كبير على الإسلام نكاية بالبويهيين والقبائل الشيعية التي وقفت تقاتلهم طويلاً في بلاد فارس والعراق فأخذوا يشرّدون الأبرياء ويهدمون المدارس الشيعية ويعاملون بقبح وقسوة فقد كانوا يخشون الشيعة ويظهرون الخوف منهم فأثروا في عهدهم عند احتلالهم للعراق ما يشاؤون من فتن كثيرة بغضاً للشيعة في بغداد.

الفصل العاشر

عصر ظهور المغول

ظلت بغداد تعيش تقلّباً في الأحوال. . . بين فتن وقتل واستقرار إلى أن انقلبت الأمور على السلاجقة والخلافة العباسية بظهور هولاكو المغولي[1] الذي قضى على الخلافة العباسية في بغداد سنة ١٢٥٨ م وأحدث فيها الدمار والخراب ورغم ما قيل عن خيانة الوزير الشيعي ابن العلقمي ورمي تبعات الفشل الإسلامي في الدفاع عن الخلافة أمام المد المغولي الهائج إلا أن هذا الوزير لم يكن بيده أية سلطة وإنما كانت السلطة الفعلية بيد الخليفة المستعصم وقادة الجيش الدويدار الصغير وأباه الكبير ومن السخف تعظيم سلاطين السلاجقة رغم شذوذهم وبلائهم على الأمة الإسلامية. وليس هذا فحسب، بل وتبرئتهم لمجرّد أنهم سنيون ثم توجيه الاتهام للشيعة ظلماً وبهتاناً على أنهم السبب في انهيار الدولة.

ورغم أن المغول قاموا بغارات قليلة على بغداد في بادىء الأمر ولكن كان نفوذهم يزداد ويتعاظم يوماً بعد يوم حتى أن حملاتهم امتدّت لتشمل

---

(١) هولاكو (١٢١٧ ـ ١٢٦٥ م) مغولي مؤسس دولة المغول الإيلخانية في إيران سنة ١٢٥١ م حفيد جنكيز خان، أخضع أمراء الفرس والإسماعيلية في قلعة الموت ١٢٥٦ م، وقضىٰ على الخلافة العباسية في بغداد سنة ١٢٥٨ م واحتل سورية، هاجم المماليك جيشه في عين جالوت وأبادوه ١٢٦٠ م.

شرق أوروبا وأرمينية وروسيا. ولكن خليفة المسلمين وسلاطين السلاجقة لم يستعدوا لردّ الخطر المغولي لأنهم كانوا منشغلين في اللهو والترف واستعراض عضلاتهم على الشيعة الذين تم تصويرهم على أنهم العدوّ الوحيد للأمة الإسلامية دون غيرهم، إلى أن فاجأهم هولاكو وأنزل بهم القتل والنهب والسلب والسبي ولم يجدوا غير الشيعة كما هو حالهم عبر التاريخ لرمي التهمة الظالمة عليهم على أنهم السبب في سقوط بغداد.

لقد صنع أهل السُّنّة من (مجاهد الدين أيبك الدويدار الصغير) بطلاً لأنه سُنّي ووصفوه بالشجاعة وحكوا عنه بأنه القائد الذي لا يوصف بإقدامه وجرأته، وللأسف كل هذا كان نكاية بالشيعة فقد جعلوا من القائد الغلام المدلل بطلاً وزيادة على ذلك أعطاه الخليفة المستعصم لقب (الملك) وجعله على مقدمة جيش الخلافة لأنه يذكرهم بموقفه المخزي مع ابن الخليفة أبو بكر وصاحب ديوان الخلافة أحمد بن الدامغاني عندما أغاروا على جانب الكرخ التي كان يسكنها الشيعة «حتى سموا بأبطال مجزرة الكرخ فنهبوا محلاتها وهتكوا النساء وركبوا منهن الفواحش»[1].

«فهاشت العامة وعظم الأمر وقتل جماعة كثيرة وجرح كثير من الخلق»[2].

بينما نجده يهرب عندما حمي وطيس الحرب مع المغول. والمفارقة الأخرى أن هولاكو عندما قام بغزو بغداد كان معه الكثير من الشخصيات السنية مثل محمد الجويني. فلماذا لم يتمّ اتهامهم بالخيانة؟ فضلاً من أن هولاكو عندما احتل بغداد أبقىٰ على حياة الكثير من الشخصيات السنية البارزة فلماذا لم يتهموا بالخيانة كفخر الدين أحمد بن الدامغاني الحنفي وتاج الدين علي بن الدوامي حاجب باب النوبي للمستعصم بالله ونجم الدين

---

(١) أبو الفداء: ٨٣٣ وعقد الجمان للعيني/ ٧٩.
(٢) تاريخ الذهبي ٤٨/ ٢٤.

أحمد بن عمران الباجسري عامل الخليفة وعبد المنعم الشافعي أقضىٰ القضاة وابن المخرمي الحنبلي وابن البجلي الشافعي وغيرهم.

علماً أن الدامغاني كان صاحب ديوان الخليفة وأكثر المقرّبين لهولاكو بينما يرى الاتهام الباطل على الوزير ابن العلقمي وحده لأنه شيعي، فإذا ما ذهبوا إليه صحيحاً في خيانة ابن العلقمي لأنه أراد الانتقام من السنة فكان الأولى به أن يمنع إحراق مشهد الإمامين الكاظمين واستباحة أحياء الكرخ الشيعية.

ولا يتسع المجال لإيراد الكثير من الوقائع التاريخية التي تثبت براءة ابن العلقمي من التهم التي وجّهت إليه وسوف يصدر قريباً كتاب فيه دراسة علمية جديدة واقعية عن قضية ابن العلقمي لدفع التهمة المزعومة ضده وسوف ينبهنا بالتفصيل في كيفية التعامل مع هذه التهمة التي ألصقت بالشيعة منذ سنة ١٢٥٨ م وللأسف الشديد ولحدّ الآن وما ينسج حولها من أكاذيب مضللة.

وعلى الرغم من أن الذين لا زالوا يحملون المبادىء الطائفية ينظرون إلى احتلال العثمانيين للبلاد العربية على أنها خلافة إسلامية لأنهم من أهل السُّنة وكان لهم دوراً كبيراً طيلة نفوذهم وسيطرتهم على العراق وباقي البلاد الإسلامية قد عطّلت الدعوة الشيعية وطقوسها زمناً طويلاً.

إلا أن مذهب أهل البيت عليهم السلام بقي ثابتاً صامداً رغم تلك الهزاهز والابتلاءات العظيمة، وحينما استتب الأمر لهولاكو وفرض سيطرته على بغداد تنفس أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام الصعداء، نتيجة لدخول بعض حكّام المغول الإسلام ببركة جهود العلماء الكبار أمثال العلاّمة الحلي[1]

---

(١) الحسن ويقال الحسين بن يوسف بن علي بن المطهر الحلي ويعرف بالعلاّمة (٦٤٨ هـ/ ٧٢٦ م) من أئمة الشيعة وأحد كبار العلماء نسبته إلى مدينة الحلة في العراق وفيها مولده ومسكنه ومدفنه له كتب كثيرة منها: تبصرة المتعلمين في أحكام الدين، وتهذيب طريق الوصول إلى علم الأصول، والأحكام في معرفة الحلال والحرام، ومختلف الشيعة في أحكام الشريعة، وأنوار الملكوت في شرح الياقوت.

وابنه محمد[1] (رحمهما الله) وغيرهما. وإعلان أتباعهم لمذهب أهل البيت عليهم السلام، ومن هؤلاء الحكّام (نيقولاوس بن أرغون) وسمي بمحمد خدابنده[2].

وكذلك ابنه أبو سعيد بهادرخان وبعضهم أسلم، ولكن لم يصرّح بالتشيع مثل غازان المسمىٰ محمود[3] وهو أخو محمد خدابنده وبين من لم يطل عهده ليعلم حاله مثل تكوادر بن هولاكو المسمىٰ بأحمد.

وما مرّ على بغداد أيام المغول وفقاً للدلالة والروايات والأخبار التي استوعبنا أكثر تعابيرها التي تحدّثت عن خيانة أحد وزراء الخليفة العباسي المستعصم بالله ويدعىٰ ابن العلقمي، لوجدنا أن فيها الكثير من الريبة والشكّ كونها أشارت إلى خيانة شخص واحد بالمقارنة ببقية الوزراء والحاشية المقرّبة من الخليفة والقادة الذين قد لا يختلفون في مقدار الانحراف والخيانة لو أسلمنا بحقيقة خيانة الوزير الشيعي، إلا أن من قام بنقل الأخبار وأرّخ لهذه الواقعة أراد أن يشعل الفتنة الطائفية بين أهل العراق ويشغل تلك الحادثة في فرقة الأمة الإسلامية وهذا بالطبع له آثار سلبية على

---

(١) هو محمد فخر المحققين بن حسن بن يوسف بن علي بن المطهر الحلي فقيه أصولي متكلم ولد سنة (٦٨٢ هـ) وتوفي سنة (٧٧١ هـ) من آثاره: نهج المسترشد في أصول الدين، وجامع الفوائد في الفقيه، والكافية في علم الكلام، وغاية البادي في شرح المبادي وغيره.

(٢) محمد خدابنده الذي استبصر على يد العلاّمة الحلي (رحمه الله) في قصة مشهورة، وذلك عندما طلّق هذا السلطان زوجته ثلاثاً وأجمع علماء المذاهب على وجوب المحلل، ثم جاء العلاّمة الحلي وبعد مباحثات مع علماء العامة وإقامة الأدلة الدامغة عليهم حتى أسفرت تلك المباحثة عن تشيّع السلطان وأكثر من معه وقد ذكر هذه الحادثة العلاّمة المجلسي (رحمه الله) في روضة المتّقين. راجع أيضاً الاشتباه للعلاّمة الحلي ص ٤٣.

(٣) محمود غازان (١٢٧١ ـ ١٣٠٤ م) سلطان إيلخاني سنة ١٢٩٥ م فرض الإسلام ديناً للدولة، شجع الأدباء، له آثار عمرانية في تبريز، خلف أخوه.

وحدة الإرادة الإسلامية بالتعمّد في محاولة عزل الشيعة عن إخوانهم في المذاهب الأخرى ومن تلك الأمثلة مليئة بين صفحات التاريخ الإسلامي والتي غالبيتها مبنية على الخداع والتضليل، هدفها إيقاع حرب الفتنة الهوجاء بين أنباء المقيم الإسلامي مع ضرورة الانتباه إلى أن الكثير من هذه الأخبار المضللة قد دسّت في أخبار الإسلام نصرة للحاكم المنحرف إن كان منسوباً لأمة أو للمستعمر.

«لقد كان الخليفة المستعصم بالله كثير الغفلة عن أمور دولته مغرماً باللهو والغناء منغمساً بالملذات ضعيف الرأي سيىء التدبير غلب على أمره أستاذ الدار وخدم القصر وجواريه واستبدّ بالأعمال ابنه الأكبر أبو العباس أحمد المعروف عند العامة بأبي بكر بل إنه كان ألعوبة بين يدي ابنه هذا وصاحبه ركن الدين الداودار (أمير الجيوش ورجال القصر وجواريه حتىٰ تسلط هؤلاء علىٰ أُمور الدولة واستبدوا بالأعمال وهو لاهٍ في قصره غير ملتفت الى أمور دولته فتوالت من أجل ذلك الاضطرابات سيما في بغداد إذ كثر فيها المنازعات الأهلية والفتن المذهبية بين السنة والشيعة سفكت في أكثرها الدماء الطاهرة وأحرقت الدور وكان نصير الشيعة الوزير ابن العلقمي ونصير السنة ابن الخليفة أبي بكر والداودار حتىٰ انهما كانا في أكثر الاحيان يحرضان الجنود علىٰ الفتك بالشيعة نكاية بالوزير علىٰ أن الوزير ما كان ليتجاهر بنصرة ابناء مذهبه بل كثيراً ما كان يسعىٰ في الاصلاح بين الطرفين ويبذل جهده في سبيل ذلك.

استوزر هذا الخليفة مؤيد الدين أبو طالب محمد بن العلقمي بدهائه وكفاءته فكان وزيراً خبيراً بتدبير الملك ناصحاً للخليفة باذلاً جهده فيما يعود لصلاح الدولة وكان الخليفة مع حسن ظنه بهذا الوزير القدير ما كان يصغي لنصاحه إلا قليلاً لأنه كان طوع ارادة ابنه ومن التف حوله من رجال القصر وجواريه والداودار ومن علىٰ شاكلته من رجال الحكومة الذين صاروا سبباً

لضعف الدولة وانقراضها، وبينما الخليفة لاهٍ في قصره بين جواريه وفي مجالس أنسه والاضطرابات تزداد يوماً فيوماً. والفتن الأهلية المذهبية قائمة علىٰ قدم وساق ورجال الدولة في نزاع وانشقاق والجيش في انحلال. والدولة في ضعف مستمر إذ بالتتر قد زحفوا على العراق بقيادة هولاكو خان ابن تولي بن جنكيزخان المغولي الشهير»[1].

إلى أن تمكّن من دخول بغداد بعد محاصرتها وضربها بالمنجنيقات لمدة أحد عشر يوماً. وعلى أثر استسلام الخليفة دخلت جيوش هولاكو بغداد ففتكوا بأهلها فتكاً ذريعاً وقتلوا كثيراً من الوجوه والأشراف وغيرهم ودام القتل والنهب سبعة أيام وأصاب أهل بغداد بما لم يصب مثله بل كانت هذه الحادثة من أصعب المصائب على الإسلام والمسلمين. ثم نودي بالأمان في أواخر شهر محرم سنة ٦٥٦ هـ ودخل هولاكو المدينة دخوله الرسمي واستولى على كل ما كان في قصر الخلافة من الأموال الثمينة والمجوهرات والجواري وأمر بالكتب التي كانت في قصر الخلافة فألقيت في دجلة وعلى أثر ذلك قتل الخليفة وولديه الأكبر أبي بكر والأوسط أبو الفضائل عبد الرحمن وجماعة من الخواص وذلك في شهر صفر من السنة المذكورة وبذلك انقرضت الدولة العباسية من العراق بعد أن دامت ٥٢٤ سنة من (سنة ١٣٢ ـ ٥٦٥ هـ) وعدد خلفائها ٣٧ خليفة أولهم السفاح وآخرهم المستعصم بالله. وأصبحت عاصمة العباسيين تحت سلطة المغول بعد أن كانت مركز الخلافة العباسية[2].

ولا يعقل أن يزحف هذا الفاتح الشهير بجنود جرارة على مركز الخلافة الإسلامية بتحريض من ابن العلقمي وزير الخليفة (كما يقول بعض المؤرخين)

---

(١) مختصر تاريخ بغداد ـ علي ظريف الأعظمي، ص٩٩ ـ ١٠٠.
(٢) مختصر تاريخ بغداد ـ للأعظمي، ص ١٠٣.

معتمداً على ذلك فقط. ثم لا يعقل الذي يحمل على بغداد بأربعمائة ألف مقاتل يحتاج إلى طلب النجدة عند محاصرته قلاع الملاحدة من خليفة ضعيف لم يتمكّن يوم العسرة من تجهيز جيش يزيد على أربعين ألف مقاتل ولا يستطيع الدفاع عن عاصمته شهراً فلو سلّمنا جدلاً للقائلين بذلك فمن الذي يكون قد حرّضه على فتح كيلان وخراسان وأصفهان وهمذان وجميع البلاد الفارسية ولا يخفىٰ مقدار ما يعانيه من يقوم بمثل هذا العمل الكبير. ومن الذي دعاه لأخذ الجزيرة وما يليها وملك الخوارزمية ومن أطمعه في آسيا الصغرى وسوريا. وكيف يعقل أن يؤمن هذا الداهية ابن العلقمي مع علمه بخيانته لخليفته فيوليه بعد سقوط بغداد منصباً رفيعاً فيها. عجيب والله أمر هؤلاء القوم، عادوا عن الحقائق وحملوا هذا الوزير حملات تجلّى فيها التعصب المذهبي الذي يشين التاريخ. ولو أنهم أنصفوا ونبذوا مقاصدهم السياسية وتعصبهم المذهبية جانباً لما لصقوا بهذا الرجل تلك التهم من التحريض والخيانة والتحزّب للشيعة والسعي لمحو الدولة العباسية إلى غير ذلك من الإسنادات التي تكذّبها الأخبار التاريخية الصحيحة ويأباها العقل السليم. ولما استمروا في الضرب على وتر التلفيق[1].

أقول هذا غير مبالغ بنقد المغرضين مهما زعموا لأنني غير متعصب لمذهب وليس لي بهذا النقد مأرب وما غايتي إلا إظهار الحقائق للقرّاء خدمة للتاريخ.

ولم تقتصر الفتنة بين السُّنة والشيعة في بغداد وإنما امتدّت لتأخذ طريقاً لها بين المسلمين والنصارى النساطرة فقد حدثت بينهم فتنة كبيرة أيام تولّي آبغا خان السلطان بعد وفاة أبيه هولاكو. والسبب الرئيسي في قيام هذه الفتنة أن نسطورياً كان قد أسلم قبل بضعة أعوام فقبض عليه جاثليق النساطرة «دنحا»

---

(١) نفس المصدر السابق، ص ١٠٤.

وحبسه في داره أياماً فشاع أنه يريد تغريق الرجل في دجلة فثار المسلمون وتجمهروا أمام دار الحكومة وطلبوا من الوالي عطاء الملك أخذ الرجل من الجاثليق فلبّى طلبهم وأرسل إلى الجاثليق يطلب إرسال الرجل إليه، فامتنع الجاثليق من تسليمه وأصرّ على إبقائه في داره فهجم الثائرون على دار الجاثليق وأحرقوا بابها وتسلّقوا الجدران فدخلوا الدار ولكنهم لم يجدوا فيها أحداً لأن الجاثليق ومن معه انهزموا منها بمساعدة رجال الحكومة قبل أن يهجموا عليها ومنذ وقوع هذه الفتنة ذهب الجاثليق إلى أربل واتخذها مركزاً له سنة ٦٦٨ هـ. ولم تنته الفتنة بين الأمتين بخروج الجاثليق من بغداد بل عادت ثانية في السنة نفسها وذلك أن جماعة من الإسماعيلية حاولوا قتل الوالي عطاء الملك فقبض عليهم وقتلهم فشاع في بغداد أن هؤلاء من النساطرة وقد أرسلهم الجاثليق من أربل إلى بغداد لقتل الوالي انتقاماً منه وأن للأساقفة والمطارنة الذين في بغداد يد في هذه الحادثة فأمر الوالي بحبسهم وظلوا في الحبس أياماً ثم ثبتت لديه براءتهم فأمر بإطلاقهم[1].

ثم حدثت فتنة عظيمة بين المسلمين واليهود في بغداد سنة ٦٩٠ هـ راح ضحيتها عدد كبير من الجانبين وكان سببها سعد الدولة اليهودي الذي أعطاه السلطان أراغون خان المغولي صلاحيات واسعة فطغى وتجبّر واستبدّ هو وأقرباءه بالأعمال حتى كرهه الناس ونقموا عليه فاتّفق رجال الحكومة في بغداد مع جماعة من الوجوه على الفتك والتخلّص منه فقتلوا وثار المسلمون على اليهود وهجموا على محلاّتهم فحدثت بينهم معارك طاحنة قتل فيها عدد كبير من المسلمين واليهود. ولم تسكن الفتنة بينهم حيث ثار البغداديون مرة أخرى على اليهود كرهاً في فخر الدولة أخو سعد اليهودي فنهب دار فخر الدولة ودوراً كثيرة لليهود ومحلاتهم ودام النهب ثلاثة أيام.

---

(١) نفس المصدر السابق، ص ١١٠.

الدولة المغولية التترية الجلائرية في بغداد

(٧٣٨ ــ ٨١٤ هـ/١٣٣٨ ــ ١٤١١ م)

تمكّن الشيخ حسن الكبير من الاستيلاء على العراق سنة ٧٣٨ هـ واتخذ بغداد عاصمة له وأعلن استقلاله بالعراق ثم ما لبث أن ولّى ابنه أويس على بغداد وزحف بمجموعه إلى تبريز لقتال الأمير حسن بن جوبان صاحب أذربيجان.

وبعد معارك شديدة اندحرت جيوش الشيخ حسن فعاد إلى بغداد مكتفياً بملك العراق سنة ٧٤٠ هـ. وسار سيرة حسنة بين أهل السُّنة والشيعة وسار بينهم سيرة حسنة دون أن يناصر مذهباً دون آخر، رغم تشيّعه. لذلك أصبح محبوباً لدى أهل بغداد مطاعاً نافذ الكلمة. وبعد وفاته سنة ٧٥٧ هـ استولى السلطان أويس على عرش الملك ببغداد بعد موت أبيه وسار على نهجه فنال محبّة البغداديين وملكت الدولة الجلائرية في بغداد سنة ٧٦ وقام فيها خمسة ملوك الشيخ حسن الكبير والسلطان أويس والسلطان أحمد ومحمود وآنقرض سنة ٨١٤ هـ لتبدأ الدولة المغولية التركمانية الأولى في بغداد، أو دولة الخروف الأسود (قره قويونلية ٨١٤ ـ ٨٧٤ هـ/ ١٤١١ ـ ١٤٦٨ م) ولم يملك العراق العربي من دولة الخروف الأسود التركمانية غير أربعة ملوك

وهم: شاه محمد بن قره يوسف، واسكندر، وجهانكير شاه، وحسن علي مرزا. ودام ملك هؤلاء ستين سنة من ٨١٤ ـ ٨٧٤ هـ.

ثم قامت على أنقاضها الدولة المغولية التركمانية الثانية في بغداد أو دولة الخروف الأبيض (آقا قويونلية) ٨٧٤ ـ ٩١٤ هـ وأشهر ملوكها حسن الطويل.

الفصل الحادي عشر

الدولة الصفوية في بغداد

(٩١٤ ـــ ٩٣٠ هـ)

الصفويون سلالة ملكت إيران (١٥٠١ ـ ١٧٣٦ م) أسس الدولة إسماعيل الأول ـ قهر الأق قيونلو واتخذ تبريز عاصمة له وتلقّب بالشاه، وأعلن التشيع مذهب الدولة، نقل العاصمة إلى قزوين (١٥٥٥ م) طهماسب الأول، ثم نقلها عباس الأول الكبير إلى أصفهان، وقد سجل التاريخ لهذه الدولة خدمات جليلة في انتشار مذهب التشيّع في العراق وإيران وجميع المناطق المجاورة وهي دولة علوية شيعية حكمت العراق في عام ٩١٠ هـ. وأول من استولى على حكم العراق من الصفويين هو الشاه إسماعيل الأول وقد دارت بينه وبين العثمانيين معارك ضارية، وذلك لطمع العثمانيين في السيطرة على العراق، فانتصر العثمانيون على الدولة الصفوية عام ٩٤١ هـ أيام الشاه طهماسب الأول ثم عاد الصفويون وحكموا العراق ثانية في عام ١٠٣٢ هـ وكان ذلك على يد الشاه عباس الأول، ثم عاد العراق تحت السيطرة العثمانية في عام ١٠٤٥ هـ وحكم مراد خان الرابع العراق بعد الصلح الذي تم بين الدولة الصفوية والدولة العثمانية، وشرط الصفويون على الدولة العثمانية بموجب هذا الصلح أن تحكم الدولة العثمانية العراق

دون التعرّض للشيعة والعتبات المقدسة. ولكن بعدما استقرّ الحكم للدولة العثمانية نكثوا عهدهم، فحاربت التشيّع في جميع أرجاء العراق وذلك بتحريض من بعض الحاقدين على مذهب أهل البيت عليهم السلام خاصة وأن العثمانيين كانوا يتبعون سياسة طائفية شديدة التعصّب لأهل السُّنة والجماعة.

ويخلط البعض إما عن جهل أو متعمدين بين الصفويين[1]. وهم سلالة تركمانية من الشاهات حكمت بلاد فارس (إيران) وبين العرب الشيعة القادمين من لب الجزيرة العربية وهو خلط وادعاء متعمد وجزء من صراع تاريخي أججته الدولة السنية العثمانية أثناء صراعها مع الدولة الصفوية في إيران التي تزامن ظهورها مع توطد أركان دولتهم وتوسّعها على حساب البلدان العربية خاصة. فكان كل من السلطان العثماني والشاه الإيراني يدّعي تمثيل المسلمين ويسمي نفسه عاهل الإسلام ومثل هذا صراع سني ـ شيعي بين طرفين سياسيين استخدما الدين وسيلة للوصول إلى مآربهما دون أن تكون هناك أية علاقة لعرب العراق الشيعة بالصراع الحاصل آنذاك. وقد أثّر ذلك الصراع السياسي الديني الاقتصادي على العراق كافّة بسبب مطامع الدولتين المتصارعتين، لذلك يحاول الجهلة بالتاريخ أو المتجاهلين للتاريخ أن يخلطوا الشعوب الإيرانية المتواجدة في بلاد فارس كالفرس والترك

---

(١) الصفويين أو آل صفويان: هي سلالة تركمانية من الشاهات حكمت بلاد فارس من ١٥٠١ ـ ١٧٧٢. والصفويون أسرة تركمانية لفظ التركمان يعني التركي المؤمن فهو مشتقّ من الكلمتين تورك وايمان وأطلق على المسلمين الأوائل من أتراك الأوغوز ـ الغز ـ في تركستان ـ أسسوا الطريقة الصفوية في مدينة أردبيل في شمال شرق إيران (أذربيجان الجنوبية)، وتشتق الأسرة اسمها من اسم جدها المتصوّف السني الشافعي الشيخ صفي الدين أردبيلي ٦٥٠ هـ/ ١٣٣٤ م وقد نجح أحفاد الشيخ صفي الدين وخاصة جنيد ١٤٤٧ ـ ١٤٦٠ أو ابنه الشيخ حيدر ١٤٦٠ ـ ١٤٤٨ م في نشر المذهب الشيعي بعد ما تشيّعوا لأهداف سياسية.

والكورد والآذريين والبلوش واللر والعرب بشعب واحد عندما يطلقون عليهم بالصفويين أو الفرس وبقي اسم الصفويين يطلق تعصباً أو نكاية بالشيعة العرب أو جهلاً من قبل المتعصبين القوميين وخاصة من المتعربين العرب الجدد.

الدولة الكردية في بغداد (٩٣٠ ــ ٩٣٦ هـ)

على أثر موت الشاه إسماعيل الصفوي بفارس سنة ٩٣٠ هـ وجلوس ابنه طهماسب الأول مكانه تغلب على بغداد الأمير ذو الفقار رئيس قبيلة موصلو من عشيرة كلهور (كلهرا) الكردية بمساعدة عشيرة كلهور وكان قبل ذلك مستولياً على أطراف لورستان. فأحسن هذا السيرة في أهل بغداد وجلب إليه قلوبهم حتى قوي أمره واستولى على أكثر المدن العراقية، أعلن استقلاله بالعراق سنة ٩٣٠ هـ وخاف من غارات الدولة الصفوية فاحتمى بالسلطان سليمان القانوني العثماني وخطب له على المنابر سنة ٩٣٢ هـ ثم أرسل إليه وفداً لعرض خضوعه ولدخوله تحت سيادته سنة ٩٣٢ هـ ثم ضرب السكة باسمه سنة ٩٣٣ هـ وتحكّمت عرى المحبة بينهما، غير أن هذه الدولة لم تدم طويلاً لبعد العثمانيين عنها وقربها من الصفويين أو الفرس فلم تدم إلا نحو ست سنوات[١].

وفي الحقيقة إن العثمانيين لم تكن لديهم النية أصلاً في دعم الدولة الكردية في بغداد وذلك لسببين أساسيين: أولهما أن مؤسسها كان على المذهب الشيعي وهذا يخالف تماماً الاتجاه الديني الذي يسير باتجاهه العثمانيين. وثانياً أنهم ينتمون إلى القومية الكردية وكان الأتراك يبغضون الأكراد كثيراً وكانوا على صراع دائم معهم. أما الصفويون فكانوا ينظرون

---

(١) مختصر تاريخ بغداد، للأعظمي، ص ١٣٩.

إلى الدولة الكردية في بغداد على أنها تحدٍّ لهم فدأبوا على إسقاطها على الرغم من أنهم على نفس المذهب وهذا يثبت بأن الصفويين كانوا لا يأبهون للتشيع وإنما كانت سياسة ينتهجونها للوصول إلى تحقيق مآربهم ومصالحهم الخاصة.

وانقرضت الدولة الكردية في بغداد بعد تعرّض أميرها الشجاع ذو الفقار إلى الاغتيال حيث مات مسموماً بمكيدة فارسية بعدما فشل الشاه طهماسب الأول من دخول بغداد بعد حصارها أياماً وبعد أن تمكّن الشاه طهماسب الأول من الاستيلاء على بغداد بادر إلى الفتك بأتباع ذو الفقار من الشيعة ثم بالغ في اضطهاد السُّنة من أهل بغداد بحجة أنهم ساندوا ذو الفقار وعاونوه وبذلك أثبت الصفويون أنهم ليسوا كما يشير المؤرخون على أنهم لجؤوا إلى اضطهاد السُّنة في بغداد لأنهم من غير مذهبهم بل لأنهم وجدوا في أهل بغداد عامة مقاومة ورفض للوجود الصفوي ولما زاد اضطهاد الصفويين للسُّنة اضطر كبراء السنة إلى مراسلة العثمانيين سراً وأنفذوا إليهم من أخبرهم بظلم الفرس وقسوتهم واضطهادهم وشكوا إليهم ما حلّ بهم مما ولَّد الضغينة في قلوب آل عثمان حتى صمموا على الانتقام من الفرس انتصاراً لأبناء مذهبهم، فحمل السلطان سليمان القانوني على العراق وطرد الفرس منه.. وهذا يوضح أسباب ما تعرّض له الشيعة العرب في العراق من ظلم واضطهاد العثمانيين انتقاماً للسنة عمّا فعله الصفويون بهم.

الفصل الثاني عشر

دولة الخلافة العثمانية في بغداد

(٧٠٠ هـ/١٣٠٠ م)

أصل العثمانيين:

يقول المؤرخون: إن الدولة العثمانية كانت أكبر وأبقىٰ دولة أنشأها قوم يتكلمون اللغة التركية في العهود الإسلامية وهي إلى جانب أكبر دولة قامت في قرون التاريخ الإسلامي المتأخرة. لقد كان مركزها الأصلي «آسيا الصغرى» ثم امتدت فتوحاتها إلى ثلاث قارات هي آسيا وأوروبا وأفريقيا وقد قرّبهم الخليفة العباسي المعتصم وتمتعوا بنفوذ كبير في الدولة العباسية وبخاصة في عهد المأمون.

وفي أواخر القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي جاءت موجة أخرىٰ من الأتراك (المعروفين بالسلاجقة) وعلى رأسهم طغرل بك وقضوا على نفوذ البويهيين في بغداد.

وبعد وفاته سنة ٦٨٨ هـ/ ١٢٨٨ م عين ابنه عثمان خلفاً له الذي تميّز بالقوة وقد تمكّن من اغتنام فرصة ضعف السلاجقة ليستقلّ عنهم ويأخذ بعض أجزاء دولتهم ويضيفها إلى سلطانه. وهكذا تأسست الدولة العثمانية سنة ١٢٨٨ م. ونسبت تلك المجموعة من الأتراك إلى هذا الرجل «عثمان»

فسموا الأتراك العثمانيين وقد عاش الشيعة في ظل هذه الدولة القوية الأركان أسوأ أيامها كما كانت تعيش في عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين وكثيراً ما كانت تتحين فرص ضعف العثمانيين لتنتزع بعض حقوقها التي تم اغتصابها واستمرّت فيها حتى سنة ١٣٤٢ هـ/ ١٩٢٣ م.

فبعدما سيطرت الدولة العثمانية على مقاليد الحكم، تغيّر حال الشيعة في العراق عمّا كانوا عليه في زمن الدولة الصفوية، فلقد عاد الظلم والاضطهاد وأصبح كل من ينتمي إلى أهل البيت عليهم السلام ويعرف بأنه من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام معرّضاً للقتل والتشريد وبجميع أصناف التعذيب الأخرى. وكان يكفي المرء أن يتّهم بالتشيع كي يقتل. كان المذهب الرسمي في الدولة العثمانية هو المذهب الحنفي، ولم يكتفوا في جعله فوق المذاهب بأسرها، بل عمدوا إلى ضرب المذاهب الأخرى وخصوصاً المذهب الشيعي.

وسعوا إلى نشر المذهب الحنفي بأسلوب الترغيب والترهيب في جميع أرجاء العراق، حيث كانوا ينشرونه بصورة سرية في المناطق الجنوبية من العراق وفي العتبات المقدسة، والتي كان كل سكانها من الشيعة إلا ما ندر، كما قاموا بنشر مذهبهم وبصورة علنية في شمال العراق، وبعض المناطق التي يكثر فيها السنة، ونتيجة لمقاومة الشيعة الشديدة وقوة نفوذهم وتأثيرهم أجبر بعض الأمراء الأتراك على مسالمة الشيعة فقد أجروا بعض التعديلات والتعميرات في العتبات المقدسة وزارها بعض ولاتهم.

والجدير بالذكر هنا أن بعض المؤرخين قال: إن الشيعة لاقوا من العرب ـ السنة الذين كانوا تحت حكم الدولة العثمانية ـ الحاقدين على التشيع، وعلى مذهب أهل البيت عليهم السلام أكثر مما لاقوه[1] من الحكام الأتراك

---

(١) Http: //alshivazi. com/compilations/patg/shia-iraq/2/3.h. p - 3 - 2007.

أنفسهم، وقد أثبت التاريخ حينما رحل الترك عن العراق فإن الأوضاع المأساوية ظلّت على ما هي عليه إن لم نقل إنها تفاقمت[1].

إلا أن ما ميّز العثمانيين دورهم في العمل على زيادة الظلم والتعسف ومطاردة الحق وأهله وعرَّضوا الناس في بغداد بل العراق كله إلى محنة عظيمة وامتحان شديد للإيمان كان أشد بلاءً وفتكاً ممن سبقوهم في حكم البلاد الإسلامية.

حيث لم تختلف كثيراً في تفاصيلها عن ما قام به السلاجقة والمغول بحق الشيعة حتى استخفّوا بالدماء والأعراض وكان القتل والتنكيل سمة يفتخر بها سلاطين الخلافة العثمانية.

وأصيبت بغداد باستبداد وزرائهم وتجبّرهم واضطهادهم وطغىٰ الانكشارية في الابلاد وأكثروا فيها الظلم والفساد واغتصبوا الأموال بالباطل حتى آل ذلك إلى نشوب الحروب بينهم وبين أهل المدينة في الشوارع والأسواق في أكثر الأحيان.

«إن تمحيص هذه الأخبار وتشخيص حاجتنا في الاستدلال بها. فإننا إذ نريد أن نعرف المستوى الديني، لأي مجتمع في أي عصر، نرجع ـ عادة ـ إلى تاريخ ذلك العصر لاستعراض ما فيه من حوادث وآثار تدلّ على ما كان عليه المجتمع من مستوى ديني وشعور بالمسؤولية الدينية. وهذا طريق صحيح»[2].

ومن هذا المنطلق تعرّضنا لبعض الحوادث التي مرّت على بغداد وما

---

(١) وللمزيد عن تاريخ الدولة العثمانية راجع كتاب (موجز عن الدولة العثمانية) باللغة العربية، وكتاب تلخيص تاريخ أمبراطوري عثماني، لمؤلفه هامربور.

(٢) موسوعة الإمام المهدي، ج ٢ ص ١٧٥.

أكثرها، وتاريخنا الإسلامي هو الآخر مليء بمثل تلك الفجوات التي جعلته على الدوام في صراع واقتتال واحتراب مذهبي وعقائدي السبب وراء ويلات ومحن كانت الأشد على الأمة من موجات المستعمرين.

ومن المؤسف أن يغفل الناس عن دروس التاريخ وعبر الماضي على النحو الذي مرّ به العراقيون على الرغم من كثرة الروايات والأخبار الدالّة على رموز الشر والهلاك وأسباب الفتن دون الالتزام في ضرورة إبعاد مثل تلك الموروثات السلبية التي تعرّض لها التاريخ مستفيضاً وتعرّضت لها الأجيال الإسلامية.

وجرّاء تكرار الحوادث التي تدعو إلى التطرف الطائفي في العراق تشجّعت بقية المذاهب الإسلامية في العالم العربي إلى مؤازرة أهل السُّنة فحصلت أعمال قتل بشعة بحق الشيعة في الكثير من البلدان العربية خصوصاً في شمال أفريقيا حيث قتلت جميع الشيعة ومن ينادي بهم كما ذكر التاريخ[١]. وكذلك في بغداد عام ٤٠٨[٢] أيضاً حدث ما يؤسف له حيث تم قتل الكثير من الشيعة، واشتدّ عام ٤٠٩[٣] حتى أدّى إلى نفي أبي عبد الله النعمان الشيخ المفيد من بغداد[٤] وكان واحداً من كبار علماء الشيعة وتكرر مثل ذلك في الكوفة عام ٤١٥[٥] وفي بغداد من جديد عام ٤٢٢[٦].

من ذلك يتّضح بأن الفتن المظلمة المضللة ونجاحها في تفتيت المجتمعات لا تتحدد بزمن معين دون غيره بل هي موجودة على مرّ التاريخ

---

(١) الكامل، ج ٧ ص ٢٩٥.
(٢) المصدر نفسه، ج ٧ ص ٢٩٤.
(٣) المصدر نفسه ج ٧ ص ٢٩٩.
(٤) المصدر نفسه ص ٣٠٠.
(٥) المصدر نفسه ص ٣٥٥.
(٦) المصدر نفسه ص ٨١.

لأن ذلك ينسجم مع الانحراف الإيماني الحاد الذي يدفع بالناس إلى خسران دنياهم وآخرتهم. ومن هنا نفهم بأن المحك في النجاة هو الارتداع عن جميع المحرّمات والرجوع إلى الله.

ولسنا نريد أن نطيل في وصف الحوادث التي ملأت وتملأ قلوبنا ألماً وحزناً إنما حسبت أن نعرف أنه قد حدث في بغداد مآسٍ وويلات شهد عليها التاريخ ولكن ما نراه اليوم يبدو أنه من البشاعة ما لا يمكن أن نضعه في أي مجال للمقارنة ولكننا نريد أن نؤرخ لها باعتبار أن ما آلت إليه الأوضاع في بغداد اليوم من التفرّق والتشتت والضعف والانحلال والطائفية والقتل والنهب والسلب والتهجير قد شهدها البغداديون من قبل على أيدي عصابات إجرامية لا تقلّ وحشية وتطرفاً وهمجية عن ما يقوم به أصحاب الأجندات السياسية ومليشيات الإرهاب والتطرف.

فقد شهدت بغداد في يوم عاشوراء عام ٤٠٦[١] حوادث مؤسفة أحدثت شرخاً كبيراً في المجتمع العراقي وملأت القلوب بالحزن والألم بعدما شهد الشارع البغدادي القتل الطائفي المذهبي على الهوية. حتى تسبب تواجدهم من كثرة غلاء وقلّة القوت وحدوث الهرج ولحق بالناس الوباء والقتل فكثر الموتى بغير غسل ولا تكفين حتى انتشر الجوع والقحط والبلاء فأكل الناس الميتة والكلاب وغيرها حتى فتك الوباء بالكثيرين منهم[٢]

---

(١) الكامل ج ٧ ص ٢٨١.

(٢) المصدر نفسه ج ٧ ص ٢٨٢.

الفصل الثالث عشر

الفتنة الوهّابية ١٢١٣ هـ/١٧٩٨ م

★ مجزرة كربلاء والنجف

«سنة ١٢٢٠ هـ سار سعود بالجيوش، والخيل والجياد المسومة المشهوة من جميع نجد ونواحيها وبواديها، وقصد جهة الشمال نوازل بلد المشهد المعروف في العراق، وفرّق عليه المسلمين من كل جهة، وأمرهم أن يتسوروا الجدار على أهله!!... ثم رحل منه سعود فانحاز على الزملات من عربان غزية فأخذ مواشيهم ثم ورد الهندية المعروفة، ثم اجتاز بحلل الخزاعل، وجرى بينه وبينهم مناوشة قتال وطرد خيل، ثم سار وقصد السماوة وحاصر أهلها ونهب من نواحيها ودمَّر أشجارها، ووقع بينهم رمي وقتال، ثم رحل منها وقصد إلى جهة البصرة ونازل أهل الزبير ووقع بينه وبين أهله مناوشة قتال ورمي، ورحل منه إلى وطنه»[١].

وقد سبق للوهابية سنة ١٢١٣ هـ/ ١٧٩٨ م أن غزوا (سوق الشيوخ) و(الأبيض) في بادية السماوية من أرض العراق فقتلوا خلقاً كثيراً وسبوا وسلبوا[٢].

---

(١) المجد في تاريخ نجد، عثمان بن بشير الحنبلي، مكتبة الرياض الحديثة، ص ١٣.
(٢) لمع الشهاب، أحمد أبو حاقة، دار الثقافة بيروت، ص ٧٨.

★ مجزرة كربلاء:

حشد الوهابية جيشاً من أعراب نجد قدر بعشرين ألفاً وتوجّه إلى العراق حيث حاصر مدينة كربلاء المقدسة واقتحمها، فقتل قتلاً ذريعاً لم ينج منه حتى الأطفال ونهبت خزائن من الذهب والجواهر النفيسة. وهدّم قبر الحسين عليه السلام واقتلع الشباك الموضوع عليه، كما أنهم ربطوا خيلهم في الصحن ودقّت القهوة فيه.

وقد وصف محمد حامد الفقي، من المتحمسين للوهابية مجزرة كربلاء مشيداً بدور «جند الإسلام» الوهابي فقال: «توجه سعود في ذي القعدة من سنة ١٢١٦ هـ/ ١٨٠١ م بجموع كثيرة وقوة عظيمة إلى العراق والتقى في كربلاء بجموع كثيفة من الأعاجم ورجال الشيعة (وهم الزوار الغرل) الذين استماتوا في الدفاع عن معاقل عزّهم ومحطّ آمالهم، قبّة الإمام الشهيد عليه السلام وغيرها من القباب والمشاهد ولكن جيش التوحيد(!!) قد تغلّب بقوة إيمانهم[1] وصدق عزيمتهم في الجهاد(!) لهدم كل نصب وطاغوت(!) اتخذ مع الله شريكاً في العبادات وجعل لله نداً في القربات (وهذا الكلام يجعلنا لا نستغرب مما قام به التكفيريون في هدم مرقدي الإمامين العسكريين في سامراء).

وشأن مشاهد كربلاء والكاظمية والنجف ومعصومة قوم (قم) وموسى الرضا عند الشيعة وتعظيمهم لها معلوم للقاصي والداني. فكانت موقعة هائلة وكانت مذبحة عظيمة سالت فيها الدماء أنهاراً، خرج منها سعود وجيشه ظافرين ودخل كربلاء، وهدم القبة العظيمة بل الوثن الأكبر(!!!) المنصوب على ما يزعمون من قبر الإمام الحسين بن علي عليه السلام. وأقرّ الله بهدمها عين الإمام الحسين وعيون الموحدين الذين يتتبعون شرعة جد

---

(١) أثر الدعوة الوهابية، محمد حامد الفقي، ص ٨٤.

الحسين أشرف الخلق محمد ﷺ ورضي الله عن الحسين وآله الطاهرين[1].

فعلاً لقد سالت الدماء أنهاراً، ولكن ليس لتقرّ عين الحسين وجدّ الحسين ﷺ بل لتمتلىء خزائن الوهابية من الأموال المنهوبة ويرضى أسيادهم النصارى واليهود.

★ معركة النجف الأشرف:

وفي شهر صفر من سنة ٢٢٢١ هـ/ ١٨٠٦ م هاجم سعود المذكور النجف الأشرف حتى وصل إلى السور وصعد عليه بعض أصحابه، ولكن أهل النجف تصدّوا له وردّوه على أعقابه بعد أن أكثروا القتل في المهاجمين ثم حاول سعود أن يغزو النجف مرة أخرى في جمادى الآخرة من السنة التالية ولكنه وجد أهل النجف مستعدين على السور بالأسلحة فكرّ راجعاً، فتوجّه إلى الحلة فلما رأى أهلها على استعداد تحوّل عنها إلى كربلاء التي فاجأها نهاراً، ونشبت معركة بينه وبين أهلها، وفشا القتل بين الفريقين فاضطر إلى التراجع وراح ينهب في أنحاء العراق الجنوبي فعطّل الحج ثلاث سنين.

وفي سنة ١٢٢٥ هـ/ ١٨١٠ م عاود الوهابية الكرة على النجف وكربلاء فقطعوا الطريق وأخذوا ينهبون الزوار وقتلوا منهم عدداً كبيراً قدّر بمائة وخمسين نفساً ما بين الكوفة والنجف. وهكذا لم يرع الوهابيون حرمة لابن بنت رسول الله ﷺ[2]. (وقد عاود التكفيريون ما قد عزموا عليه فيما مضى فاستهدفوا مواكب الزوّار العزّل الأبرياء الذين يؤدّون شعائرهم الدينية في محرم الحرام لزيارة الحسين عليه السلام في كربلاء، بالقنص والعبوات الناسفة

---

(١) أثر الدعوة الوهابية، محمد حامد الفقي، ص ٨٤.

(٢) صفحات من تاريخ الجزيرة، د محمد عوض الخطيب، دار المعراج للطباعة والنشر، ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

والهاونات والأحزمة الناسفة والسيارات المفخخة بغية تعطيل هذه الشعائر والنيل من محبّي أهل البيت عليهم السلام.

وهكذا غزا الأعراب العراق وأعادوا ذكريات التتر بالقتل والنهب والتخريب وتدمير الأشجار (أي القضاء على البنية التحتية بلغة العصر) فأخذوا يصدرون إلينا مجاميع من المجانين الانتحاريين الذين يفجرون أنفسهم وسط جموع الشيعة الأبرياء في الأسواق والمدارس والجامعات والجوامع والأحياء والشوارع، بفتاوى شيوخ الضلالة والكفر، حيث اعتبروا الشيعة من محبّي آل محمد صلى الله عليه وآله كفرة حتى أوجبوا قتلهم وقتالهم قبل قتال النصارى واليهود.

والحق أن دور الوهابية في خدمة السياسة البريطانية لم يقتصر على الجزيرة العربية، بل هو تجاوزها إلى الدول العربية والعالم الإسلامي، ففي سنة ١٩٢٢ عندما عجزت بريطانيا عن إكراه العراقيين على قبول الانتداب البريطاني، حرّكت الوهابية للإغارة على أطراف عشائر المنتفك ليلة ١١ مارس وذلك بقصد دفع العراقيين إلى الارتماء في أحضان بريطانيا كي تحميهم من الوهابية[١].

أسند عبد العزيز إلى ابنه سعود قيادة الحملات العسكرية والفتوحات وبدوره لفت أنظار العالم أجمع حين أقدم فجأة عام ١٨٠٢ م على مهاجمة كربلاء[٢] المدينة المقدسة عند الشيعة حيث مسجد الحسين وقبره الحاوي لكنوز الأتراك والفرس، ولم يكن التبجيل لهذا المقام من قبل الشيعة إلاّ مبالغات غير جائزة عند الوهابيين. وهذا ليس بجديد عن العالم الإسلامي

---

(١) عبد الرزاق الحسني ـ تاريخ الوزارات العراقية.

(٢) راجع: تاريخ نجد، فيلبي، ص ١٤٣.
وراجع: التقارير البريطانية ـ سجلات مكتبة حكومة بومباي رقم XXIV، ص ٤٣.

فقد حاول الخوارج في محاولة نبش قبور علي عليه السلام وأولاده ولم يحظوا بتلك الفرصة التي تشفي ما في صدورهم من غلّ وكره لآل بيت محمد صلى الله عليه وآله ورغم الكثير من المحاولات التي حاول بها الخلفاء في العهدين الأموي والعباسي ومن جاء بعدهم من الوهابيين والتكفيريين ما هو إلا منعطفاً خطيراً يهدد كيان الأمة الإسلامية ويفرّق كلمتها ووحدة صفها.

فبعد حصار لم يستمر طويلاً فتحت المدينة ـ كربلاء ـ وتساقط القتلى من جميع الأعمار في الشوارع والبيوت، وهدم قبر الحسين وسلبت الجواهر التي كانت تزينه وٱقتسمها المحاربون كما اقتسموا كل شيء في المدينة[1].

(فما أشبه الأمس باليوم.. فالأحداث تتكرر والتاريخ يعيد نفسه، فأحداث سامراء تؤكد ذلك المنحىٰ الخطير الذي يتّجه نحوه هؤلاء التكفيريون من خلال الاعتداء على قبور الأولياء وأئمة المسلمين ودور عباداتهم).

وقد أثار هذا العمل سخط العالم أجمع من عرب وأتراك وفرس وغيرهم، بعد ذلك حين أتم سعود مهمته عاد إلى عاصمة الدرعية محمّلاً بالغنائم الثمينة ليحظى بتأييد والده وشعبه!!

إلا أن ذلك النصر قد جرّ فيما بعد لعواقب وخيمة وذهب والده الملك عبد العزيز ضحية لذلك، فقتل أثناء تأديته الصلاة(!) في الثامن عشر من رجب عام ١٢٨٨ هـ، وكان القاتل يقصد سعود بالذات انتقاماً لما فعله في كربلاء فقد كان من سكانها وشهد بأم عينيه ذبح الأبرياء ومنهم زوجته وأطفاله فأقسم على الانتقام.

وفي رواية أخرى أن القاتل كان كردياً وسني المذهب وليس له أي مأرباً دينياً من عمله[2].

---

(١) تاريخ نجد، ص ١٤٨.

(٢) تاريخ نجد، فليبي، ص ١٤٨.

بينما يرد في كتاب تاريخ كربلاء: إن مقتل عبد العزيز بن سعود الشيخ الهرم عام ١٢١٨ هـ كان بتحريض من باشا بغداد وإن القاتل كان ملاّ أفغانياً مقيماً ببغداد وقد قتله انتقاماً لأبنائه المذبوحين في موقعة كربلاء[١].

وأيًّا يكن الدافع انتقاماً إلهياً قبل أن يكون بشرياً لأن الله أراد أن يقتصّ منه بسيف عبده وأضعف خلقه. فالقاتل سواء أكان سنياً أو شيعياً كردياً أو أفغانياً فإنما كان انتقامه بدافع ما جرى في كربلاء من ظلم بحق الأبرياء.

ويقول كتاب «تاريخ العربية السعودية» عن حادثة تدمير ونهب كربلاء ما يلي:

اختمرت لدى أمراء الدرعية خطة الاستيلاء على كربلاء وفيها العتبات المقدسة الشيعية التي يكرهونها وخصوصاً ضريح الإمام الحسين حفيد النبي محمد ﷺ وحقق الوهابيون نواياهم في آذار ١٨٠٢ م[٢].

أما المراجع التاريخية العربية، ومعها من الأوروبيين فيلبي[٣] فتنقل التاريخ إلى العام التالي: آذار ـ نيسان ١٨٠٢ م والأساس المعتمد في ذلك هو مصنف ابن بشر. ويؤيد هذا التاريخ ابن سند[٤] وج. رايمون[٥]. ومجلة المنوعات الأدبية[٦] وجميع هذه المصادر قريبة زمنياً من الأحداث.

والقول الفصل بهذا الخصوص، هو لصالح عام ١٨٠٢ م وارد في تقرير وصل من العراق إلى سفارة روسيا في الآستانة وكتب قبل صيف ١٨٠٣ م فالشخص الذي عاش آنذاك في العراق وتحدّث شخصياً مع شهود

---

(١) تاريخ كربلاء ـ د. عبد الجواد الكليدار، ص ٣٢٩.

(٢) عنوان المجد، ابن بشر، ج ١، ص ١٢١ ـ ١٢٢.

(٣) Philipy H.Saudi Arabia, p.93.

(٤) تاريخ بغداد، عثمان بن سند البصري، ص ٢٨.

(٥) Raymond J. Les wahabys. p.16.

(٦) راجع: مجلة المنوعات الأدبية، ١٨٠٥، مجلد ٢، ص ٢٥.

عيان عن تدمير كربلاء من المستبعد أن يخطىء لعام كامل بخصوص تاريخ هذا الحادث الهام[1].

ويقول كاتب التقرير: رأينا مؤخراً في المصير الرهيب الذي كان من نصيب ضريح الإمام الحسين مثالاً مرعباً على قساوة تعصّب الوهابيين. فمن المعروف أنه تجمعت في هذه المدينة ثروات لا تعدّ ولا تحصىٰ وربما لا يوجد لها مثيل في كنوز الشاه الفارسي، لأنه كانت تتوارد على ضريح الحسين طوال عدة قرون هدايا من الفضة والذهب والأحجار الكريمة وعدد كبير من التحف النادرة... وحتى تيمورلنك صفح عن هذه الحضرة. (حتى المغول الذين قدموا من أواسط آسيا ولا يعرفون الكثير عن الإمام الحسين عليه السلام لم يفعلوا مثلما فعل الوهّابيون ولم يتجرؤوا على سرقة الضريح وما فيه من كنوز).

وكان الجميع يعرفون أن نادر شاه قد نقل إلى ضريح الإمام الحسين وضريح الإمام علي قسماً كبيراً من الغنائم الوافرة التي جلبها من حملته على الهند وقدّم معه ثروته الشخصية وها هي الثروات الهائلة التي تجمّعت في الضريح تثير شهية الوهابيين وجشعهم منذ أمد طويل، فقد كانوا دوماً يحلمون بنهب هذه المدينة وكانوا واثقين من نجاحهم لدرجة أن دائنيهم حددوا تسديد الديون في ذلك اليوم السعيد الذي تتحقق فيه أحلامهم. (فكيف يسددون ديونهم في الآخرة)؟!!

وها قد حل هذا اليوم في الأخير وهو ٢٠ نيسان ١٨٠٢ م فقد هجم ١٢ ألف وهّابي فجأة على ضريح الإمام الحسين. وبعد أن استولوا على الغنائم الهائلة التي تحمل لهم مثلها أكبر الانتصارات تركوا كل ما تبقىٰ للنار والسيف... وهلك العجزة والأطفال والنساء جميعاً بسيوف هؤلاء

---

(١) Rousseau J. Description. p.72 - 75.

البرابرة. وكانت قساوتهم لا تشبع ولا ترتوي فلم يتوقفوا عن القتل حتى سالت الدماء أنهاراً... وبنتيجة هذه الكارثة الدموية هلك أكثر من ٤٠٠٠ شخص.. ونقل الوهابيون ما نهبوه على أكثر من ٤٠٠٠ جمل[١].

وبعد النهب والقتل دمّروا أيضاً ضريح الإمام الحسين وحولوه إلى كومة من الأقذار والدماء. وحطموا خصيصاً المنائر والقباب لأنهم يعتقدون بأن الطابوق الذي بنيت منه مصبوب من الذهب[٢] (مثلما لجأ التكفيريون إلى تفجير منائر وقباب مرقدي الإمامين العسكريين عليهما السلام في سامراء سنة ٢٠٠٦م).

وكتب المؤرخ الوهّابي ابن بشر عن هذا الحادث يقول: «سار سعود بالجيش المنصورة والخيل العتاق المشهورة من جميع حاضر نجد وباديها والجنوب والحجاز وتهامة وغير ذلك وقصد أرض كربلاء.. فحشد عليها المسلمون وتسوّروا جدرانها ودخلوها عنوة وقتلوا غالب أهلها في الأسواق والبيوت. وهدّموا القبّة الموضوعة على قبر الحسين. وأخذوا ما في القبّة وما حولها وأخذوا النصيبة التي وضعوها على القبر وكانت مرصوفة بالزمرد والياقوت والجواهر وأخذوا جميع ما وجدوا في البلد من أنواع الأموال والسلاح واللباس والفرش والذهب والفضة والمصاحف الثمينة وغير ذلك مما يعجز عنه الحصر ولم يلبثوا فيها إلا ضحوة وخرجوا منها قرب الظهر بجميع تلك الأموال وقتل من أهلها قريب ألفي رجل»[٣].

ويقول صاحب كتاب تاريخ كربلاء ما نصّه: إن أعظم فاجعة مرّت على

---

(١) راجع: يورد روسو في كتابه رقماً أقرب إلى الحقيقة، وهو ٢٠٠٠ رأس من الإبل، ص ٧٤.

(٢) راجع: أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، الديون، ١٨٠٣ م الإضبارة ٢٢٣٥، ص ٣٨ ـ ٤٠.

(٣) عنوان المجد، ابن بشر، ج ١، ص ١٢١ ـ ١٢٢.

كربلاء في التاريخ هي غزو الوهابيين لها في ١٨ ذي الحجة، عام ١٢١٦ هـ ويستشهد بأقوال المستشرقين ومنهم الإنكليزي المستر ستيفن هيمسلي لونكريك الذي خاطب الرأي العام بصراحة وحرية في كتابه (أربعة قرون من تاريخ العراق) طبع في بغداد سنة ١٩٤١ م، لمزيد من التفاصيل راجع الصفحات ٢٢٣ ـ ٢٢٦ من الكتاب المذكور).

وقد ورد في التقارير البريطانية: هاجم الوهابيون كربلاء عام ١٨٠٢ م ودمروها بالكامل، ما عدا محلة العباس، وعاثوا في قبر الحسين وقتلوا ٥٠٠٠ من أهلها وعلمائها، وترك هذا العمل أثره في ذاكرة الفرس والعرب والأتراك ووجهت الاتهامات إلى الأتراك لعدم حمايتهم هذه القباب المقدسة[١].

كانت باشوية بغداد متقاعسة في رد المخاطر عن العراق خصوصاً تجاه القوات البدوية الوهابية وكثيراً ما كانت تتوعّد بصدّ الوهابيين إلا أن تلك الوعود لم تتحقق واستمرت الهجمات الوهابية على حدود العراق، إن تقاعس الباشوية في بغداد في الإسراع لحماية الحدود العراقية من هجمات الوهابيين كانت بسبب السلبية الدائمة مع قبائل الوسط والجنوب العربية الشيعية.

وبقيت الباشوية لا تستطيع الدفاع عن حدود العراق في وقت هي لم تسمح للقبائل بالدفاع عن نفسها أيضاً لعدم توافر الثقة بين الطرفين ولحقبة من الزمن. وكان سوء إدارة المماليك للمناطق القريبة من بغداد والمدن الدينية المقدسة (النجف وكربلاء) من أفدح الخسائر التي ترتبت على تلك السياسة التي لم توكل حماية المدن الشيعية إلى القبائل العراقية في وسط العراق. ولذلك نرى بأن الحلة قد تعرّضت إلى الهجمات الوهابية، وهي

---

(١) ستيفن هيمسلي، أربعة قرون من تاريخ العراق، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٦.

مدينة على الطريق بين بغداد والمدن المقدسة. كما أن الباشوية قد تركت الحلّة من غير تحصين على الرغم من علمها بمهاجمة القوات الوهابية لها مما جعل المهاجمين يعودون إليها غير مرة وفي أوقات متقاربة[1].

كتب هارفرد جونز Harvard Jones المقيم البريطاني في بغداد ١٧٩٨ ـ ١٨٠٦: «أن الحكومة، هنا في بغداد، لا تهتم كثيراً بتحصين الحلة على الرغم من علمها بالتهديدات التي تواجهها»[2]. ولا شك بأن إهمال تلك المناطق المؤدية إلى المدن المقدسة هو جزء من الإهمال العام الذي يحظى به جنوب ووسط العراق، مما جعله عرضة للهجمات الوهابية ولصعاليك البدو المعروفين بالذركاريت الذين لم يتوانوا هم الآخرون عن فرض ضرائبهم على القوافل التجارية أو قوافل الزائرين الشيعة للمراقد المقدسة. كما أنهم بلغت بهم سوء الأوضاع العسكرية أن فرضوا ضرائب على سكان البساتين في كربلاء نفسها. وأولئك البدو ـ كدليل آخر على سوء الأوضاع العامة في العراق ـ كانوا يحاصرون المدن وينهبون التمر حتى أصبحت تلك

---

(١) حاولت القبائل العراقية إنشاء شبه مخافر حدودية متنقلة للحيلولة دون غارات البدو والوهابيين، لكن باشوية بغداد لم تشجعها وعدّتها محاولات لفرض سيطرة تلك القبائل على أطراف التجارة البرية، بل عملت على اضمحلال ثلم المخافر أيضاً مما حفز الوهابيين على مهاجمة المدن المقدسة نفسها. ينظر: السيد عبد الحسين الكليدار، المصدر السابق، ص ٢٩ ـ ٣٠.

إن سقوط نظام الحكم في بغداد سنة ٢٠٠٣، وتفكيك وحدات الجيش بما فيها المخافر الحدودية والانفلات الأمني وضعف الشرطة والقضاء، وفرض قوات الاحتلال الأحكام الجائرة وتركها للحدود مفتوحة مهّد الأمر إلى دخول المجاميع الإرهابية إلى العراق وحفّزهم للقيام بأعمالهم الإجرامية الشنيعة وكان من بينها مجاميع التكفيريين الذين استباحوا الحرمات وقتلوا ونهبوا وقطعوا الطرق دون أن تتحرك قوات الاحتلال الأمريكي إلى إغلاق الحدود بشكل يمنع من تدفقهم إلى البلاد.

(٢) لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي (الدوحة، ١٩٦٧، ص ١٩٧).

عادة شائعة لديهم في تلك الحقبة، ودون أن تعمل باشوية بغداد على ردعهم[1].

استطاع الوهابيون غزو كربلاء ونهب كنوز مراقدها الدينية المقدسة، وقتل أهلها ثم تحرّكت قواتهم نحو النجف فهبّت قبيلة الخزاعل للدفاع عنها، واستطاعت صدّ المهاجمين بعد أن ألحقت بهم خسائر كبيرة[2].

ومن الملاحظ أن القبائل العراقية في تلك المدة من تاريخ العراق كانت تصطف مع باشوية بغداد في حالة تعرّض الأراضي العراقية للغزو من بلاد فارس أو الغزو من الجزيرة العربية على حدّ سواء. وعملت تلك الحالة على تقوية الشعور بالذات العراقية بغضّ النظر عن المذهب الديني للغازين من خارج الحدود، ولكن طبيعة الحكم المملوكي، والوسائل التي كان يتّخذها ضد السكان فقد عمل على تهشيم تلك العلاقات التي ما كانت تنمو إلاّ في حالات التعرّض للمخاطر الخارجية وحدها. ولذلك فقد كانت باشوية بغداد المملوكية غالباً ما تعود إلى ممارسة العنف ضد السكان المحليين من جديد.

وهكذا فإن العنف والتنكيل بالقبائل الحليفة للباشوية يبدأ بالتفكك حالما ينتهي الغزو. وتعود تلك الظاهرة إلى فقدان الثقة الدائم بين الطرفين كما أن المناصب العسكرية خاصة تلك المتعلقة بحماية الحدود غالباً ما تعود إلى المماليك مما يؤدّي إلى عدم تغيير الوضع على نحو دائم[3].

---

(١) السيد عبد الحسين الكليدار، بغية النبلاء في تاريخ كربلاء ٢٩ ـ ٣٠.

(٢) الكركوكلي ـ العهد العثماني، ص ٢١٣.

(٣) حول الطبيعة العسكرية للإدارة العثمانية، يمكن الاطلاع على سبيل المثال: رحلة نيبور إلى بغداد في القرن الثامن عشر، ترجمته عن الألمانية سعاد هادي العمري، بغداد: دار المعرفة، ١٣٧٤ هـ، ١٩٥٤ م، ص ٥٢ ـ ٦٠.

نتج عن أوضاع الغزو الأجنبي أن اصطف الجند الانكشارية مع السكان المحليين والقبائل العربية، وبم أن تلك الحالة قد تكررت غير مرة فقد نشأ نوع من التعاون الخاص في ذلك المجال على الرغم من أن المماليك لم يستطيعوا على العموم تغيير سياستهم الداخلية إلى حدّ بعيد. وكان الجند الانكشارية ينشقّون عن رؤسائهم غالباً بسبب سوء الإدارة المملوكية، وعدم صرف رواتبهم. ولذلك فقد التقت أحياناً المصالح الانكشارية مع مصلحة السكان المحليين[1].

(١) المصدر نفسه، ص ٥٠.

الفصل الرابع عشر

عصر المماليك في بغداد

(١١٦٣ ــ ١٢٤٦ هـ/١٧٥٠ ــ ١٨٣٠ م)

عصر المماليك:

وفي عهد سليمان باشا حدث قحط شديد في العراق واشتدت وطأته في بغداد سنة ١٢٠٠ هـ بسبب انقطاع الأمطار فمات كثير من الفقراء وهلك من الأعراب واضطرت القبائل إلى الهجرة من هذا القطر طلباً للرزق والكلأ فأرسل سليمان باشا تخفيف وطأته على بغداد فأخرج جميع ما عنده من أموال الدولة من الحنطة والشعير وقسّمه على الضعفاء والمحتاجين فلم يخفف ذلك شيئاً من وطأة القحط فاغتنم بعض أعداء سليمان باشا فرصة هذه الحادثة وأذاعوا بين ضعفاء العقول من أهل الخرافات أن ظلم الوزير أوجب غضب الله فقطع الأمطار وأنزل القحط الشديد فهاج السفهاء من العامة وحملوا علماً أخرجوه من مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني وطافوا به في الشوارع والأسواق وهم ينادون، أخرجوا هذا الوالي من بغداد فإنه بسبب ظلمه رفع الله المطر عنا، فانضم إليهم الأراذل والأوباش فأثاروا فتنة عظيمة سفكت فيها الدماء داخل المدينة فأمر سليمان باشا جنوده بتنكيلهم فهجمت عليهم الجنود وفرّقتهم فأمر سليمان باشا بصلب جماعة من

زعمائهم وحبس بعضهم ونفي آخرين فخمدت الفتنة وعاد السكون[1].

ونشبت فتنة أخرى أيام إمارة عبد الله باشا بين البغداديين أدّت إلى نشوب حرب دموية في داخل المدينة قتل فيها عدد كبير.

وأعظم ما أصاب بغداد سنة ١٨٣٠ م في عهد داود باشا، حيث حدث طاعون في بغداد وكان شديد الوطأة ففتك بالأهلين فتكاً ذريعاً حتى بلغ الموتى في اليوم عشرة آلاف في رواية، ويروى أنه مات في شهر واحد نحو الثلاثين ألفاً وفرّ منها من استطاع إلى النواحي القريبة حتى أصبحت بغداد خالية تقريباً وفقد من بها من يحفر القبور ومن يغسل الموتى ومن يحمل الجنائز والذي زاد في المصيبة الغرق الذي أصاب بغداد في تلك الأثناء فقد زادت مياه دجلة وطغت حتى انبثق الماء وأحاط بالمدينة ثم سرى إلى داخلها وهدّم قسماً من السور في الجانب الشمالي الغربي ثم سرى إلى بعض المحلات فهدّم نحو مائتي دار في الوقت الذي يفتك فيه الطاعون بأهل المدينة، فانقطعت المواصلات وأصبح الناس هذا يموت بالطاعون وذلك بالغرق، وآخر جوعاً لفقد الطعام وشدة القحط وفرّ الابن من أمه وأبيه وصاحبته وأخيه واشتغل كل بنفسه حتى أن الأم كانت ترمي ابنها في الطريق إذا ظهرت عليه عوارض الطاعون وأصبحت جثث الموتى في الشوارع والطرقات، فقد كانوا في بادىء الأمر يدفنون الموتى كالمعتاد فلما قلّت الناس وفقدوا من يحملوا الجنائز ومن يحفر القبور صاروا يلقون في كل حفرة عدداً كثيراً من الموتى (قبور جماعية) فلما اشتدّت وطأة الطاعون وعظمت المصيبة أخذوا يدفنون في الجوامع والمساجد ثم صاروا يطرحون الجثث في الطرقات أو يتركوها في الدور حتى اضطر داود باشا عندما خفّت وطأة الطاعون وعاد الذين فروا منه إلى بغداد أن يأمر عساكره برفع جثث

---

(١) مختصر تاريخ بغداد، للأعظمي، ص ١٧٣.

الموتى ودفنها وجعل أجرة ذلك عن كل جثة مائة قرش فرفعوا ما وجدوه منها في الشوارع والأسواق وكان عدداً عظيماً وأنفل جيش داود باشا حيث مات بعضه وانهزم بعضه ولم يبق منه إلاّ عدد قليل عدا المماليك المعروفين بمماليك بغداد وهم الذين كانوا حينئذ مدافعين عن المدينة[1].

وفي عهد داود باشا أيضاً أن علي رضا باشا سار بجيوش السلطان العثماني حتى اقترب من بغداد وكتب إلى داود باشا يخبره بأمر السلطان. فعمد داود باشا إلى تعبئة جيوشه للحرب والدفاع عن بغداد، وكانت الأسوار محكمة البناء وأبراجها مشحونة بالمدافع والجنود من المماليك، وبعد مراسلات ومكاتبات جرت بين الطرفين حوصرت بغداد ودام الحصار ثلاثة أشهر فأصيبت بغداد بكارثة جديدة (الطاعون ـ الغرق ـ الحرب) وكان علي رضا باشا قد علم بفتك الطاعون ببغداد وتفرّق جنودها فطلب الحرب أو التسليم فأبىٰ داود باشا بادىء الأمر ثم اضطر إلى التسليم بسبب ما حلّ بجنوده من الطاعون، فأجاب أخيراً بالقبول. ويروىٰ أن البغداديين لما ضاق بهم الحال من شدّة الحصار والجوع قاموا على المدافعين عن المدينة أيام محاصرتها من جيش السلطان العثماني فقبضوا على داود باشا وأخرجوه إلى علي رضا باشا لتنتهي حكومة المماليك بداود باشا بعد أن دامت ٨٣ سنة (١١٦٣ ـ ١٢٤٦ هـ/ ١٧٥٠ ـ ١٨٣٠ م).

وقد بدأت منذ تولّي الكتخدا سليمان باشا سنة ١١٦٣ م الذي كان مملوكاً لأمير العراق أحمد باشا المتولي سنة ١١٤٩ هـ وانتهت بداود باشا مملوك سليمان باشا الكبير المتوفى سنة ١٢١٧ هـ بعد أن كانت الدولة العثمانية لا تستطيع عزلهم إلاّ بالحيل لشدّة بأسهم وكثرة أتباعهم واستفحال أمرهم وقام من هؤلاء المماليك ولاة اشتهروا بالحزم والمقدرة كسليمان باشا الكبير

---

(١) مختصر تاريخ بغداد، للأعظمي، ص ١٨٤ ـ ١٨٥.

وداود باشا وغيره ممّن أدخلوا في بغداد إصلاحات جمّة لا زالت تذكر حتى اليوم، غير أن أكثرهم كانوا يقتلون من شاؤوا ويولون من أرادوا ويحكمون بما تشتهيه نفوسهم حتى سئم حكمهم الناس وضجروا من استبدادهم وظلمهم[1].

وبعدما انقرضت حكومة المماليك واستلام الوزير الجديد علي رضا باشا اللاز بغداد إلا أن أهلها لم ينعموا بالراحة والأمان على الرغم من قيام بعض الوزراء الذين وجهتهم الدولة العثمانية إلى بغداد قد عملوا بعض الإصلاحات والمشاريع الخيرية والمؤسسات النافعة خصوصاً في عهد مدحت باشا ولما تمّ عزله سنة ١٢٨٨ هـ جاء من بعده رجال أتراك ممن لم يفيدوا البلاد وكان جلّ همهم جبي الأموال من أهل البلاد بالظلم والقسوة والعنف حتى أنهم لم يتركوا في خزينة بغداد من المال الذي يكفي نفقات الحكومة ورواتب الموظفين ومخصصات المتقاعدين والعجزة فعاشت بغداد في بأس وتقهقر وانحطاط وسادت الرشوة ونزل البلاء بالفقراء واستعبد الفقراء وما إن تولّى السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٢٩٣ هـ الدولة العثمانية حتى ازداد الظلم والاستبداد التركي على أهل العراق خصوصاً بغداد حتى تمّ إرسال نحو أكثر من عشرة آلاف جندي من البغداديين عدا المتطوعين إلى ساحة الحرب من جهات قفقاسيا أثناء نشوب الحرب بين تركيا وروسيا سنة ١٢٩٣ هـ التي انتهت بهزيمة الأتراك وخسرانهم وهلاك أكثر جنودهم ولم يرجع من البغداديين غير نفر قليل.

فهاجت بغداد بالنياح ومآتم العزاء والحزن، والجدير بالذكر أن الذين تم اختيارهم قسراً من البغداديين الذين سيقوا إلى الحرب كانوا من الشباب ومع كل ما مرّ به البغداديون من ظلم أيام الأتراك يدفعنا إلى أن نتأسى بالعزاء بمن قال:

---

(١) مختصر تاريخ بغداد، للأعظمي، ص ١٨٦.

دعوت على عمر فلما فقدته بليت بأقوام بكيت على عمرو[1]

إن حركات الاستقلال المحلي في العراق منذ بديات العهد المملوكي عام ١٧٥٠ تعكس طموحات العراقيين بالاستقلال السياسي قبيل الاحتلال البريطاني للعراق عام ١٩١٤، وهذا يعني بأن الوعي الوطني العراقي قد اتّخذ طابعاً أعمق من كونها مجرد تمرد دائم على السلطة المركزية في بغداد أو الباب العالي أيام العثمانيين، ولم تسع إلى تحقيق المغانم المحدودة وإنما اتّخذت غالباً منحًى سياسياً واضحاً، فلم تتغلب الطائفية إلاّ بما خطط له الحكّام بالتحايل على الشعب واستغلال ضعفاء النفوس، فمكوّنات الشعب العراقي قدّمت صورة واضحة مكتملة النضج في الفكر الوطني والتي هيأت الأرضية لقيام ثورة ١٩٢٠ وظهور الدولة العراقية الأولى ١٩٢١ ـ ٢٠٠٣.

إن عقود الاحتلال الصفوي القادم من بلاد فارس للعراق، وحروب استعادته من العثمانيين وما رافقها من خراب اقتصادي واسع لبنيته البدائية، قد أحدث خلخلة متعاقبة في تركيبته الاجتماعية (فضلاً عن الفتن الطائفية المفتعلة التي ولّدت شرارات الحروب الأهلية بين العراقيين والتي راح ضحيتها مئات الآلاف من الأبرياء)، وضعت البلاد والدفاع المتكرر عنها أمام مصاعب جديدة، نتج عن ذلك محاولات تفكير قبلية من السكان العراقيين ذوي المكوّنات العشائرية التي كانت السمة الغالبة لهم لوضع حد لتلك التجاوزات المتكررة. ولذلك فإن حركات الاستقلال المحلية ليست موجهة ضد الدولة العثمانية بالدرجة الأساس، بقدر ما هي محاولات لدرء الأخطار العسكرية الخارجية المحيطة بالبلاد من حين لآخر.

وعلى الرغم من أن محاولات الاستقلال المحلي كانت ذات طابع قبلي واقتصادي وعسكري إلا أنها أظهرت منذ البداية إمكانية في الإفادة من

---

(١) مختصر تاريخ بغداد، للأعظمي، ص ١٩٦.

العوامل الاجتماعية حيث لم تعق الاختلافات الدينية والمذهبية والأثينية عن قيام تحالفات محلية كبيرة بين السكان المحليين، وكذلك المماليك ـ أحياناً ـ الذين هم عبيد سابقون في الدولة العثمانية تدرّبوا على القيام بالأعمال العسكرية والإدارية[1].

ولا شك بأن تعدد الولاة المماليك، وتناوبهم على حكم العراق كولاية بعيدة ومهملة، وبقاء سلطتهم محصورة في بغداد، فضلاً عن استخدامهم مختلف الوسائل القمعية في استيفاء الضرائب من السكان المحليين وبواسطة القوة العسكرية وحدها، قد جعل البلاد عرضة للانهيار الاقتصادي الشامل حقبة طويلة من الزمن. كما أن طبيعة السلطة العثمانية في الباب العالي في تغيير الولاة تمخّض عنه نوعاً من تقارب المصالح بين السكان المحليين وبعض الولاة المعينين من المماليك أيضاً، وهيأ حالة مهمة لظهور نزعات الانفصال عن السلطة المركزية (الآستانة) أيضاً. وعلى سبيل المثال فقد ولّي ٣٩ والياً تركياً ومملوكياً على العراق في الحقبة من ١٦٣٩ ـ ١٧٠٤ م أي بمعدل وال واحد في أقل من سنتين، كما ساعدت تمردات الجند الانكشارية وما رافقها من أعمال حربية عنيفة على تهديد طرق المواصلات التقليدية، وخراب الأرياف، وإهمال السدود والقنوات الزراعية، وشيوع حالة تدهور الري، مما عرّض البلاد إلى سلسلة من الفيضانات المتكررة والأوبئة الفتّاكة التي عانى منها سكان العراق. فكوّنت تلك الأوضاع نوعاً من شيوع الرغبة بالتمرد على السلطة المركزية التي أهملت شؤون البلاد ومن ثم محاولات الانفصال المتكررة[2].

---

(١) حنا بطاطو، العراق، الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، ترجمة عفيف الرزاز، بيروت، مؤسسة الأبحاث العربية ط ٢، ١٩٩٥، ص ٢٧ ـ ٣٠.

(٢) علي شاكر علي، تاريخ العراق في العهد العثماني ١٦٣٨ هـ/ ١١٦٤ م.

إن تعرض السكان المحليين في العراق في تلك الحقبة إلى عمليات السطو والإفقار الدائم من العساكر العثمانية التابعة لباشوية بغداد ومطاردتهم للقبائل في البوادي القريبة والقصبات حتى عمق الأهوار أحياناً قد أفقد الثقة بقوة بين السكان والسلطات الحاكمة ولم تعد الروابط الدينية كافية لاستمرار النظام السياسي العثماني في العراق. (فقد كشف العراقيون السياسة العثمانية التي ترتكز على تفريق الإخوة (سياسة فرِّق تسُد) وأن حماية السُّنة في العراق التي كانوا يناورون بها لخدمة مصالحهم باتت مكشوفة وغير مجدية أمام عامة الشعب الذي بات لا يطيق وجودهم في العراق).

وفي الوقت نفسه فقد كان الأجانب المقيمين في العراق وخاصة البريطانيين الذين تمتعوا بامتيازات كبيرة[1].

إن انتشار ظاهرة الأحلاف القبلية الكبيرة، وهذا شأن العراقيين دوماً عند المخاطر فإنها تمكّنت أن تتمتع بنفوذ قوي في أن تلعب دوراً مهماً في صنع سياسة تلك الحقبة الزمنية (وهذا ما يذكرنا باليوم... في سعي العشائر العراقية إلى التوحّد ونبذ الخلافات بينهم ووضع مصلحة البلاد فوق كل المصالح والأهداف الأخرى، وعلى الرغم من أن حكومة الباشوية المملوكية العثمانية ومن بعدهم البريطانيين عملوا على بثّ الفرقة والنزاعات الطائفية بين تلك الأحلاف إلا أنها كانت دائماً تفشل في النهاية. لأن التفاهم بين العشائر المحلية يكون عاملاً فاعلاً في تقارب المصلحة العليا وهي مصلحة الوطن.

أصبح العراق في ظل الأوضاع الفوضوية التي عاشها، محط اهتمام الدول الاستعمارية الكبرى آنذاك. ودخل في مخططاتها التوسعية، ولذلك

---

(١) بصرة ولايتي سالنامه (رسالة ولاية البصرة) تقارير الحكومة العثمانية في البصرة مركز الدراسات البصرة، رقم ٧٨٨٥ تاريخ ٢١/٧/١٩٧٧ م ص ٨٧.

فقد عمدت بريطانيا على عقد معاهدة مع الدولة العثمانية عام ١٧٩٩ تضمّنت رغباتها في المحافظة على مصالحها[١].

وبعد أن تأكد العراقيون من حقيقة النوايا البريطانية بالسيطرة على العراق، كان الشيعة سبّاقون في مقاومة الاحتلال البريطاني، فأعلنت النجف الأشرف ثورتها المحدودة عام ١٩١٨ وتمكّن الثوار من قتل الكابتن مارشان والسيطرة على الحامية البريطانية في هذه المدينة. وشهد شمال العراق حركات للأكراد عام ١٩١٩ أخمدتها بريطانيا بقوة السلاح، وكانت ثورة حزيران ١٩٢٠ خاتمة المطاف حيث أطلق الفرات الأوسط شرارة هذه الثورة لتشمل فيما بعد معظم أنحاء العراق، ورغم أن قيادات هذه الثورة تمثّلت في المراجع الدينية والعشائرية الشيعية إلا أن الإخوة الأكراد والإخوة العرب السُّنة أظهروا تكاتفهم ومساندتهم للثورة، بحيث تجسّدت الوحدة الوطنية العراقية بأروع صورها. ورغم عدم التكافؤ في القوة العسكرية بين العراقيين الثائرين وبين الإنكليز، إلا أن الثورة أرغمت البريطانيين على تغيير سياستهم ليس في العراق فقط وإنما في منطقة الشرق الأوسط، وكان بناء الدولة العراقية عام ١٩٢١ وقيام النظام الملكي وتنصيب فيصل الأول ملكاً على العراق ثمرة من ثمارها.

ورغم القيود التي وضعتها بريطانيا على العراق ممثلة في معاهدة ١٩٢٢، ثم معاهدة ١٩٣٠ إلا أن فيصل الأول نجح في تحقيق وحدة العراق والعراقيين. ورغم أن الشيعة كانوا يشكّلون غالبية السكان والمفجرين لثورة ١٩٢٠ والعاملين على مجيء الأمير فيصل وتنصيبه ملكاً على العراق، فقد غبنت حقوقهم مع بدء تشكيل الدولة العراقية بشكل لا ينسجم مع نسبتهم الكافية كما كان الحال عليه في عهد الدولة العثمانية. ويبدو أن مقاومتهم

---

(١) رحلة نيبور إلى بغداد في القرن الثامن عشر، ص ٥٠.

للاحتلال البريطاني كانت سبباً رئيسياً أدّى إلى هذه النتيجة في حين كانت سياسة الدولة العثمانية الطائفية هي السبب الذي ألحق بالشيعة غبناً وحيفاً كبيرين، في حين سيطر فيه الإخوة العرب السُّنة على مقاليد الأمور[1].

إلا أن هذا الأمر لم يدفع بالشيعة إلى ممارسة العنف واللجوء إلى استخدام الأعمال الإجرامية من تفخيخ واغتيالات بل آمنوا بسلمية العمل السياسي من أجل أن لا يدخل العراق في جحيم جديد.

(١) ركائز الوفاق مع أكراد العراق، القسم الثاني، د. رياض رشيد ناجي، ٢٠٠٤، ص ٢.

الفصل الخامس عشر

فتنة سامراء

تفجير مرقدي الإمامين العسكريين(عليهما السلام)

واندلاع الحرب الطائفية

لا شك أن لحادث تفجير مرقدي الإمامين العسكريين(عليهما السلام) في سامراء في ٢٢/ شباط/ ٢٠٠٦ وما أعقبها من حوادث في مختلف مناطق بغداد وحواليها أعطت احتمالات دخول العراق في معترك الحرب الأهلية على الأساس الطائفي.

وقد كانت للمؤشرات السلبية التي صاحبت الأجواء السياسية سبباً آخر لتفاقم الأزمة ودفع البلاد إلى الهاوية.

إلا أن العراقيين الشرفاء إلى جانب الكتل السياسية البرلمانية ورجال الدين المعتدلين قد أسهموا جميعاً في تهدئة الأوضاع.

إن ما حدث من تجاوزات على بيوت العبادة هنا وهناك وموجة القتل والاغتيالات العشوائية على الهوية المذهبية مع تفشّي ظاهرة التهجير القسري وتوتر الشارع العراقي الذي أعطى انطباعاً على اندلاع معارك طاحنة بين أبناء الشعب الواحد كان بلا أدنى شك لتدخل القوى الإقليمية ودول الجوار

دوراً كبيراً في تصعيد حدة هذا التوتر من خلال دعم هذا الطرف أو ذاك مع إشراك الإعلام المضلل وتقديم التسهيلات اللازمة لبعض الجهات لإشعال فتيل الحرب الطائفية.

ورغم كل هذه الدلائل والإشارات التي كانت تبدو خطرة بالفعل لكن العراقيين أثبتوا من جديد أنهم شعب قادر على تخطّي الصعاب وحلّ مشاكله عن طريق اللجوء إلى لغة العقل والمنطق والابتعاد عن كل المؤثرات الخارجية التي من الممكن أن تعكّر صفو جو الأخوة الوطنية وبالفعل استطاعوا توحيد الصفوف واعتبروا أن ما تمرّ به البلاد اليوم هي مجرد أزمة يمكن تجاوزها بمزيد من الوعي والتكاتف إلى جانب ضرورة اقتناعهم بضرورة التنديد بالعمليات الإرهابية وإفشال كل المخططات الرامية إلى تمزيق الوطن وإغراقه في حرب طائفية مع اعتراف كل مكوّنات الشعب العراقي على ضرورة وحدة الموقف وأهمية الفصل بين العمليات الإرهابية التي تستهدف المدنيين الأبرياء وبين الممارسات الطائفية التي تقوم بها فئات متطرفة ضالّة لا تستثني أحداً من العراقيين وكان لجدية العمل الموحد من قبل كافة السياسيين ووعي الجماهير بخطورة الوضع الذي قد يعصف بالمشروع السياسي إلى الهاوية دفع الجميع إلى سرعة التجاوب مع المبادرات السلمية والحوارات البنّاءة التي أبعدت شبح الاصطدامات الطائفية مع التأكيد أن لتوجيهات ونداءات المرجعيات والقيادات الدينية والسياسية دوراً فعّالاً في تجنّب المزيد من إراقة دماء الأبرياء والحثّ على نبذ الطائفية مع الدعوة الصادقة باللجوء إلى طاولة التحاور والسيطرة على المناطق الساخنة ساهم إيجابياً في وضع حدٍّ للممارسات الطائشة للفوضويين الذين أرادوا إحراق البلاد وجرّ العراق إلى حرب لها بداية وليس لها نهاية وارتقى العراقيون بوعيهم وشعورهم بالمسؤولية تجاه ما يجري من

أحداث إلى ضرورة العمل للدخول في مرحلة المفاوضات السلمية وتقديم التنازلات السياسية والاحتكام إلى لغة التفاهم المشترك بعد أن أدركوا أن الحرب ليست من مصلحة أحد بل هي نار تحرق الجميع بلا استثناء ولن يخرج منها طرف رابح الجميع فيها خاسرون.

لذا كان القرار حاسماً من خلال التعاون بجدية الخروج من الأزمة بإيجاد الحل الذي يقتضي بضرورة التعايش السلمي في هذا الوطن والابتعاد عن التطرّف والتعصب والتشنج الفكري إلى جانب الابتعاد عن كل الخطابات المغلفة بالطائفية والمذهبية مع توحيد الجهود للوقوف بوجه الإرهابيين الذين يستهدفون الأبرياء ويحاولون تدمير البلاد وتقويض التجربة الديمقراطية الحيوية التي ارتقى صرحها الشعب العراقي وهذا ما دفع ببعض القوى الدولية من لعب دور سيىء لزرع الفتنة وتأجيجها على أرض الرافدين خوفاً من احتمالات زحف التجربة الديمقراطية الرائدة التي ولدت في العراق الحر إلى بلدانهم إلى جانب رؤيتهم المصلحية والقومية التي تقتضي أن يبقى الوضع متأزماً لإفشال العملية السياسية ودحر المشروع السياسي للحكومة الوطنية المعلنة.

ورغم حجم الأزمة وعمق المؤامرة إلا أن العراقيين بوعيهم الوطني أعلنوا أن الولاء لمصلحة العراق أكبر من أية مصلحة أخرى أما الظالمون الحاقدون المتآمرون على العراق وأهله فقد أفشل الله ما أعدوه من مخططات شيطانية لتدمير العراق وسنرى بإذن الله أي منقلب ينقلبون فالله ليس غافلاً عمّا يفعلون وسيحق عليهم قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾[1]

بوعي العراقيين وتكاتفهم تسقط كل محاولات الفرقة والفتنة الطائفية

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢.

لأن الهوس الغوغائي والفوضى الانفعالية لا تثمر عن نتائج إيجابية مقبولة للجميع بل تسهم في خلق الأزمات ورفع درجات الانفلات والعبثية في المجتمع وتعطي المساحة المناسبة لظهور الفئات الضالة من ذوي النفوس الضعيفة لتصطاد في الماء العكر.

إننا نقف اليوم أمام مسؤولية كبيرة تجاه وطننا وشعبنا تحتم علينا تلك المسؤولية التحلّي بالشجاعة والصبر واتخاذ الموقف الصحيح بالصف مع الشرفاء من أبناء هذا الوطن الذين يدعون إلى نبذ العنف والطائفية بالاحتكام إلى لغة العقل والمنطق والشفافية في التحاور والتشاور للموازنة في تقارب وجهات النظر بين جميع الأطراف السياسية.

فرصاص البندقية وزرع العبوات الناسفة وتفجير السيارات المفخخة وإثارة الفتن والفوضى لا يمكنها أن تسهم في حلّ مشاكلنا الداخلية العالقة بل تزيد من تعقيدها في الوقت الذي نحن فيه بأمس الحاجة إلى تفعيل أسلوب التفاهم والتعايش السلمي والجلوس على طاولة التحاور المشترك وسلوك المنهج الدبلوماسي للمساعدة في إنجاز مشروعنا الكبير.. الديمقراطية لينجينا الله من شرّ الفتن ويجعله موعظة وحكمة للمتّقين.

جاء في محكم كتابه قائلاً سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِي ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[1].

وعلى الجميع المساهمة الجادة للعمل على بناء الأجهزة الأمنية الكفوءة ومؤسسات الدولة النزيهة وإعمار البلاد لنتمكن من إخراج المحتلّ كما يحلو لبعض الفئات السياسية تسميته، إلا أن الحقيقة التي لا يمكن لنا أن ننكرها أو نغضّ البصر عنها بأن القوة المتعددة الجنسيات كان لها الصولة الكبرى في ردع العصابات الإرهابية التكفيرية المجرمة التي كانت تستهدف

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.

تدمير العراق أرضاً وشعباً وحضارة وكان أداء قواتها العسكرية بمستوى المسؤولية وقد أدّت مهامها بشكل جيد ونجحت بالمشاركة الحقيقية في التعاون مع قوات الأمن العراقية الشجاعة في تحقيق نسبة عالية جداً من الاستقرار الأمني للبلاد.

وإذا قررنا حكومة وشعباً مغادرة تلك القوات التي خوّلتها الأمم المتحدة رسمياً بالعمل داخل العراق في مهامها العسكرية والإنسانية لمساعدة العراقيين في دحر الإرهاب ليعيشوا أحراراً في وطنهم بلا وصاية من دول الجوار وإتمام العملية السياسية لبناء الدولة العراقية الديمقراطية الجديدة، علينا أن ندرك جيداً بأن أول متطلبات تنفيذ ذلك القرار الحاسم هو إتمام العملية السياسية سلمياً بلجوء جميع الأطراف إلى العمل السياسي السلمي ونبذ العنف وترك السلاح جانباً والابتعاد عن لغة التهديد والوعيد والاغتيالات المدبرة والمؤامرات الخفية.

ليس من مصلحة الشعب العراقي التمحور والانغلاق الحزبي والمذهبي والطائفي والعرقي كما ليس من مصلحة الجميع بلا استثناء الانعطاف نحو المحاصصات وتهميش وتغييب الآخرين عبر استلاب حقوقهم المشروعة بالمشاركة في بناء العراق الجديد.

ومن الضروري إدراك أهمية الموقف السياسي الحالي بمعرفة أننا نقف على بعد خطوات من الجحيم الحقيقي للحرب الأهلية الهوجاء التي قد تهلكنا وتحرق أرضنا وزرعنا ونسلنا وتهدد مستقبلنا بخطر الدمار الشامل.

وفي ذات الوقت نحن قريبين أيضاً من مستقبل مشرق زاهر يضمن لنا جميعاً كل سبل الراحة والأمان والاستقرار والخير والعطاء والرفاهية رغم كل المعاناة والمشاكل التي تمرّ بها.

فالكل في وطننا لهم الحق في تقاسم خيرات أرضنا الطيبة دون أن

تستأثر به فئة دون أخرى كما للجميع الحق في دخول العملية السياسية والمشاركة في السلطة على أساس الاستحقاق الوطني والانتخابي.

ولنتأمل بعض التفاصيل الدقيقة من حياتنا ونقارنها ببعض الأدوار التي شهدنا مآسيها اليومية ولننظر ما الذي يجنيه السُّني عندما يقتل أخيه الشيعي أو يقوم بمصادرة حقه في ممارسة شعائره الدينية؟

وما الذي يجنيه الشيعي عندما يقوم بقتل السُّني ليهمش دوره في عراقنا الجديد؟

ألسنا جميعاً شعباً واحداً ونعيش على هذه الأرض منذ آلاف السنين، تقاسمنا الخبز معاً وشربنا من ماء دجلة والفرات، جمعتنا الشدائد والمحن وأبكتنا وأدمتنا المآسي والأحزان واشتركنا معاً في الأفراح والسعادة وقضينا دهراً من الزمن متحابين متآلفين كالعائلة الواحدة نحلم بعراق مزدهر ونصبو إلى أن ينال أولادنا مستقبلاً أفضل وحياة هانئة مستقرة.

أما العنف والاقتتال فلن نحقق من خلاله إلا مزيداً من الدمار والخراب والأحزان والأوجاع ومشقّة الحياة وغضب الله وحتى لا نكون كالذين قال الله فيهم سبحانه وتعالى: ﴿تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

إن الطائفية لا يمكن لها أن تحقق لوطننا الأمان والاستقرار ولا يمكنها أن تسهم في بناء مستقبل مشرق لأجيالنا القادمة لأنها لعنة كبيرة علينا أن نتحاشاها كي لا تدمر مجتمعنا الطيب.

وعلينا أن نستفيد من عِبَر التاريخ ومآثر الأيام وما تركته من آثار محزنة على الكثير من شعوب العالم التي عاشت ويلات الحرب الأهلية وما صبت

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٥.

عليها من مآسٍ وخراب التي كان من أهم مسبباتها ركون تلك الشعوب وسعيها وراء الفتنة الطائفية.

ولنأخذ لبنان العربية التي شغلتها الحرب خمسة عشر عاماً تركت عليها لعنة الطائفية بصماتها السوداء لتتجرع مرارة الألم والحرب المدمرة التي حصدت أرواح الآلاف من خيرة شبانها وتركت لبنان جريحة تئن تحت أنقاض الدمار والخراب.

ولنأخذ العبرة من الاضطرابات السياسية والطائفية والمذهبية التي عاشتها يوغسلافيا وإيرلندا وأفغانستان وغيرها من دول العالم التي كانت شاهداً حياً على حروب دامية دفعت جراءها ثمناً باهظاً من دماء أبنائها وخيرات أوطانها.

فمن السذاجة الاعتقاد بأن تلك الاضطرابات مجرد اقتتال طائش لأنها تجارب واقعية مريرة وانتهاكات وحشية بحق الإنسانية تعطي صورة واضحة عن عمق التعاسة الحقيقية التي عاشتها شعوب رضخت لأهوائها ورفضت الاحتكام للغة العقل والمنطق وفضّلت خنادق الموت على بشائر المحبة والسلام.

﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1]

ونظراً لما تمر به البلاد من ظروف استثنائية فإن الضرورة تقتضي للحفاظ على وحدة العراق أرضاً وشعباً العمل الجاد للتخلّص من عبء الميليشيات ونزع سلاحها بعد أن انكشفت حقيقتها أنها المسبب الحقيقي وراء ما يجري في العراق من إثارة هواجس الخوف والقلق إلى جانب التجاوزات الخطيرة على أمن واستقرار البلاد خصوصاً بعد الاعتداء الآثم

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

على حرمة الإمامين العسكريين في سامراء، فقد أصبحت الميليشيات منافسة للسلطة وتحاول أن تفرض نفسها على الشارع بديلاً عن القانون وسيادة الدولة بل وأخذت المساحة الكبيرة للتوسّع من خلال قوانينها للحصول على المكتسبات السياسية، فالوجه العام للحقيقة أن هناك ميليشيات ظاهرة معلنة وواضحة وهناك من لا يعلن عنها، وللأسف لأن هناك قوى تملك ميليشيات تعمل في الخفاء وتتفاوض من خلال بابين أحدهما ضمن العملية السياسية والأخرى تخرج متمردين يثيرون الفوضى والعبث بأمن واستقرار المواطنين.

والحقيقة التي يجب أن يدركها الجميع بأنه ليس هناك ميليشيات مهما كان دورها قادرة على خدمة العراق الجديد حتى وإن كانت تجود ساعية لتقديم الخدمات للناس إنما تبقى في مضمونها شوكة في خاصرة الوطن، بل هي الحاجز الكونكريتي الكبير أمام تقدم واستقرار البلاد.. فمن العبث والغباء أن نفكر بأن من يحمل السلاح بيد ويقدم أية خدمة باليد الأخرى على أنه عمل بطولي في صالح الشعب، نعم.. إنه عمل جيد بلا شك ولكن ألا يجوز تقديم هذا العمل الإنساني بلا حمل للأسلحة والأعتدة في الشوارع؟

ماذا لو اختلفنا بالرأي مثلاً مع هذا الإنسان المعبأ بالأسلحة على مختلف أنواعها، فهل يكمل عمله الخيري أم يصوب كلاشينكوفه إلى صدر المواطن؟ وعليه إن مظاهر التسلح في الشارع العراقي يجب أن تنتهي إلى الأبد وتعود الثقة بين المواطنين والأجهزة الأمنية فمن خلال تعزيز هذه الثقة فإن الوضع الأمني سيأخذ طابعاً أكثر تقدماً واستقراراً وهو حتماً السبيل الأمثل لاستقرار العراق وتقدّمه.

فالميليشيات لا يمكن أن تكون في حماية المواطن لأنها حتماً ستدخل في نزاعات وصراعات.. وبلادنا تغرق اليوم في حرب الميليشيات العارمة.

ومن الخطأ أن ننظر إلى هذه الميليشيات التي تقبع تحت الأرض وتسحق حرية وأمن الشعب على أنها منضبطة أو أن ولاؤها للوطن، فولاؤها معروف وهم قد نشطوا مجاميعهم وحددوا هدفهم للعمل ضد العراق فهناك مجاميع منظمة وممولة من جهات إقليمية بدأت منذ السنين الثلاث الماضية بعضها لا زال تحت الأرض والبعض الآخر يجول وينعر في شوارع العراق.

إن بناء العراق الصحيح يجب أن يكون فيها للأحزاب دوراً سياسياً إيجابياً بعيداً عن تأطيره بالميليشيات الطائفية والحزبية الضيّقة.

كما ليس من صالح الشعب والوطن العراقي أن تكون تلك الميليشيات ممولة ومجهّزة ومدربة حيث أصبحت معروفة للجميع أن لها أذرعاً كالأخطبوط امتدت إلى أغلب مدن العراق.

نعم، إن لدول الجوار مصالح ومطامع كما تريد من العراق ساحة مواجهة مع الولايات المتحدة وعليه يجب أن يدرك العراقيون أن هذا التدخل يعدّ خطراً كبيراً على مستقبل العراق وتجربته الديمقراطية الجديدة..

وعلى السياسيين أن يدركوا أن الوطن فوق المصالح أياً كانت المنافع والمكتسبات وعليها أن لا تندفع بالعمل في اتجاهين اتجاه بناء الدولة واتجاه بناء الميليشيات لصالح قوى هي بالأساس لا تريد للعراق أن ينهض من كبوته وأن لا يتقدم وأن لا تزدهر حضارته من أجل أن تبقى وصايتها وتعيد مآثر الماضي مرة أخرى.

كما على السياسيين ومن هم في موقع المسؤولية أن يعوا بأن التعامل مع الميليشيات خطر كبير قد ينقلب عليهم مثلما انقلب الجناح العسكري للإخوان المسلمين على عبد الناصر والسادات لأن الميليشيات كما هي معروفة في التاريخ بعيدة عن السيطرة لو فلتت بالاتجاه الفوضوي العبثي.. فمن الضروري أن نأخذ الدروس من التاريخ ونستوعب الفكرة التي تؤكّد أن لا

دولة ولا استقرار بوجود تلك الميليشيات. لذا فإن الوقت قد حان لضرورة اتخاذ التدابير العسكرية والتعبوية اللازمة لحلّ هذه الميليشيات إلى الأبد.

فالبعض يرى أن حلّها ونزع سلاحها وإذابتها في كيان المجتمع أفضل من دمجها في الجيش خوفاً في بقاء ولائها لذلك الحزب أو تلك القوة أو المنظمة أو التيار، والبعض يرى أنه من الأفضل أن تتحول إلى قواعد سياسية سلمية.

أجل، نحن ننظر بلا شك إلى أن تلك الميليشيات قنبلة خطيرة تهدد العراق وعلينا العمل بجد وبسرعة للتخلّص من دمار تلك القنبلة بكل الطرق والوسائل الممكنة، وعلى الأحزاب أن توقف دعمها من أموال العراق المسلوبة التي تقدمها كمكافآت ورواتب إلى تلك الميليشيات، مثلما كان النظام البائد يدفع ملايين الدولارات لأعوانه من شتى الصنوف كالفدائيين وجيش القدس وغيرها وهي كلها كانت ضمن مؤسسات تنظيمية تعمل على سحق حرية وكرامة المواطن العراقي.

فمن غير المعقول أن نعود من جديد إلى نقطة الصفر ونرجع إلى الماضي الذي كنا فيه مسلوبي الإرادة نتيجة الظلم والطغيان والاستبداد والقمع الشوفيني غير قادرين فيه بالإعلان عن رأينا أو نرفع أصواتنا مطالبين بحقوقنا المشروعة كمواطنين تحتم علينا مواطنيتنا أن نعلن للعالم عن وجودنا. أما اليوم فالشعب أثبت أنه أقوى بكثير من عنجهية واستبداد الطغاة وقادر على أن يقول كلمته لأنه صاحب القرار.. وقراره لا للميليشيات على أرض العراق ليعيش الجميع بسلام ومحبة في بلاد الرافدين.

﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾[1].

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٥.

أخذت الكثير من الأسئلة تشغل بال الناس عن أسباب تفشّي ظواهر غريبة في بلادنا بعيدة كل البعد عن واقعنا الاجتماعي كالعنف ووحشية القتل كقطع الرؤوس والتمثيل بجثث القتلى والاندفاع الغوغائي نحو العدوان الشبيهة بهمجية العصور القديمة، إضافة إلى تفشّي التعصّب الأعمى والتطرّف الطائفي المقيت ورفض التعايش السلمي وتقبّل التقارب بين الأديان والعقائد الأخرى واستباحة الحرمات من خلال استهداف أماكن ودور العبادة.

فما الأسباب والدوافع الحقيقية وراء هذا الانحراف اللامسؤول والهمجي التي عمّت أرجاء بلادنا وجعلته مركزاً لاستقطاب الإرهابيين التكفيريين؟

ولماذا فشلنا في أن نجعل من وطننا ملاذاً آمناً لأبنائنا وسمحنا لأفكار ابن لادن والظواهري والزرقاوي بالتأثير على عقول بعض الشباب للترويج عن فكرة الموت والانتحار؟

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾[1].

كثيرة هي الأسئلة التي تحتاج إلى أجوبة شافية ولكن المواطن العراقي أصبح تائهاً لا يعرف الوجه الحقيقي لمساره في ظل ضياع الحقائق. فقد تأكد للشعب العراقي والعالم أجمع أن شرور التكفيريين ومن يساندهم ويناصرهم لا تقف عند حد معين، بل هم متمردون حتى على أنفسهم

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٢.

ويرفضون أي تقارب أو تسامح مع الآخرين وباتوا يهددون أمن المجتمعات الدولية، لا سيما أخذوا يستبيحون حرمات المؤمنين في كل مكان وعززوا إرهابهم الخطير بتجاوزهم على الإنسانية قاطبة حتى زرعوا الموت في كل شبر من أرض العراق الطاهرة.

إن السبب الحقيقي وراء وصول تلك الثقافة الغريبة إلى وطننا يقف عند سماح الكثير من الدول الشمولية المجاورة لبلدنا التي لا تؤمن بفكرة وجود الديمقراطية في الشرق الأوسط وعلى وجه الخصوص إحياءها في العراق بتصدير الإرهاب إلينا عبر هؤلاء المجانين للعمل نيابة عنهم للإخلال بأمن واستقرار وطننا.

فغالبية المجتمعات الإسلامية وللأسف الشديد لم يجد فيها الشباب الرؤية الحقيقية للحياة المستقرة بعد أن تربّوا على ثقافة الاضطهاد والعنف. وقد أسهمت المناهج التعليمية في مختلف المراحل الدراسية إلى تعميق الفجوة بينهم وبين العالم لأن غالبيتها تدعو إلى مجابهة الأعداء على أنهم السبب وراء تعاستهم وهدر ثروات أوطانهم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾﴾[1].

وساهمت تلك المناهج التعليمية في إعداد الدروس التي تبعث على الانغلاق في كيفية التفكير بالموت وعذاب القبر وكره الدنيا والتأكيد على أن العيش في هذه الدنيا بلاء وسخف مما ساهم في نموّ ثقافة الانتحار تخلصاً من عبء هذه الدنيا، إضافة إلى الدعوات المتكررة بضرورة المساهمة في ردع الأعداء عن طريق الجهاد، وهذا الجانب ترك خللاً فكرياً في عقول الشباب استغلهُ السلفيون الأصوليون التكفيريون ليشوّهوا المعنى الحقيقي والعظيم للجهاد.

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٢٨.

فقد فسّروه بمعنى الاعتداء وسلب حقوق الآخرين في الحياة، وهذا ما يؤكده قيامهم بالعمليات الانتحارية بواسطة السيارات المفخخة والأحزمة الناسفة وزرع العبوات في الشوارع والمدن لإلحاق أكبر خسارة ممكنة في صفوف المدنيين الأبرياء.

وللأسف إن الأنظمة الإسلامية التي تعاقبت على السلطة في معظم البلدان العربية وغير العربية لم تنظر إلى ضرورة تطوير شخصية الإنسان المسلم وزرع الثقة في داخله وإنما عملت على جعله مهزوزاً منكسراً يشعر بالضياع واليأس رافضاً العيش في هذه الدنيا التي أنعمها الله على البشرية كلها دون استثناء.

فمنذ ألف وخمسمائة سنة ونحن ندرّس أطفالنا في المدارس كيف يموتون في سبيل الله؟

ولم نتساءل يوماً لماذا وهبنا الله الحياة؟

أليس من المهم أن نتسابق ونتقدم على المجتمعات التي تخطو خطوات سريعة نحو التطور والحضارة والسموّ الإنساني؟ أليس بلوغ أعلى مراتب العلم والمعرفة هي الجهاد الأفضل في سبيل الله؟

أم محاولة إزهاق الأرواح البريئة والتعدّي على الناس كيفما نشاء من أجل فرض ثقافتنا وآرائنا وأفكارنا عليهم بالقوة.

لماذا نحاول أن نخلق الأعداء دوماً في حياتنا اليومية سواء في مدارسنا أم في بيوتنا أو في أي مكان نرتاده وكأن العالم كله يقف بالضد منا؟

إن الله خلق الدنيا بأجمل شكل وخصّها بأجمل الكمالات وسخّرها لخدمة الإنسان، أجل كلنا نعلم بأن العبادة واجب مقدّس وفي نفس الوقت أكّدت جميع الكتب السماوية على أهمية أداء الإنسان لحياته الطبيعية في

هذه الدنيا على أكمل وجه بأن يصونها ويحترمها لا بأن يستهتر بها أو يمتعضها.

إن الكثير من الشعوب قد أعادت النظر في ثقافاتها وتاريخها بالشكل الذي أفادت به مواطنيها إلاّ الفكر القومي العربي الذي لم يجيد النظر في تغيير ثقافته وتاريخه المليء بالكثير من المفاهيم الملفقة والأحداث المزورة إضافة إلى كونها محشوة بالفتن والأحقاد والمؤامرات حتى عاشت في ظلّ الإخفاقات الكثيرة التي أظهرت مجاميع كثيرة من الإرهابيين والمجرمين والطغاة. وإلا ما هو التفسير المناسب الذي من الممكن أن نجده لمن يحتكم الموت على الناس أو الخلاص بسب وشتم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. فانظر إلى عفونة العقل والمنطق الذي يحتكم إليه هؤلاء الجهلة الذين ابتلي بهم هذا الشعب المسكين.

ومع جميع الإخفاقات في تطهير عقول هؤلاء المرتزقة لا زال العرب والمسلمون بشكل عام ينظرون إلى أن لا نهضة للإسلام إلاّ عن طريق الجهاد. وهذه الدعوات مستمرة للكثير من الحركات الإسلامية المتطرفة التي أخذت تنمو وتعبّر عن أفكارها العدائية لشعوب العالم بشكل معلن يعلم الله مستقرّهم وما يمكرون ولا يخفى عليه أمرهم حيث قال فيهم سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾﴾[1].

هل هناك ثمة مخرج حقيقي من أزمة الاختلافات الدينية والطائفية والعرقية التي تعيشها البلاد اليوم؟ في ظل ما نشهده من فظاعة انتهاك لحرمة الإنسان العراقي؟

وبالإمكان الإجابة.. نعم، ولكن هناك مشكلة حقيقية قائمة، إلا أن

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٤٢.

الأمر لا يدخل حدود المستحيل لطالما لا زال هناك سياسيون لديهم الرغبة الحقيقية للترفّع على المكتسبات المصلحية الضيّقة والعمل لصالح العراق ومثقفون راغبون بالخروج من الدوامات الفارغة ويسعون بإخلاص بالدعوة إلى التكاتف ووحدة الصف ووجود رجال الدين غير مترددين يتناولون جوهر المشاكل القائمة بجدية بعيداً عن التعصّب والتطرّف ويسعون جاهدين بالدعوة إلى خلق الحوار البنّاء لكسر الجمود ودحر الطائفية.

فقد أدرك الجميع بأننا لا نحتاج إلى فئات مسلّحة تحترف القتل حتى نستطيع الوصول إلى ثقافة المحبة والتسامح..

فإذا فشلنا ولم نتمكن من إيجاد المساحة المناسبة لثقافة المحبة والسلام وتقبل الاختلاف فيما بيننا لن نستطيع أن نبني وطناً يسوده الأمن والاستقرار.

ولكننا متفائلين بوجود مخرج واسع للأزمة التي نعيشها اليوم، ليس لأنها سهلة بل لأن رغبة الجميع بلا استثناء هي إيجاد الآلية المشتركة التي نبني من خلالها سبل الارتقاء بأمننا وسلامة وطننا والاتفاق بأن هناك أسساً يجب أن تسخّر لإيجاد العناصر المشتركة بين الجميع ومنها عدم ربط الطموحات السياسية الخاصة بطائفة معيّنة دون غيرها. والتأكيد على تعميم أفكار التسامح والحوار وتقبّل آراء وأفكار الآخرين بلا تشنّج وفتح آفاق التعايش السلمي على أساس الهوية العراقية بلا ألقاب وعشائر وأحزاب وفئات وتكتلات وميليشيات. إلى جانب الاستفادة من التجارب الديمقراطية التي مرّت بها أوروبا، وما عانته من أزمات بسبب الطائفية والتطرّف كما يجب الاستفادة مسبقاً عن ما تتركه الحروب الأهلية والاقتتال بين أبناء الشعب الواحد من آثار وتبعات والأقرب إلى هذه الحالات درس الحرب الأهلية في لبنان.

وعلى المثقفين الذين يقع على عاتقهم ثقل التحاور، الدعوة إلى الاتحاد ونبذ الفرقة.

وعلى رجال الدين أن يتركوا جلسات المجاملات الكاذبة للابتعاد عن جوهر الأزمات، لأن مسؤولية الخطاب الديني مهمة جداً، لا بد من إعادة إصلاحها لتقوم بدعوة الحوار لتقبّل الآخر.

والتأكيد على أن الإسلام والأديان السماوية الأخرى لم تقم على إلغاء ثقافات الأقليات أو تهميش دورها، بل دعت كلها إلى ثقافة التسامح والمحبة والسلام..

فالقضية واسعة لأنها تتضمن قضية ثقافية إنسانية ولأن محورها الإنسان، فإنها تحتاج إلى التفاعل الإيجابي مع الآخرين وتشترك معه مؤسسات المجتمع المدني ورجال الدين والتعليم والمؤسسات الثقافية والإعلامية إلى جانب تعميق الوعي الخاص بضرورة نشر المحبة ودورها في رقي الشعوب وتطوّر حضارتها.

يجب أن نسعى بكل جهودنا إلى إلغاء الطائفية من قاموس تعاملنا اليومي، وعلينا أن نتعلم كيف نتعامل مع الإنسان كإنسان بعيداً عن أثنيته وطائفته ومذهبه؟

كما يقع على الأحزاب هي الأخرى واجباً كبيراً ومهماً جداً، على تبني ثقافة الوحدة الوطنية ونبذ الطائفية. فكل واحد منا في الحياة مسؤول عن أداء دوره بشكل فاعل وهذا الدور يبدأ من البيت إلى المدرسة إلى الشارع إلى النادي الرياضي إلى المعمل والمصنع.. إلى كل مكان..

إنه واجب وطني إنساني كبير ولنعالج أنفسنا علينا أن ندرك بأن المشاعر الطائفية هي أبشع المشاعر التي تحطم المجتمعات، كما علينا أن نملك

وعياً كاملاً بضرورة أن لا نسمح لها باختراقنا. . ألم يكفنا أكثر من ألف سنة ونحن نتناقل في أفكارنا المشكلة الطائفية وكأنها بركان تنتظر لحظة انفجارها، فإذا أردنا أن ننظف عقولنا من الأفكار المتشائمة والمسمومة، علينا أن ننوّر عقولنا بالثقافة والعلم والمعرفة وأن نخرج إلى حدود المواطنة الحقيقية التي ترفض بشدّة كل ما يسيء إليها، عندئذ قد لا نستغرب كثيراً من شخص ينسف نفسه بحزام ناسف بين المصلّين سواء في حسينية أو جامع، أو إنسان آخر يقوم بقتل من يختلف معه في الدين أو في العرق لأننا عندها ندرك حجم الانحطاط الفكري والعقائدي وتعفّن عقول هؤلاء الذين يسعون إلى تدمير الحياة وبث الفوضى والرعب بين الناس الآمنين ونتمكّن من وضعهم في زاوية ضيّقة نحجم دورهم ومن ثم نقضي عليهم بإرادة مجتمعة.

قد يكون الجواب نعم، وببساطة نحن قادرون على تخطّي هذه الأزمة ولكننا نحتاج إلى بعض التطمينات وهي مشروعة لاستنهاض قدرتنا على زرع المحبة والسلام في ربوع وطننا ونتقارب في وجهات النظر من أجل أن نواصل مسيرة التقدم نحو الأمام لبناء عراقنا الجديد الديمقراطي الحر، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[1].

وقوله تعالى محذراً للذين يسعون إلى الفتنة والكفر ليعرقلوا مسيرة المؤمنين الصادقين: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾[2].

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧٨.

المصادر

١ ـ صحيح سنن ابن ماجه، محمد ناصر الألباني.

٢ ـ صحيح البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج ١، ١٩٥٨.

٣ ـ تذكرة الحفاظ، للذهبي.

٤ ـ مسند الصديق، لابن كثير.

٥ ـ ينابيع المودة، للقندوزي الحنفي.

٦ ـ المسند، لأحمد بن حنبل.

٧ ـ التفسير الكبير، للطبري.

٨ ـ الصواعق المحرقة، للمحدث ابن حجر الهيثمي المكي.

٩ ـ الطبقات، لابن سعد.

١٠ ـ تاريخ الطبري المعروف (بتاريخ الأمم والملوك)، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف مصر، ١٩٦٦.

١١ ـ شرح نهج البلاغة، لابن أبي الحديد.

١٢ ـ صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري.

١٣ ـ الرياض النضرة في مناقب العشرة، للطبري.

١٤ ـ المستدرك، للحاكم.

١٥ ـ الحوادث، لابن الأثير.

١٦ ـ مروج الذهب، لأبي الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي ت: محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ط ٥، ١٩٧٣.

١٧ ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير.

١٨ ـ الإمامة والسياسة، تاريخ الخلفاء، لابن قتيبة الدينوري.

١٩ ـ الكامل في التاريخ، لابن الأثير.

٢٠ ـ العبر في خبر من غبر، للحافظ الذهبي.

٢١ ـ السنن الكبرى، أحمد بن علي البيهقي.

٢٢ ـ التاريخ، لليعقوبي.

٢٣ ـ السيرة الحلبية في سيرة الأمين والمأمون، علي بن برهان الدين الحلبي.

٢٤ ـ نهضة الحسين، جواد الشهرستاني.

٢٥ ـ العالم الإسلامي في العصر العباسي، حسن الشريف.

٢٦ ـ فقه نور الدين في التعامل مع الدولة الفاطمية د. علي محمد الطلابي.

٢٧ ـ عقد الجمان، للعيني.

٢٨ ـ الإمامة والسياسة، للدينوري.

٢٩ ـ موسوعة الإمام المهدي، الشهيد السيد محمد محمد صادق الصدر.

٣٠ ـ تاريخ الشعوب الإسلامية، فلهاوزن.

٣١ ـ فاسألوا أهل الذكر، د. محمد التيجاني السماوي.

٣٢ ـ لأكون مع الصادقين، د. محمد التيجاني السماوي.

٣٣ ـ تاريخ العرب والإسلام حتى نهاية العصر الأموي، د. عادل زيتون، دمشق، ١٩٨٥.

٣٤ ـ الإمام علي من المهد إلى اللحد، العلاّمة السيد محمد كاظم القزويني.

٣٥ ـ ابن منظور: جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي الأنصاري، لسان العرب، إعداد وتصنيف يوسف الخياط، بيروت.

٣٦ ـ العبر، للذهبي.

٣٧ ـ فتوح البلدان، للبلاذري.

٣٨ ـ معجم البلدان، لياقوت الحموي.

٣٩ ـ البلدان، لليعقوبي، منشورات المطبعة الحيدرية بالنجف، ط ٣، ١٩٥٧.

٤٠ ـ نساء الخلفاء، لابن الساعي.

٤١ ـ العبر، لابن خلدون، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٥٧.

٤٢ ـ البداية والنهاية، لابن كثير القرشي.

٤٣ ـ البرصان والعرجان والعميان والحولان، للجاحظ.

٤٤ ـ تاريخ الخلفاء، للسيوطي.

٤٥ ـ رقماً أقرب إلى الحقيقة، يورد روسو.

٤٦ ـ أرشيف السياسة الخارجية لروسيا، الديون، ١٨٠٣.

٤٧ ـ أربعة قرون من تاريخ العراق، ستيفن هيمسلي.

٤٨ ـ دليل الخليج، لوريمر.

٤٩ ـ تاريخ العراق في العهد العثماني، علي شاعر علي.

٥٠ ـ رحلة نيبور إلى بغداد، ترجمة سعاد هادي العمري، دار المعرفة، ١٩٥٤.

٥١ ـ حنا بطاطا، العراق، الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، ترجمة عفيف الرزاز، بيروت، ١٩٩٥.

٥٢ ـ تقارير الحكومة العثمانية في البصرة، مركز الدراسات، البصرة، ١٩٧٧.

٥٣ ـ ركائز الوفاق مع أكراد العراق، د. رياض رشيد ناجي، ٢٠٠٤.

٥٤ ـ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، د. جواد علي.

٥٥ ـ تاريخ كربلاء د. عبد الجواد الكليدار.

٥٦ ـ تاريخ بغداد، عثمان بن سند البصري.

٥٧ ـ مجلة المنوعات الأدبية، مجلد ٢.

٥٨ ـ مختصر تاريخ بغداد، علي ظريف الأعظمي.

٥٩ ـ .hHp. //alshirazi.com/compilations.

٦٠ ـ تاريخ أمبراطوري عثماني، هامر بور.

٦١ ـ المجد في تاريخ نجد، عثمان بن بشر الحنبلي مكتبة الرياض الحديثة.

٦٢ ـ لمع الشهاب، أحمد أبو حاقة، دار الثقافة بيروت.

٦٣ ـ أثر الدعوة الوهابية، محمد حامد الفقي.

٦٤ ـ صفحات من تاريخ الجزيرة، د. محمد عوض الخطيب.

٦٥ ـ عبد الرزاق الحسني، تاريخ الوزارات العراقية.

٦٦ ـ تاريخ نجد، لفيلبي.

٦٧ ـ التقارير البريطانية، سجلات مكتبة حكومة بومبي.

٦٨ ـ المعجم الكبير، للطبراني.

٦٩ ـ التفسير الكبير، للطبري.

٧٠ ـ مجمع الزوائد، للهيثمي.

٧١ ـ الخصائص، للنسائي.

٧٢ ـ ضحى الإسلام، أحمد أمين.

٧٣ ـ الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي، د. عبده بدوي، ١٩٧٣.

٧٤ ـ الإمام المهدي، نظرة في التاريخ ورؤية للمستقبل، كمال السيد.

٧٥ ـ الأصول، للكافي.

٧٦ ـ تاريخ الشيعة في الهند، د. هولبيستر.

٧٧ ـ التشيع والشيعة، أحمد كسروي.

٧٨ ـ التاريخ، أبو فداء.

٧٩ ـ التاريخ، الذهبي.

المحتويات

المقدمة ٧
..... ١٤
الفصل الأول: الفتنة ١٥
تعريفها ١٥
* أولاً: الفتنة في اللغة ١٥
* ثانياً: الفتنة كما وردت في القرآن ١٥
* ثالثاً: الفتنة كما وردت في الحديث الشريف ١٦
* رابعاً الفتنة كمصطلح ١٧
* خامساً: بين الفتنة والنكبة ١٨
الفصل الثاني: محنة الخلافة ٢٠
* اجتماع السقيفة والبيعة ٢٠
الفصل الثالث: دولة الخلفاء الراشدين ٣٣
* خلافة أبي بكر (١١ ـ ١٣ هـ/ ٦٣٢ ـ ٦٣٤م) ٣٣
* خلافة عمر بن الخطاب (١٣ ـ ٢٣هـ/ ٦٣٤ ـ ٦٤٣م) ٤١
* خلافة عثمان بن عفان (٢٣ ـ ٣٥ هـ/ ٦٤٣ ـ ٦٥٥ م) ٤٤
* خلافة الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام (٣٥ ـ ٤٠ هـ/ ٦٥٥ ـ ٦٦٠ م) ... ٥٤
* معركة الجمل ٥٧
* وقعة صفّين ٦٤
* معركة النهروان ٧٢

* خلافة الإمام الحسن بن علي ٤١ هـ/ ٦٦٢ م ٧٥
الفصل الرابع: دولة الخلافة الأموية ٧٨
* خلافة معاوية بن أبي سفيان (٤١ ـ ٦٠ هـ/ ٦٦١ ـ ٦٧٩ م) ٧٨
* خلافة يزيد بن معاوية (٦٠ ـ ٦٤ هـ/ ٦٧٩ ـ ٦٨٣ م) ٧٩
* خلافة معاوية الثاني بن يزيد (٦٤ هـ/ ٦٨٣ م) ٨٢
* خلافة مروان بن الحكم (٦٤ ـ ٦٥ هـ/ ٦٨٣ ـ ٦٨٤ م) ٨٢
* خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦ هـ/ ٦٨٤ ـ ٧٠٥ م) ٨٣
* خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦ هـ/ ٧٠٥ ـ ٧١٤ م) ٨٦
* خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ هـ/ ٧١٤ م) ٨٧
* خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١ هـ/ ٧١٧ ـ ٧١٩م) ٨٧
* خلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١ ـ ١٠٥ هـ/ ٧١٩ ـ ٧٢٣ م) ٨٩
* خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥ هـ/ ٧٢٣ ـ ٧٤٢ م) ٨٩
* خلافة الوليد بن يزيد الثاني (١٢٥ هـ/ ٧٢٣ م) ٩٠
الفصل الخامس: دولة الخلافة العباسية ٩٦
* كيف آلت الخلافة إلى العباسيين؟ ٩٦
* مبايعة أبي العباس السفاح (١٣٢ هـ/ ٧٥٠ م) ٩٧
* (العصر العباسي الأول) (١٣٢ ـ ٢٣٢ هـ/ ٧٥٠ ـ ٨٤٧ م) ٩٨
* خلافة أبي العباس السفاح ١٣٢ ـ ١٣٦ هـ ٩٨
* خلافة أبي جعفر المنصور (١٣٦ ـ ١٥٨ هـ/ ٧٥٤ ـ ٧٧٥ م) ٩٨
* خلافة المهدي (١٥٨ ـ ١٦٩ هـ/ ٧٧٥ ـ ٧٨٦ م) ١٠٧
* خلافة موسى الهادي (١٦٩ ـ ١٧٠ هـ/ ٧٨٦ ـ ٧٨٧ م) ١٠٧
* خلافة هارون الرشيد (١٧٠ ـ ١٩٣ هـ/ ٧٨٨ ـ ٨١٠ م) ١٠٩
* خلافة الأمين (١٩٣ ـ ١٩٨ هـ/ ٨٠٩ ـ ٨١٤ م) ١١٠
* وقائع الحربية والأحياء المجاورة ١١٤
ـ وقعة قصر صالح ١١٧
ـ وقعة دار الرقيق ١١٧
ـ وقعة دار الكناسة ١٢٠

- وقعة درب الحجارة ١٢١
- وقائع باب الشماسية ١٢٢
- وقائع جزيرة أبي العباس ١٢٢
* خلافة المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ/ ٨١٤ - ٨٣٣ م) ١٢٦
* خلافة المعتصم (٢١٨ - ٢٢٧ هـ/ ٨٣٣ - ٨٤٢ م) ١٢٦
* خلافة الواثق بالله (٢٢٧ - ٢٣٢ هـ/ ٨٤٢ - ٨٤٧ م) ١٢٧
الفصل السادس: العصر العباسي الثاني (عصر نفوذ الأتراك) .(٢٣٢ - ٣٣٤ هـ/ ٨٤٧ - ٩٤٦ م) ١٢٨
* خلافة المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ/ ٨٦١ - ٩٤٧ م) ١٢٨
* خلافة المنتصر (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ/ ٨٦١ - ٨٦٢ م) ١٣٠
* خلافة المعتز (٢٥١ - ٢٥٥ هـ/ ٨٦٥ - ٨٦٩ م) ١٣٥
* خلافة المهتدي (٢٥٥ - ٢٥٦ هـ/ ٨٦٩ - ٨٧٠ م) ١٣٦
* خلافة المعتمد على الله (٢٥٦ - ٢٧٩ هـ/ ٨٧٠ - ٨٩٢ م) ١٣٨
- فتنة صاحب الزنج ١٣٩
- فتنة القرامطة ١٤٢
* خلافة المعتضد (٢٧٩ - ٢٨٩ هـ/ ٨٩٢ - ٩٠٢ م) ١٤٦
* خلافة المكتفي بالله (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ/ ٩٠٢ - ٩٠٨ م) ١٤٧
* خلافة المقتدر (٢٩٥ - ٣٢٠ هـ/ ٩٠٨ - ٩٣٢ م) ١٤٨
الفصل السابع: عصر الأمراء ١٥١
* خلافة القاهر (٣٢٠ - ٣٢٢ هـ/ ٩٣٢ - ٩٣٤ م) ١٥١
* خلافة الراضي (٣٢٢ - ٣٢٩ هـ/ ٩٣٤ - ٩٤١ م) ١٥٢
* خلافة المتّقي بالله (٣٢٩ - ٣٣٣ هـ/ ٩٤١ - ٩٤٥ م) ١٥٢
* فتنة البريديين ١٥٣
* خلافة المستكفي بالله (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ/ ٩٤٥ - ٩٤٦ م) ١٥٥
الفصل الثامن: العصر العباسي الثالث عصر نفوذ البويهيين(٣٣٤ - ٤٤٧ هـ/ ٩٤٦ - ١٠٥٦ م) ١٦٠
أصل البويهيين ١٦٠

الفصل التاسع: العصر العباسي الرابع عصر نفوذ السلاجقة (٤٤٧ـ٦٥٦ هـ/ ١٠٥٥ ـ ١٢٥٨ م) ١٦٧
الفصل العاشر: عصر ظهور المغول ١٧٤
الدولة المغولية التترية الجلائرية في بغداد (٧٣٨ ـ ٨١٤ هـ/ ١٣٣٨ ـ ١٤١١ م) ١٨٢
الفصل الحادي عشر: الدولة الصفوية في بغداد (٩١٤ ـ ٩٣٠ هـ) ١٨٤
الدولة الكردية في بغداد (٩٣٠ ـ ٩٣٦ هـ) ١٨٦
الفصل الثاني عشر: دولة الخلافة العثمانية في بغداد (٧٠٠ هـ/ ١٣٠٠ م) ١٨٨
أصل العثمانيين ١٨٨
الفصل الثالث عشر: الفتنة الوهّابية ١٢١٣ هـ/ ١٧٩٨ م ١٩٣
* مجزرة كربلاء والنجف ١٩٣
* مجزرة كربلاء ١٩٤
* معركة النجف الأشرف ١٩٥
الفصل الرابع عشر: عصر المماليك في بغداد ...(١١٦٣ ـ ١٢٤٦ هـ/ ١٧٥٠ ـ ١٨٣٠م) ٢٠٥
عصر المماليك ٢٠٥
الفصل الخامس عشر: فتنة سامراء ..تفجير مرقدي الإمامين العسكريين(عليهما السلام) واندلاع الحرب الطائفية ٢١٤
المصادر ٢٣١
المحتويات ٢٣٧